الأعمال الكاملة

محمد قطب

- من يقتل الحب
- صدأ القلوب
- البنات والقمر
- المدار



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٢

الاخراج الفنى :
مرفت النحـــاس

من يقتل الحب ..!

قصص قصيرة

من يقتل الحب ؟

اصطفق الموج فتحرك القلب ونبض ، لوت الأشجار أعناقها وخفقت الأوراق ، فسكبت العين دمعها · وظل نن عينى يدور خلف الجفون · أحدق فى سطح النيل الهامد ، وداخلى يتموج فى عينيها ويجمد عند الحافة ، مسحت دمعها وتمتمت ·

ـ لم أتوقع أن ننتهى بسرعة ·

وطاف الحلم يداعب الخيال وينفضه · خدرتنا الرعشة · كان زمنا عجز فيه طائر النورس عن اختراق موجنا ، كنا نظنه عاتيا وهادرا · أراحت رأسها بين كفيها وأسهمت · كانت عيناها شرطتين رقيقتين لانتصاف القمر ·

ـ فيم تفكر ؟

أعتصر الحنان يقطر من صوتها الحزين · وكف قلبى عن النبض · شعرت بصوتها رغم رنة الخفوت كشفرة حادة تقف على رقبتى · سحبت بصرى المسكوب الهامد ، والمشدود بهمود النيل فالتقيت بصفحة وجهها ، كانت الدمعة تنساب رقيقة ثم تتكور كحبة بللور صافية وتستقر على شفتها العليا · وغاص قلبى وزلزلت · مددت يدى ومســـحت الدمعة ، واختلجت الشفتان واحمرتا · سبقتها اللهفة فقبضت على يدى · أراحتها على خدها وقبلتها · أبقيت يدى وترنح القلب فى داخلى · رمقت من بعيد عيونا تزاحمنا فانسلت يدى ، وعاتبتنى عيناها · هربت من سطوة النظرة ··

وأشعلت سيجارة ٠

– كنت أود أن أسعدك ٠

ولو غسلنى ماء النيل ما بين الجيزة والمنيل ، فسـيظل لقطرات صوتها الفائض فى قلبى نقطة باهرة ، راعشة ، تستعصى على كل موج ٠ هذا الصوت الريان الدافىء الحزين سحب من العمق سخونة الدم ، وتجمد عند نقطة صدئة تترجرج فى داخلى ٠

– يبدو أننى كنت أحلم ٠

– من منا لم يحلم ؟

وجدتك والحزن غويط يملأ القلب ويفيض ٠ ففى أيامنا هذه تندفع الى الحب ، فلا خيار بين الحزن والحب ٠ نبضان يلتقيان : ففى الحزن حب ، وفى الحب أحزان ٠

قربت السيجارة من ورقة كانت أمامنا ، فاحمرت ، وتفحمت وتصاعد الدخان ، رمقتنى ثم حدقت فى الدخان يتلوى وابتسمت فى غل ٠ تكبرين حين نبتعد ، وتصغرين حين نلتقى ، وفى الغياب والحضور يمرح الألم ٠

كنا حين نسير ننظر الى أقدامنا ، وكنت تخجلين ، ننكفىء وتضحكين وتسحبين يدى وتمرحين ٠٠ ويرتفع الأنف عاليا يشم ريح النيل ٠٠ يطير الهواء شعرك ٠ وتظهرين من وراء خيمتك وجها قمريا ٠٠ وحبة كريز ترتعش ، وأنا أنظر فى أعماق عينيك وأرتجف ٠٠ وألاحقك ٠٠ وأتوه فى موجك المستكن ، وآخذك من يدك ، أطوحك فى الهواء وأسقطك ٠٠٠ و ٠٠٠ وتحدقين فى الهيلتون وتسـهمين ٠

وتغرقين فى الضحك ٠٠ وتضغطين بكوعك موضع الألم ٠

ــ تخيل ٠٠ ليلة واحدة !

ولأنك كنت حين تمشين ، ترقصين ٠٠ توقف الزمان وابتدا ٠ والناس يرموننا باللهب ٠٠ وأنا بك أتقى البشر وأحارب العالم ٠ فأمواج النيل ما عادت تحتاج الى سدود ٠٠ ونحن يا حبيبتى ٠٠ من يرتعش منــــا فى الهواء ٠٠ يسقط فى الفراغ ٠ وندور فى الشوارع ، وتحلمين بعش وافراخ واناء وشراب وطحين ٠٠ وتعكسين فى عينيك الق الأضواء ، ترسمين لى فى مخيلتك صورة الفارس القـــديم ٠

ورمسيس لايزال مصـــلوبا فى ميدان رمسيس ، وتطوين السلالم على قدميك ، وتصعدين ، تتكسرين ٠٠ وأنا ألهث خلفك ، أطمس العيون بالتراب ٠٠ خوفا عليك ٠٠ وتحت قدميه وقفنا كما ولديه ٠ والرذاذ يصنع الفراغ ، والشمس مصلوبة ٠

وأنت تتحسسين قدميه ، وترمقين جسمه ، وهالك الجسد ٠ دحرجت بصرك بيننا وابتسمت ، وكدت أنزوى ٠

ــ كنت أود أن أحارب بك العالم ٠

وكفكفت دموعها :

ــ جئت بى لتصمت

ــ الناس ينظرون

ــ لا يهمنى الناس

ـ يمهنى أنـا

ـ ما عدت تطيقنى

وحبك عطاء ٠٠ وعطاؤك صـــدق ٠٠ لو رأيت فيك ابتذالا لقتلتك ولكن حزنى كبير ، من أين يأتى الحزن ؟ ليس له اتجاه ٠٠ فكل الطرق توصل اليه ٠ النيل ، والشجر ، والشارع ، والناس ٠٠ مرح الحزن فى كل مكان واستقر فى قلوبنا ٠٠

ويتردد النفس ثقيلا وبطيئا وضاغطا ٠ ٠

ـ مالـــك

ـ ٠٠٠٠٠٠

ـ لا تتعجل الأمر وابق معى لحظة ٠٠

ورأيته يحتوينى من كل جانب ٠٠ ترشح المسام به ، فأختلج وأتألم وأقاوم ٠٠ والحزن ٠٠ ما باله غيمة سوداء مترعة بالقطر ٠٠ وأمد يدى فاغر الفم والفؤاد ٠٠ يشـــدنى اليك قلبك ، وحبك ، ورشح الحنان فى عينيك ، ويبعدنى هذا الذى لا يزال معقودا فى غيمته ولا أعلم ، متى ينهل وينتهى ٠

●

المسافرة



وصـــلت المحطة متأخرا ، بحثت عن عربة تقلنى الى البلد فعجزت ٠٠ كان « الموقف » صامتا ، وانسحبت عليه دعة طارئة لم يتعودها ومرح فيه كســـل لم يألفه ٠ تراصت عربات البيجو القليلة ، وفتح سائقوها أغطيتها وانتظروا ، بى خوف منها ، فلم أسأل ٠ ولم يبق أمامى الا الســـفر عن طريق طنطا ٠ فعربات « الخط » متوافرة ٠ تخيرت واحدة جديدة وصعدت ٠ جاء جلوسى بجانبها ، فردت الصحيفة وطالعت العناوين ثم طويتها ٠ خطفت بعينى المرئيات والشـــوارع حتى وصلنا الى الطريق الزراعى ٠ الطريق طويل تحفه الخضرة من الجانبين فساعدنى على الشرود ، والمقعد طرى ولين ونظيف فغصت فيه ٠ ناولت المحصل جنيها كاملا ثمن التذكرة ٠ وحين امتدت يدها لتعطيه الجنيه بان لى وجهها ملائكيا جميلا ٠ العين الخضراء ، والأنف المدبب والذقن المسحوب الى العنق فى استقامة ٠ اهتزت خيوط « الشـــال » وتطايرت ، فحجبت عنى شعرها ، ولكننى رجحت صفرته ٠ اعتدلت ، وأسندت رأسها وحدقت ٠ كادت عيناها تلامسان الزجاج ٠ ضايقها الهواء فانسحبت الى الداخل ، لامستنى فأعدت قراءة الصحيفة ٠ كان فستانها واسعا هفهافا ، فهب الهواء فيه وانتفخ ، أحكمته ، وشدته ٠ فبدا ساقاها مشدودتين ومرسومتين ٠ ولكن الهواء عاود التسلل ٠٠ تلفت بركن عينى ، فطفت على وجهها حمرة خفيفة ، وانطبق الجفن فى ارتعاشة ، ثم وضعت ساقا على ساق ٠

كان لون العين يثيرنى ٠ بى ضعف معروف تجـــاه العين الخضراء ٠ لا أراها حتى أتملاها ، أقف على خبايا اللون وتركيبه ،

أخضر صاف كخضرة البرسيم • أخضر مشرب باللون البنى ، أو أخضر رمادى اللون ، أو يميل الى الزرقة •• انحرفت يمينا ثم شمالا •• ثم اعتدلت وغصت فى المقعد ، وهى لاتزال رافعة الرأس تنظر برتابة الى الأمام • وخيوط « الشال » يداعبها الهواء •

واهتزت العربة فجأة وبعنف حتى اصطدمنا بالمقاعد الأمامية •• كانت الفرملة زاعقة ، وانهال السائق سبا • وهى •• استقام جذعها ومدت عنقها ونفرت منها العين قلقة مضطربة •• لحظتها اصطدته ، هذا اللون الأخضر البرسيمى ، ساح وانتشر حتى كاد يأكل عينيها ويجور على البياض ، لم تفتنى حركة يدها حين وضعتها على قلبها •• ولا الحركة العصبية وهى تسند جذعها بتوتر • ملت اليها هامسا :

ـ حدث شىء !؟

أدارت رأسها بخفة ثم عادت الى وضعها مشرئبة العنق تحدق فى الطريق ، وتمتمت بكلمة متقطعة •

ـ مجـــانين •

حاولت أن أواصل الحديث ، فأدارت وجهها الى النافذة ، اجتاحنى اللون الأخضر ، احساس بالفيض ينثال على ، تعترينى رعشة الرائحة ، فتتخدر حواسى بملمس اللون • وزهرات البرسيم البيضـــاء • غمست عينى عبر النافذة ، فلاحت لى غيطان الذرة خضراء متوجة بالكيزان • وقعت ذاكرتى تحت سـطوة اللون ، وسيطرت على قوة قاهرة أن أراه •• أن أتملى هذا « النن » الأخضر وأن تشرب عينى منه وترتوى • حاولت أن أدير وجهى اليها •• ولكن السائق خفف من سرعته ، ونهض الراكبون عن أماكنهم ، وصوبوا عيونهم المندهشة الى حافة الطريق •• لمحتها تنهض وتميل

برأسها ، أحنت صدرها فلامست خيوط الشال أذنى وارتجفت ٠ علتنى الدهشة فقمت ٠ كان اللورى غائصا فى الماء ، والآخر مقلوبا على ظهره ٠٠ وعربات الاسـعاف تزمجر ، وحين ابتعدنا أدارت ظهرها ، ولاح على وجهها حزن مستفز ، تمتمت وكأنما تحادث نفسـها ٠

ـ مجـانين ٠٠٠

ملت اليها ويدى تفرك الصحيفة ٠

ـ هذا الطريق مخيف ٠

ـ لا تمر ساعة الا وتقع حادثة ٠

أدرت وجهى بحذر ، وأنا أميل الى الأمام ٠٠ علنى ألمحه ، هذا العصى الجائر على العين ٠

ـ تسافرين كثيرا ؟

لم تتلفت ، ولم تتحرك وظل وجهها المدور المشرب بالحمرة تخفيه عنى ذوائب الشال المتطايرة ٠٠

ـ ليس كثيرا

ـ من القـاهرة ٠

ـ لا ٠٠ ولكنى أعيش فيها ٠

ـ طالبـة ٠

ـ نعـم ٠

وحدقت فى النافذة ، فران الصمت ٠ وعاود الهواء تغلغله ، فانتفخ الفستان ، قامت وشـدته تحتها ، فبانت تقاسـيم جسمها

واضحة ، الصدر النافر ، البطن الضامر الساقان المزمومتان ٠٠ استرعى انتباهها نظرتى ٠٠ رفعت بشالها على جسمها ٠

ـ الفستان الواسع مريح ٠

ابتسمت خفية ، وأزاحت خيوط الشال ، ولمست وجهها ، وضغطت على أنفها ، وضحكت عيناها ، وساح اللون الأخضر ، قصـــدته وتصـلبت عينـــاى عليه ، أطبقت جفنها ، واهتزت الرموش ٠٠

ـ طنطـــا ؟

علتها عبسة خفيفة غضنت جبهتها ٠

ـ لا ٠٠ ولكنى سأستقل عربة أخرى ٠

ـ الى أين ؟

فتحت عينيها دهشـــة ، فأدركت كم يكون عادلا أن يجور الأخضر على العين بتمامها ٠٠

ـ طريق شبين الكوم ٠

ـ هو طريقى ٠

لملمت نفسها ، وصوبت بصرها الى فى قوة ونفاذ ٠

ـ ألا تخشين السفر بمفردك ؟

قالت ، ولاتزال تحدق فى قوة ٠

ـ كيف وأنا أعيش بمفردى ٠

ـ ٠٠ ولا تخافين من نفسك ٠

وضحكت ، فزغرد اللون الأخضر فى داخلى ، وانثال شعورى فيضا عطرى اللون ٠

أخاف من نفسى !!

وعلت بسمتها ، فرف على الوجه ضوء وردى ٠

ــ من لها جمالك تشعر بالخوف ٠

ــ ولهذا أطمئن ٠٠

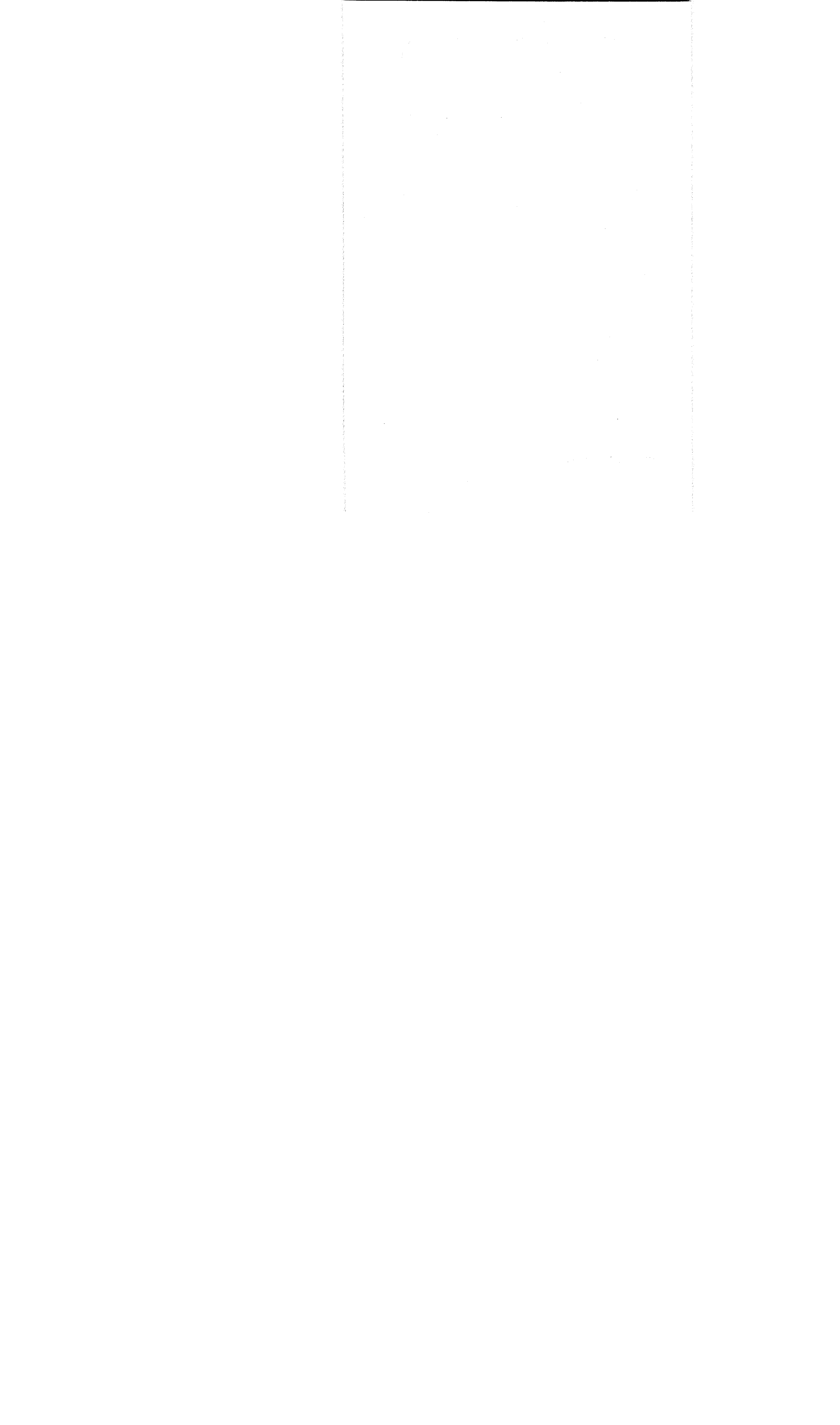
واحتويتها فى داخلى ٠٠ وقطعت عن ذهنى خيط الذاكرة ٠

ــ لأنك جميلة تطمئنين !!

ــ نعم ٠٠ لأنى أعرف كيف أحافظ عليه ٠

ووصلنا الى المحطة ٠٠ وكانت مزدحمة ، أخرجت حقيبتها واستعدت للنزول ، طلبت منهـــا أن أحمل الحقيبة أثناء الزحام والتدافع ، فرفضت ٠ فضلت أن تشق طريقها وســـط الحشد بحقيبتها ، لكنها حين رفضت كانت عيناها تضحكان ، وكان اللون الأخضر منتشرا ، ومنسابا كحقل برسيم هبطت عليه نسمة رخية ٠٠ تابعتها بنظرى ٠٠ معتدلة القوام ، محبوكة الخطو ، وخيوط شالها تتمايل على جذعها ٠٠ والتوى قلبى ٠

●



إيقاع الكلمات الصديئة



مدخـــــل :

ها هى عوالمى التى تصورت أننى أسبح فيها محتويا ضوءها الباهر ، مستلهما منها براءات وجود لم يتشكل ، تتسرب من أمامى شيئا فشيئا ، فالثلج ربيعه الشتاء ، وشتاء الأيام قاس ·· وعمرى الممتد شتوى الألم ·· فى زماننا يصعب علينا أن نسلخ الأشياء بحدودها · ولادات العصر عسرة · عالمى الوردى غطـــاه غلاف أبيض · وحتما للوردة أن تورق : تمتد الأيدى لتجهض البراءة · دائما أدس عينى فى الأشياء · وحين تلاعبت عينى بعالمى اكتشفت أن تحت الغـــلاف قاعا ساحت معالمه · تداخلت ألوانه ، دارت فاســودت · تقاطرت حــوله الجهامة ، ومن العين الكليلة رشـــح الملـــل ·

★★★

ضحكت الطفولة تغطى وجهها الحزين ، رياح الخريف تهب ، تنعش النفس ، موج البحر يتدافع ، يلمس الشاطىء ، تذوب الرمال ، ذوبان حسى المرهف ، حين وضعت يدى فى يدها سرى فى دفء الأيام الخصبة ·

ـ تأخـرت !

كان كل ما فيها حلوا ·

ـ دائما تتأخرين ·

ـ رغما عنى ٠

الأشجار تتمايل فى رقصة غاب بكر ٠ سقطت على رأسها ورقة خريفية ٠ سحبتها ووضعتها أمامنا ٠ هالنى أن تتأوه لمرآها ٠

ـ أخاف من الأصفر ٠

تحسست كفها ٠ كفها كان رقيقا ٠٠ كيد طفل وليد ٠

ـ لـــــم ؟

ـ باهت كالنهاية ٠

أمارس الأشياء فى بدايتها برغبة ملحة على النهاية تواجدى عصارة راشحة فى الشىء ٠ أتمدد فوق الأشياء لأسحبها من أذنها غصبا ٠ البدايات أكثر رقة ٠ تظل الأشياء تتحاور ، وعند خط النهاية تكف عن المحاورة ٠ العجز وجود ٠ العجز يتسرب الى الأشياء ٠ وقبل أن أصل الى نقطة الوسط أكون قد سقطت ويتزاحم ثقل الأشياء فوق صدرى ، كأنهما حمل السنين الأولى يوضع على الكتف ٠ والعجز وجود ٠ يتقوس الظهر ، تعوج الساق ، لأن ـ فى الأصل ـ الأشياء زاحمت مجرى القلب ٠

ـ انه الخريف ٠

قالت ورجفة القلب تجرى بالعين الى عالم مخبوء بين جنبات ضوء منسكب من شعاع شمس قتلها الغيم ٠

ـ قل زمن الأشياء ٠

تعلقت الدهشة فوق رأسى ، تغضنت جبهتى حين سحبها الانفعال ٠ تكور الانفعال علامة استفهام ٠ أذنها علامة استفهام ٠ الجمجمة التى لا تفرقها عن جمجمة طفلة ، سرى فيها تيار حزن

جديد · ولادة فكرية مغلفة بالشعور · زمن الأشياء !! من أين عرفت ؟؟!! وقشور الحياة مجرى اهتمامها ·

ـ تعبير رائع ·

ـ أعجبـــك !

ـ كيف أتيت به ؟

ـ أحسسته ·

ولذت بالصمت · حين تكبر الأشياء فجأة أمامى ألجـــأ الى الصـــــمت ·

ـ ألست شيئا ؟!

ـ أنت كيان ممتلىء ·

وهدير الموج يطغى على همساتنا ، ورذاذ الماء يبل المكان ، فيرطب الفم ويرعش الحس · عيوننـا مصلوبة على أســـفلت الشارع ، الليل فى القاهرة نافورة ضوء · تتراقص الأضواء فى عينيها ، أحس انسكاب اللون من العين · أنت ليلى وضوئى ، الخط على العينين رفرفة تسبح فى العين ، فتخضل العين بنور البهاء ، أميل بهما فتتمايل ، تهتز الأشـياء ، ترقص الأضــواء ، يتلاعب الضوء بالحس ، ينسجم فى الأحشاء القلب ، يعلو النبض على مسرى الحركة · الشارع قلبان · والصمت عنفوان الحس وحين يمتد صمتنا تدع يدها على القلب ، فتطمئنه ضحكتها الخافتة · وتر عود يرتعش ·

ـ أنا الآن مطمئنة ·

وتضحك عين فى صمت النبض ٠

ـ قلبك معى حتى فى صمتك ٠

بائع الترمس ـ فى الشارع المغسول بالأضواء ، الأخرس فى دوامة ضجيج لا ينتهى ـ يقطع علينا تناغم اللحظة ٠ قراطيس الورق منتصبة كرماح صحراوية ، عكست عين الشمس ٠ وهج العين يدعونا ٠ ملنا اليه ٠

ـ بقـــرش ٠

ـ بس !

نظر اليها بائع الترمس كأنما يلتمس منها المزيد ، وعينه تتخالج فى خبث ، وضعت يدها فى جيبى وأخرجت قرشين ٠ تناول القرطاس ، دببة بشكل لا يحتوى الا على حبات قليلة ٠ مع أنه حاول أن يدعك حبات الترمس كما لو كان يدهنها لتروق فى العين ٠ ناولها القرطاس ٠

ـ أنت طيبة ٠

وضحكت فى جذل طفولى ٠ حين تضحكين يتراقص العالم حولك ٠ يسرى النبض فى الأشياء فتهتز ، وحين يغلبك الضحك أمام الآخرين تسحبينه سحبا ٠ تضنين بضحكك ثم تدعكين الضحك فى شفتى ٠ وحين رآك بائع الترمس تدحرجت حبات ترمسه ٠ وغض من بصره ٠

ـ اضحكى يا هانم ٠

وانكمشت ، وتمتمت شفتاك دهشة ٠

ـ تضـــحك !!!

وحين كنا نلفظ قشور الترمس ، كانت صورة الموقف لاتزال عالقة بذهننا ٠

ــ عشتك فى صحوى ومنامى ٠

ابتسمت فى عذوبة فاهتزت الأشجار ، وتماست الأوراق فى حفيف منغم ٠

« فيك يضيع احساسى بالضياع ، معك أحس بشراع الدنيا يخفق ، بدفة قلبينا تسير فى هوادة » ٠

ــ أنت لا تفارقنى ٠

وتقلصت أصابعها ٠ الأسنان تجرش الشفة ٠ وموجة خفية لطمت وجه الشاطىء ٠

« الزمن يداعبها أيضا »

ومســكت بالورقة ، وكان شرود العـــالم كله تجمع فى نظرتهــا ٠

ــ مالـــك ؟!

نصف ابتسامة على وجهها ، رمت برأسها ، لمحت عاشقين يتعاتبان ، أزعجها دموع المرأة الأخرى ، غمست عينيها فى موج البحر ٠٠ وتمتمت ٠

ــ ليس هناك من يستريح فى هذا الزمان ٠٠

وفى العطاء حب ، انحط عقلى فى قلبى ، حاولت أن أوضح لها بعض الأمور ٠٠ فأن تحس أننا نشف فى التواصل ليس أمرا عاديا ، انه شىء محبب يلجأ اليه ٠

– أعرف أننى أسبب لك ألما ٠

– لست تجبرنى على كل حال ٠

العروق تفور قبل الطوفان ٠ والبركان حصـــيلة دمدمات جوفية ٠ وتجمع القطيع ضد الطبيعة أمر غريزى ٠

النهار مخنوق ، والغيوم لون عنق الضوء ، والصمت ملاذنا حين نعجز عن الكلام ٠ الشوارع الفسيحة عنق زجاجة ٠ أماكن الهمس ، أماكن الذكرى ، نقطة بيضـــاء فى مرمى العين بعيدة الأضواء ٠٠ وتدحرج الشارع تحت قدمينا ، والعيون مصلوبة على موج النهر ، نسكب فيه انفعالنا ، نخفى فيه حيرتنا ، قلقنا ٠

– كان بودى أن يبقى قلبى جوادا لك ٠

رحت أتلفت حولى ، الهروب بالعين تواجد بالقلب ، وعصفورة شغلت جانبا من تفكيرى ٠٠ تتنطط فى عنفوان وحيوية ٠٠ تمنيت أن أكونها ٠

– ألم هائل يعتصرك ٠

– ألا تدركه ؟!

– ليست المرة الأولى التى أراك فيها تتألمين ٠

– الآن طعمـــه يختلف ٠٠ قل انه حزن طفل فقد لعبته الجميـــلة ٠

قلت ضاحكا أخفف عنها ٠

– أرجو ألا أكونها ٠

– انها تسقط حين تبلغ مدركها الزمنى ٠

— أيعنى أننى سقطت !!

والعين ملأى بالحنان ، أبحث عنه فى عيون الناس فلا أجده • أن تكونى صغيرة وتحملى كل هذا الحنان أمر لا يصدق • لكنك خصصتنى به • غصت فيك لأن فى قلبك طفلا لايزال • وأننى ناكص دوما اليه ، وربما لأننى لم أعرفه • يد هائلة اعتصرت قلبى حين عجزت أن احتفظ بأمى ، كنت الأم الطفلة ، كنا نلعب كأطفال وفى النهاية تؤدين دور الأم •

— احترت فيك •

— لـــــم ؟

— فيك أعيش طفلا ؟

— وفيك أحس بأم لم أرها •

ينبسط وجهك ، تاخذيننى جريا ، وفى جريك نرقص ، وأنا الذى أسير بحساب ، وتصنعين العالم بالضحكة ، وأنا الذى أرقب العالم فى حذر الشيخ ، تصعدين بى الأطباق ، وأنا الذى يمسك قلبه خوف المحظور • لك ولع بالأطفال وأنا الذى أرقبهم فى تحسر• تضعين يدك على أية طفلة تمرين بها ، ولو على صدر أمها وأنا أغمض عينى على عالم كان قاسيا •

— أذكر أننا جددنا هذا الأمر •

— تلك لهجة غريبة •

— كان ذلك مريحا •

— ألا زلت كما أنت ؟!

— كمـــا أنا •

ظللت تنظرين الى وعيناك دمع سيال ، لم أقو على ايقافه . وامتدت اللحظة امتدادا هائلا . دلدلت الأشجار حوالينا أغصانها مولولة . كفت العصفورة عن الصوصوة . طيرت هبة ريح الورقة الصفراء ، وهدر النهر ، وعلا نشـــيج من طاولة بالقرب منا ، ونهضت . أستبقيتك فأبيت ، لكنك قبل أن تمضى نظرت الى .. كانت العين أسى لم أره .. وكفك لازالت فى كفى .. أخرجت الكلمات غصبا .. وكنت تقتلين الحياء فيك .

ــ أممكن أن أراك ؟؟

والفيضان يكتسح ، وهدير القلب يطغى على موج النهر العفى .. ونقطة العقل عندى تتلكأ .. لكننى ذبحت نفسى حين تمتمت فى صوت غائم .

ــ ولو على التليفون .

وحين مضت ، بكت العصفورة ونفرت ، خلعت ملابسى ونزلت النهر ، أضرب النهر فيقهقه ، أعـــوم فأســـقط ، أرمى الذراع فتتصالب . وخيالك رقراق على صفحة الموج . ونقطة الشهد ذابت فى ملح العجز .

●

في الليل.. تكثر الحشرات

أبث البك حزنى ، أنت القلب الهائل ، العاصر والمعصور ، الضارب والمضروب ، الصدفة الصدئة خازنة المارد أنت • الكاسر قشرة الكلس ليخرج المارد دخانا أسود يتلفع به الكون أنت • الهوام احدى خبطات قبضتك • وارتعاشة الأنفاس مسرى بخارك القاتم ، وسكونك المظلم • فيك أحس أننى خيط قاتم ، منسوج فى شبكة خرقاء ، يندلق منها الاحساس هادرا وميتا • حين تفرش عباءتك لتحتوى الكون يضيع فيك عالمى • ولدتنى أمى فى عتمة ليلة شتوية الألم • قالوا ان ظلام الحجرة تجمع نقطة مصلوبة السواد فوق جبهتى • من يومها تلازمنى كظلى • تحاكينى ، تعاتبنى ، تصفعنى فى أكثر الأحيان • بخارك الليلى ياليل •• أنفاسى تترى محروقة بعصب الحس المشتعل ، مدعوكة فى جدران صلدة • وأنت الثائر الساكن ، الداخل • تعربد فوق الرءوس ، تدخل الشقوق ، تعبث بالأشياء ، أنت وحدك من يعرف المخبوء • أنت ذاتك تحمل من القدرة ما تجعلك تدلف الى أدق الأشياء وجودا • برغم أنها فى النهاية قد تشابهك ظلمة واسودادا • تبنى فوق الأشياء ، عشا لك • أقدامك تدهس مكمن النبض ، وتتمدد• تقطع أظفارك السيفية خيوطه الدموية ، وتتمدد ، تتخثر الكبد فى التجويف ، وتتمدد • تجحظ العين كحبة الجميز ، وتتمدد تدلق من المآقى صفح الدمع المغتصب ، وتتمدد ، تلوى العنق تكسر الظهر ، تشد الساق ، تكبس فوق العصب الثائر ، وتمدد •

★★★

لا أقوى على الحراك . الرجل الغاضب عاصف . والريح الشتوية تجتث من الخصب البذرة . ماذا يحدث لى .. أسير فى طريق مسدود ، والنهاية منحدر صخرى ناتىء .

★★★

حين نزعت ملابسى فى فجر اليوم الأول لأغوص فى بحر الأيام أضرب البحر بعنف ، أستشرف من أنف الماء نقطة ضوء ، حزم السواد الأفق ، وتلون الموج فى قتامة لون متدرج . تفتت الحزام كثرت الأحزمة دوائر سوداء مظلمة تلتف وتدور . الأرقش يتلوى ، وفحيح الفك لسان وناب ، وأنفاس سامة حارقة . وأنا أضرب البحر ، تدور عجلة اللون مع دوران الماء . يضيع معنى اللون ، يتكون الأسود ، وتهدر الموجة ، غول بألف جناح ، وألف قدم ، وألف رأس عينى تاهت فى المرأى قلبى نط الى الحلق فاسودت الشفة . ضعت فى الموجة . الموجة كتلة ظلام رطبة . قالوا حين أخرجونى الى الشاطىء اننى كنت أصرخ فى عنف النهاية .. الليل .. الليل .

★★★

- أحبك .
- وأنا .
- أود أن نبنى عشا وردى الضوء .
- أتمنى .
- املأ المكان نورا لا ينطفىء ، ووردا لا يذبل ، أدور بك فى كل الزوايا .. أرسمك على كل الجدران ، أضع بصماتك على كل حس ، أحلق بك ، طائرين صغيرين ، ينهضان من صحوة الزمان لصحوة الوجود .

ـ ومراياك ؟
ـ تعكس ألف صورة وصورة ٠
ـ وصورتك !
ـ صورتك ٠
ـ وأنت ؟
ـ لك الى الأبد ٠
ـ والزمـــان ؟
ـ جواد ينطلق ٠
ـ والأيـــام !
ـ تعصر حلوها
ـ ومرهـــا ٠
ـ نلفظـــه ٠
ـ والنواة ٠
ـ نزرعها ٠
ـ أين ؟
ـ فى الحشـــا ٠
ـ لـــم ؟
ـ لتثمر ٠
ـ مـــاذا ؟
ـ طفل الأيام المرجو ٠
ـ متى ؟
ـ حين نشـاء ٠
ـ والمكـــان ٠

ـ بستان وردى ٠
ـ وأنت ؟
ـ وردته بالطبع ٠
ـ وأنـا ٠
ـ ساقيـه ٠
ـ وهـو ؟
ـ من ؟
ـ هـو ٠
ـ وضـح ٠
ـ هـو ٠
ـ وضـح ٠

★★★

لكن الوردة الحمراء كانت خرساء على الطاولة ٠

★★★

يرشح المقت من النظرة ، تنطبق العين فى التواجد على شكل زمنى مسلوخ منه عمر الأيام ٠ الجلسة فى سكون عبث بالقدم ، وهو ما كان يتحسس طريقه تحت الطاولة ليلمس حافة الساق ويدغدغ الشعر المنتصب بفعل التهييج ٠ هذا المتكرر دوما لا أعرف له تفسيرا ٠ أن يصحو الانسان من حلم لذيذ ، فاذا الأشياء صلدة ، واذا الزى تغير ، واذا الجموح بلادة ، ولذة الاحساس ألم ٠ والوداعة شبكة عمياء مخروقة النسج ، صمغية الخيط ٠ ينضح من البسمة الكاسية ، الفارشة الوجه المتقاص

ضحكة خالصة • خبطات الأدراج من الحجرة الأخرى ، صحو همسي موءود بوجودى • صفقة الباب اشعار بالتواجد حتى فى لحظة الانفصال الوقتى • الذراع الممتدة فى نشوة الحياة ترتمى فى خدر الاستكانة • الكف البض تداعبه ، تلمسه ، أصابع ممسوخة بصدأ الزمن الشائخ ، لكن لها رعشة ، تنقبض الكف فى توتر ••

(ضاعت من العين البراءة ، وانتفض ، أنهض ، العرق يغسل جسدى كله ، أبحث عن الصوت الخارق طبلة الأذن •• لا جدوى •• فالصمت له هسيس الصراصير المقلوبة على الظهر •• يرعشنى الصوت •• لازال •• مطرقة الحداد على السندان تلوى أسياخ الحديد المبرومة ، وأنا يلوى عنقى صوت مشروخ ، مسموح ، محموم ، كاو •• أتلصص بالعين والحس ، والقلب •• أبحث عما حولى •• لا جدوى •• لا جدوى ، أحدق فى الفراغ •• فى المكان •• فلا أجد سوى سكون الليل الميت ، والجسد الملفوف بعباءة ظلمة ليلية ساكنة) •

والعين الأخرى تراقب ، تسخر ، لكن من يعى وسط دوامة موج عات ، الضحكة نصل • الثوب الملتوى ، الكاسى ، المنحسر ، الكاشف متمرد • طلاء الزينة دهان يكون حين نذهب ، الوجه العارى من •• مسحة الجمال حين أكون • العرى فى الزوايا مسح من قلبى الرغبة فى المواصلة •• التجمل هناك ، والجدب عندى ، وصدأ الزمان الشائخ يضحك ويدلل ، ورد الفعل ابتسامة الرضا ، وأنا الحظ فى اكتواء قلب محترق بالنار • من يدرى حتى الآن كيف يرشح من النفسى رهيف الشعور • طأطأة الرأس معزوفة اتفاق قلبى منتظر لحظة انشغال • طير هى محلق الجناح •• وكان يجب أن يكون معى ألف جناح • تدور فى المكان الرطب نشوى ، انسحب منكرا ولا تدرى •• العين التى لا تعرف كيف تبصر

عمياء • والعين الأخرى تنظر فى دهشة الغل ، ورفرفات الستارة ، تسخن ملامس الأصابع بطراوة الدء ، لكن من يدرى أنه البـدء فقط !!

★★★

على سور بيتنا القديم بيت حمام ، الهديل ينساب فى تناغم صوتي محبب ومتواصل ، تسبيحة القلب الغريزى • منقـاران مدببان صغيران حلوان يندسان فى التجويف ولا انفصال • الحب المخزون فى حوصلة السعى اليومى ، ينتقل عبر ممر ضيق متسع بفعل لتعاطف الحانى • ورأس الذكر يهتز حين تبخ بالحب فى فم الأنثى • والعين ضاحكة ، تتحرك حواليها بتحركات رقبة لينـة تعكس ريشها الناعم ضوء الشمس الأحمر • رهافة ريش متموج على صدر الحمام • يهشان معا ، ترفرف الأجنحة معا ، ينثال عبير التواجد الحيوى فى امتاع اللحظة معا • يذوبان حين يطيران معا • الوله القلق المكشوف حين يغيب ، وعتاب المنتظر حين يعود ، ودلال حين يقترب يظل معها • يحاورها ، يأتى لها بحصاد المنقار الأخضر الصغير ، يرش حولها حبات خضراء مغسولة بدم التجويف ونبض الصدر • حتى اذا ما شعرت أنه هو •• وأنه فى طيرانه لم ير غيرها •• أقدمت عليه متهللة ، فاردة الجناح ، وتنميـــل يرعش العصب ، وينفش الريش فتسترخى ، ويفور الذيل والجناح مراوح هوائية ترطب المكان له •

(أين هى منها ••) •• أصابع الأرجل الرقيقة ، الدقيقة ، تثير الحس حين يمسح جسدها برأسه •• ولا أدرى هل كان حمامنا من نوع غريب ؟ ، يضع رأسه تحت الجناح وينقلبان ، تائهين فى دوامة لحظة لا تتكرر ، حتى اذا ما حط طائر آخر ، استبقا الى زاوية أخرى للوله الذى لا ينطفىء •• وغبت •• وعدت •• ولم أر الحمام قالوا هربت مع آخر ومات ذكر الحمام غما وكمدا •

★★★

ـ كانت تحبـــه ٠
ـ وهو أيضـــا ٠
ـ كان يسعى اليوم طوله ليؤكلها ٠
ـ وكانت الأرض جناحها المفروش ٠
ـ من كان يراهما لا يتصور ما حدث ٠
ـ لا تهتـــم ٠
ـ كيف لا أهتم ؟
ـ (ليس لهذا الحد) ٠
ـ أما تأثرتـم ؟
ـ صعب علينـــا ٠
ـ فقط ؟
ـ أننصب له مأتما ؟
ـ ألم يبحث عن أخرى ؟
ـ ظـــل منتظرا ٠
ـ لم تحم حوله اخرى !
ـ كثيرات ٠
ـ رفض !
ـ الكثيرات
ـ كان رائعـا ٠
ـ غبى ٠
ـ لا تتهمـــه ٠
ـ الحمامات كثيرات ٠
ـ لكنه غيرهـــم ٠

– غبى ٠
– وفى ٠
– ظل ممتنعا عن الأكل ٠
– نحف بالطبـــع ٠
– حاولت والدتك ذبحه لأخيك الصغير ثم تراجعت ٠
– أمـر طيب ٠
– كان عظاما ٠
– لم يغن اذن ٠
– لم يطر ٠
– أين كان ٠
– فى زاوية القلب من البيت على السور ٠
– طوال النهار ٠
– وطوال الليل ٠
– لم ينـــم ٠
– ولم يصـــح ٠
– كان عظيما ٠
– لا تضحكنى ٠
– حزنت لـــه ٠
– هيـا لنـأكل ٠
– ليس بى رغبـــة ٠

★★★

حين تهيأت للنوم وأطفات النور ، وسحبت الغطاء ، رفرف فى جو الحجرة طائران ٠ نهضت خائفا اعرف أن الأشباح لا تظهر

الا ليلا · النوافذ مغلقة ، والباب أيضا ولم أر شيئا · لكن تموجات هواء الحجرة لا يزال ·· لم أبرح المكان · نقطتان سوداوان تتعلقان بالسقف ، تنحطان بسرعة · الظلام دامس · سحبت الغطاء · شكل الطائرين أكثر ظلاما · رعب عتى احتوانى · فى زوايـا الأركان انسحابات لونية مسودة، تتشكل على الأرضية نقطا سوداء تتجمع· فى مدخل الحجرة لطخة معتمة · أحكمت الغطاء · أصابع قدمى تتدغدغ ، تنميل بالقدم ، قرص بالأصابع · تقرفصت ، الركبة مدفونة فى الرقبة · حدقة العين مفتوحة على اتساعها · هسيس كعزيف الجن يملأ المكان خبطات الطائرين تتـوالى الليـــل رداء الحجرة · الليل كسائى · لم أقو على النهوض · اعترتنى رجفـــة متواصلة · صرخت فى عنف مهتز · وحين صـــحوت ·· وجدت خفاشين متعلقين فى سيخ حديد متدل من سقف الحجرة فى الركن الأيمن · رميتهما بالوســـادة · هبطا ، لطما وجهى ، واســـود المكان ثانيــة ·

★★★

ـ ما عدت ترفرفين ·

ـ لازلت ·

ـ لا أراه ·

ـ لا تحســـه ·

ـ لا تهتمين ·

ـ أنت صعب ·

ـ أنت غبيـــة ·

ـ ·······

ـ لن أضربك على كل حال ·

ـ لا تقـــوى ·

ـ من يقوى اذن ؟

ـ ٠٠٠٠٠٠٠

ـ هناك تفرحين ٠

ـ وهنـــا ٠

ـ مأتـم حزن ٠

ـ لا لحظــه

ـ لأنك لست هنـا ٠

ـ أيـــن ؟

ـ أنت أدرى ٠

ـ ما عدت تطـاق ٠

ـ وما عدت أحتمل ٠

تنطلقين كالعصفورة ، تغردين ، تحيلين المكان حياة متدفقة ، تتناجيان بخيط الجفن المستمر ، وطريقة القدم على البـلاط ، وأنا أغلي من الداخل ، ليس عندى ما يدفعنى على الحسم ٠ لكن حين ينفد مخزون الجمل من الصبر ينفجر ٠

ـ لا تقتلني ٠

ـ أنت تقتلين نفسك ٠

ـ لم أتغير ٠

ـ ضحكتك المجلجلة من نصيب غيرى ٠

ـ وأنت ٠

ـ الحزن كما قلت ٠

ـ حـــالات ٠

ـ تغلفين نفسك بالصمت ٠٠

ـ الصمت ليلى الدائم ٠

ـ والصمت سكينى البـارد ٠

ـ ٠٠٠٠٠٠٠

ـ أين البسـتان ؟

ـ لم ترعـه ٠

ـ من يرعه اذن ؟

ـ أنت ٠

ـ كيف ؟

ـ حين تفهمنى ٠

ـ أم حـين !!!

ـ لا تقتلنى أرجوك ٠٠

ـ أليس لك جناح ؟

ـ ٠٠٠٠٠٠٠

ـ تستطيعين أن تطيرى ٠

ـ ٠٠٠٠٠٠٠

ـ سبقتك اليه الأخرى ٠

ـ ٠٠٠٠٠٠٠

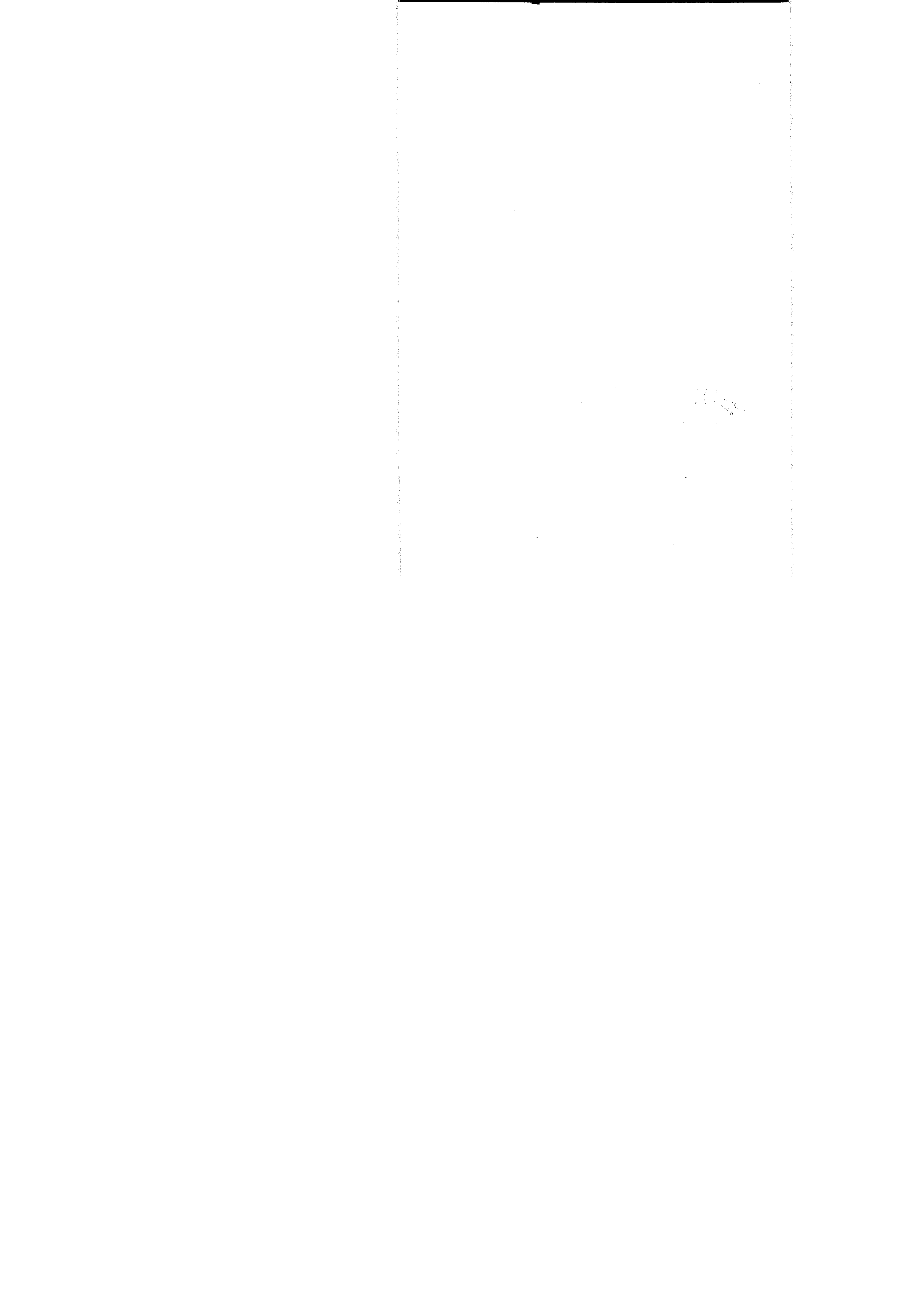
★★★

حين احتوانا المكان ، تدحرجت على الجسـد كرات الزمن الشائخة المترجرجة ، هببت من نومى فزعا ، الأنفاس تتلاحق ، والسخونة صاعدة ، والليل يصنع الكآبة ، والليل قهر ٠ كنا حين نجلس على الشاطىء ، يداعب الريح شعرها ، وتطبق عينيها

على مرآى ، وتتحرك الشفة بتمتمات الحب ، ورغبة التواجد المستمر في بســـتان أخضر ، كنت أحس انني أملك العـــالم ٠٠ والآن لا أستبين الأشياء ٠ ضاعت من عيني ، سرقتها الظلمة ، وتدحرجت نظراتي على محتوى المكان ٠ نقط سوداء شبحية شائخة الزمن ٠ مرسومة على الجدار ٠ أنهض بغل الموتور ، أندفع ، ألطم النقط الشبحية ، أصطدم بالجدار ،أترنح ٠٠ أسقط ، ثم ٠٠ ثم أغيب ٠٠

●

عندما يجف النهر



« والنهر ، كان حين ينساب ·· ترقص الأشجار ، وتعزف الطيور ·· وتبتسم الشقوق فى الأرض وتذوب ·· وتحلو الخصوبة ، ويكثر النساء ·· ويغمس القمر ، فى ضوئه الشجر ·· فيضحك الانسان ، ويهدأ الانسان ·· والآن !! جف النهر وانتهى الأمر » ·

(أ)

برزت من حدقته عين أثقلها الهم ، والتوى عليه قلب كان ينتفض ، وراعه أنه ليس الوحيد الذى أخرجت الأرض منه وقاره فبكى · داهمه جفاف النهر فلعن امرأته واليوم الذى رآها فيه ، من منا يعلم الغيب ، لكنه أحس أنه ليس عذرا فالتصق بالجمع ولملم نفسه ، مع أنهـم كانوا يودون سماعه ، دخل معهم فى حزام الحزن ، وأدركوا باحساس القطيع أن ريحا عاتية تطوح بهم ، مع أن كل شىء قد ضاع وما عاد فى اليد مال ولا فى البـدن طاقة ، ولا فى البلد من يسمح ·

ـ أليس من حل ؟

وكأن عبارته خدش فى وجه قبيح فلزم الصمت ·

★★★

أحسي بالارهاق ، بعقله المكدود ، وقلبه المفعم أسى ، رأى امرأته جنية الليل تنتظر وهو العاجز في زمن العجز ، فحسب نفسه وجلس على حافة النهر ، أخدود طويل يتلوى ، همدت حركته ، وجف عرقه فلفظ أنفاسه ولم يبق الا خطوطا عميقة وسطحية ، متاهة طينية ، زخم الطين الناشف يصدمه فزاد قلبه التواء • لم يدهش حين وقع بصره على فئران تمرح ، تطل الرءوس، وتمتد الرقبة ، ثم سرعان ما تنطلق ـ طبيعة الفئران في كل زمان ومكان ـ فمن يكبح جماحها ، هو موسمها تتكاثر فيه ، ومن أدرانا فقد يمتد تواجدها حتى البيوت ، وقتها من يقوى عليها ؟ ومن يضمن ألا ينتشر الطاعون ، فالبلد سقطت من فلكها الدائر •• والنهر حين يجف تكثر الفئران ••

★★★

من يأخذ عمره كله حتى لا يرى المشهد ، بل من يأخذه لقاء حفنة ماء ، نحن نقدر عليه زمنا ، لكن أيقدر النبت الأخضر ، الأرض الشاحبة تولول ، وعيدان الأذرة تعافر ، تصارع الأرض ـ من يمسك عنا رزقنا ؟ •• لو أن جذورها قوية لتغلغلت وهربت من الأرض العطشى •• لكنها ـ يا عيني ـ طرية كولدى • أنبتت جذورها ، مثلنا ، وكانت الأصل • ها هي الأرض مطروحة على أرجائها ، فتحت بطنها لاهثة ، أبعدت ما بين أرجائها ، لعل دفقة منه تتسرب اليها ، فتنضم عليها في رعشة نماء • مد يده ، خضن العود الجاف الممصوص مع أنه لم يأبه مولده الجائع الباكى ، تحسس وريقاته الصفراء ، المحدبة ، المشرشرة ، الحادة كنبات الحلفاء ـ مشت يده الى التربة وجلة ، أين النعومة ؟ فراشى كنت حين كان يتدلل فراشى وأمسيت مشقوقة بالطول ؟ الشقوق الطولية باتساع الأنهار تنتظر ، ومرحت فيها الهوام ، خشنة أنت وإنتأت تضارسك ، جمدت ، فتحجرت ، وعلاك الكلس وكنت

تذوبين تحت الملمس رقة وعذوبة ، وخصوبة ، واستواء . واشتدت قبضته على عود ممصوص انثنى ساقه ، حتى وصل فتحة الشق ، فارتجف ورفع رأسه الى السماء وبكى ..

★★★

حين يكون المصب جافا والمنبع شرا ، تبدأ الحكاية فى التعقد ، لم يطرأ على الذهن يوما أن النهر الذى يهدر منذ القدم يمكن أن يتوقف فجأة . كما لو كانت الشمس قد سقطت فى حافة ، أما وأن الوضع خرج عن نطاق الظاهرة الطبيعية ، فلا يملك الانسان منا ، الا أن يحتج داخليا ويغتم لأنه — كما نحن — لا يملك غيره .

★★★

لم يخش أن يراه أحد باكيا ، لأن الكل يبكى .. وان كان الشيخ قد أنبه حين رآه طال عمره وسحبت منه الأيام فورة العاطفة .

— تبكى يا رجل .

مسح عينه بكم جلبابه وصمت .

— كلما رأيت رجلا وجدته باكيا .

— وأنت ألا يهمك الأمر يا شيخنا ؟

جذبه بشدة وهو الضئيل النحيف .

— ليس بالبكاء تحلون المشكلة .

سحب نفسه ومضى الى الدار ، عافت نفسه الطعام ، وظل صامتا يتملى ولده الصغير فى حضن أمه وهو يتلوى صارخا ،

فلم ير فيه فارقا وعود الذرة الممصوص فى فتحة الشق ٠٠ رنا الى امرأته وقال فى حدة ٠

ـ أرضعيه يا امرأة وكفاه صراخا ٠

ربتت الأم على كتف الرضيع ، مالت عليه ، وألقمته ثديها ، عافر ، ضغط ، امتص ، عض ، فضربته وعاود البكاء ٠

ـ قلت أرضعيه ٠

ـ هو أمامه ٠

ـ لا تدعيه يبكى ٠٠

عصرت ثديها وصمتت ٠

ـ حاولى ٠

ـ لا جدوى ٠

ـ لماذا ؟

رمقته بعين حزينة عاتبة ، وكأنه لا يعيش أيامه ٠

★★★

والتاع الرجل ، أجاء اليوم الذى تجف فيه الجنية أيضا ؟ ، ابنة النهر ، موجة من موجاته ٠٠ وهل يمكن أن ننسى ؟ فيه يتجرد العمر ، ومن منا لم يتجدد بمائه ، نخوض ونلعب ، يلقانا فاتحا ذراعيه مصفقا ، عنده تبدأ الحكاية وفيه تنتهى ، يانهرنا ٠٠ شهدت مولدى ، فى ليلة قمرية ، غمس القمر فيك ضوءه ، فكنت مبهرا ، وغسلت مياهك الوضيئة قماشى عمرى ،

وأتيت بها لى ، جنية الليل المستورة ، وكشفتها ، أخرجت منهـــا أجمل ما فيها ٠ كان قلبها أبيض ، صافيا مثلك ، قالت لى لحظة اللقاء الأول انها خرجت منك ، واغتسلت بك ، واستوت من مائك ، وتواصل تكوينها حتى نضجت ، فعلتها سمرة خفيفـة جذابة ، والتوى عودها وامتد ، وتواصل امتدادها فاحتوتك ٠٠ أيمكن أن تكون نهايتها ؟ أجفت من أجلك ؟ أم جففت من أجلهـا ، قل لى يا نهر ٠٠ أفيك بدئى ٠٠ وفيك نهايتى ؟ ٠٠

★★★

لم يقو على المكوث فخرج ٠٠ تمتمات الحزن تزاحمه فى سيره وتعرقله ، لو أن فينا من يفهم ، ما حدث ما حدث ٠ قل لى يا نهر ماذا نفعل وهم يسدون عين الشمس، نراك أمامنا تعريت ، وتشقق جلدك ٠٠ أتهون علينا ! ٠٠ أيمكن ٠ ! ود لو صرخ لكنه كتمها دمدمة مهروسة تحت وطأة العجز ٠ أمال وجهه اليهم، فبدوا جميعا كما لو أن عصا سحرية مستهم جميعا ٠٠ العيون مثقلة ، والأيدى مدلاة ، والعصب أو كاد ٠٠ وكأن سهم الله نفـــذ ٠٠

★★★

ـ اشتاقت الأرض لـــه ٠

ـ لماذا يحرمونها منـــه ؟

ـ رؤية الذرة فى الغيطان تقطع القلب ٠

ـ الأعواد ، أولاد ٠

ـ من يحييهم ؟

ـ من يحييهم ؟

ـ من يجود عليه بجرعة ؟

ـ من يجود علينا بجرعة ؟

ـ من يملك مشاعرك سواك ؟

ـ ألا نستطيع فعل شيء ونحن عصبة ؟؟

★★★

وحين نطق ، مالت اليه الرءوس ، وسرعان ما تدلت وغزل الحزن قماشه مطرزا ، ولفه حول الأعناق فانحنت القلوب ٠

★★★

وطال الجفاف كل شيء كأنه طلاء ، وانفجر المخزون من الناس لكنه ولى هباء ٠٠ والنبع في كل شيء جف ٠٠ النهر والجنية ونحن ، أتهمد الحياة وتنعدم ٠ لمحه في عتمة الليل يدب خفيف الوطء ، على كتفه شاله الأبيض ، وخرجه الممتلىء ٠

ـ الى أين يا شـيخ ؟

ـ وطرح الشيخ بعصـاه ٠

ـ أهو أنت ؟

ومضى ، فنهض وسار بجانبه ٠

ـ أعطنى الخرج ٠

ـ ومن يحمله عنى طوال الرحلة ٠٠ ؟

ـ أراحـــل أنت ؟

تنهد الشيخ ، فأنهد عصب الرجل ٠

ـ وهل لنـا خيــار ٠

ـ يهون عليـك عمرك كله ٠

واجهه فلم يقو الرجل على النظر اليه ، فلامست العـين القـــدم ٠

ـ لقد هنا على أنفسنا ٠

ـ ألأن النهر جــف ؟

ـ النهر لا يجف بذاتـه ٠

ـ من يصدق أنك ترحل وتترك الأرض ٠

ـ ومن يصدق يا بنى ، أنك فى أرضك منبت الجزر ٠

سارا وللصمت هسيسه ، وتوقفا وللقاب نبضه وترك الشـــيخ يمضى ٠

(٢)

انكمش الناس ، وراء بوابة ضخمة من العجز ، تطل من ورائها العيون تنغرس أقدامهم فى الطريق ، ينكفئون ، مع أن القمر فى الليل ساطع ٠ تتلاعب أشعته اللبنيـة فوق شـفاه الأطفال ٠ لو أن الزمان يسحب غطاءه ، ويعود الى الوراء ، حين كانت البلد بكرا ، لو أنه يعود ٠

★★★

النهر هو النهر ، والغيطان هى الغيطان ، والانسان قد تغير ، غمضة عين تتوه الأشياء كلها ، وتتدثر فى دثار الرهبـة والقنوط ٠ كنا يوما ما نعانق الشمس فماذا حدث لنا ؟ ٠٠٠

حط شـاله على كتفه وصعد السلم حتى أعلى السطح ·· البيوت مغموسـة فى موجة قمريـة ، لكن القمر بدا فى عينـه مطموسا بكف معتمة · لوى رأسه فى احتجاج وأدار ظهره اليه وجلس ·

★★★

فى البدء اغتسل فى النهر وسبح طويلا ، وسلوكه الفضية ترشه وتغمره · وفى السحر قصدها ، لبس جلبابه وقصدها · كانت الدنيا ترقص له · ترنحت أمامه الأشجار سكرى بريح الفجر ، مد يده فلمس حواف الشـجر ، ولقم حبات الجميز ، وتدحرج الطريق تحت قدميه ، وكانت تنتظره ، جنية النهر · حسها يشتعل رغبة ، أنفاسها حارة صاهدة ، وزخم الماء والجميز وحواف الشجر ، وأوراق الذرة ، غلالة أثيرية تدلف ، تدغدغ الحس وتخدره ، مسحت عنه قطرات النهر ، وتأبت عليها رائحة الجميز والذرة فاستحيت ، وحين احتواهم المكان – نفس المكان – وسط الهشيم ، دبدبت العيدان وتشابكت فى هسيس حبيبى ، حتى القمر نفسه كان يساقط نتفا ضوئية باهرة – من لنا به الآن ؟ يذكر ·· زال يذكر وقتها كيف كان الوهج الساخن يشع من عينيها – وآه حين ينطفىء الوهج – وحين عزفا سويا معزوفة الأبد ·· كان كل شىء قد تحول ، وتناغت الأصوات والألوان ·· يذكر كيف كان الكون ينبعث منه نغم قل أن تواجد مثله · طائر اللقلاق ، نجوى الحمام ، أصوات العصافير ، مداعبات الدجاج · وانحطاط السمان ، وخبطات النهر ، وشوشات النجوم وهمسات المكان ، دبيب الهوام ، دقات الزمان ، وأصوات القمر اللونية ·· وهى ·· جنية نهرى الحلوة تتناغم رعشـات وسط الدفق الصوتى المنسـاب ·

★★★

ـ أنت رجلي الذي يملأ الكون
ـ أنت امرأتي التي ترقص للكون
ـ نهري المنساب .. أنت
ـ وأنت امتداده الخصب ..
ـ ما أحلى أن نذوب على أوتار مشدودة .
ـ وأرخيها على أعصاب مشدودة .

★★★

وماذا يهم بعد ، في زمن جف فيه حلق الانسان ، أن نظل نرقص للكون الموت . ونعزف على أوتار الأحشاء الجافة .

★★★

حين شده صوت الليل وعتمة القمر من وطأة الزمن الأول شعر أن كابوسا يضغط على صدره ، ويعصر النبض منه . لو تدوم الأيام ، لو يركب الانسان متن الشعاع ويغوص في عالم فضي . ومن منا يعلم الغيب ، كان يوما فكرت فيه أن امتطي الشعاع وأرحل ، كان الرزق شحيحا ، والعمر يمتد ، وليس في الكف ما يقي سوءة الأيام ، كان حلما أن أركب الزورق وأقطع النهر الى الشاطىء الآخر لعل بلدا جديدا لم تتلوث بعد .. لكنها شدتني بأمراض عتية .

ـ وتتركني .
ـ ستأتين معي .
ـ وأرضنا بلدنا .
ـ الرزق شحيح ، والعمر يذوب منا ..
ـ ومن يضمن أننا سنجده هناك .

ـ نحـــاول ٠

ـ والنهر واحد !

ـ حتى لا يأتى وقت نندم فيه ٠

ـ وهناك تجد الأرض !

ـ نزرع ٠

ـ ويذهب صـــاحبها بالمحصول فلا يبقى لنا شيء ما بقى الدهر ٠

ـ خير مما نحن فيه ٠

ـ ألا يمكن أن تتغير الدنيـا ٠

ـ ....

ـ لو خيرتنى ، خترت البقاء ٠

ـ ......

ـ لازال النهر يجرى٠٠ وجنيتك ان خرجت منه تموت ٠٠

★★★

الا يدرى كم ظلت عيناه عالقتين بها ، نفضه الهم فـكرة مرآها ٠ وهو من كان لا يرتاح الا لرؤياها ٠٠ شعرت باحساس المراة الخفى ، بداخله الذى يمر لو باستطاعتها أن تحيل العالم جنة وارفة لفعلت لو تقدم على صنع كرسى من الأبنوس المطعم بالعاج كما سمعت فى الحكايات ، ليجلس عليـه أميرا لفعلت ، أما وأننى لا أملك سوى حبى فلى الله ٠ قامت وأحضرت علبة الدخـان ، وصنعت له ســـجارة وحشتها بكمية وفيرة من التبغ ، عل فيها العزاء ، لكنه بجانب عينه لم تنته الرعشة الخفية التى سيطرت عليها فتناثر التبغ ٠

ـ ابقى عليه فمن يدرى ؟

والصمت معتم ، عتمة الكف التى لطخت وجه القمر ·

ـ دخن ، وانس قليلا ، وتذكر الله ·

ـ ما يحدث لا ينسى ·

ـ ما باليد حيلة ·

ـ كانت معنا ·

أحسست أنها لو زادت كلمة لتحول الرجل الى جموحه المعتاد هذه الأيام فلزمت الصمت ·

★★★

من بدرى فقد يصـــبح الصـــباح ويجدنى قد مت هما منه لو أن البركان فار ، وانحطت السماء على الأرض ، ما يفعله لنهر جف ماؤه ، أقام الدنيا على رأسى كأننى المسئولة عن جفـــاف النهر وامتلائه ، من منا لا يبغى الامتلاء ·· أمـوت لو لم أمتلىء به ·· كم جفت الينابيع يوما ، وظللت جنيته الخصبة · والنهر سيفور ، لا بد أنه سيفور ·

ـ ما العمل الآن ؟

ـ لا بد للمشكلة من حل ·

ـ والحل ليس هنا ··

ـ أنتظر الحل من هنا ·

ـ كان الحل هناك لو أطلعتنى ·

ـ قلبى يحدثنى أن هناك فرجا لكربتنا ·

ـ فرج !! جف النهر ، والتوى الزرع ، ودلدل أوراقه وفتحت الأرض أفواهها ·· وجف ·· جف وجف حتى ثديك ·· وتقولين فرج !

ـ كل الناس يعيشون المحنة وليس هناك خيار ٠

ـ ٠٠٠٠٠٠٠٠ !

ـ لا تهني ! فأنت تعلم أنه ليس في يدي شيء ٠

★★★

حين يحاصر لا يملك الا الاستسلام فمتى يهتز فيه النبض ويقوى ، متى يهتز فيك النبض ويقوى ٠٠٠

★★★

حين أحس أنه قسا عليها واشتد ، جنيته التي أتى بها من النهر وسواها ، غاص قلبـه ، وكثيرا ما يغوص هذه الأيـام ٠٠ فما عاد للأيام طعم ، والصغير كعود الذرة يحتاج الى نهر ٠ والبلد معزولة عن العالم لا يدري بها أحد ، ومن يدري بها ؟ سقطت من الفلك الدائر وسقطنا معها ، هزه بكاء الصغير فلان قلبه ولان صوتـه ٠

ـ الشيخ رحـــل ٠

ـ ضاع الصوت ، ولم يخرق القلب ٠

ـ قلت الشيخ رحل ٠

ـ نظرت اليه فهالها الهمود يرين على وجهه ٠

ـ لم يبق من عمره شيء للرحيل ٠

ـ يئس ، وما عاد يقوى على الأمر ٠

ربتت على ولدي فاستسلم للنوم ٠

ـ يجب أن نفعل مثله ٠

احتضنت ولدها وزمته ، وصرخت فيه ٠

ـ تقصد ، نهرب ٠

الصوت النيلى المنساب أصابه الجفاف فانشرخ فهاله الأمـــر ٠

ــ فعلها الشيخ وسيفعلها الكثيرون ٠

ــ لا ترم بولدى الى المجهول ٠

خرقت قلبه ، هزته ونفضته ، رفع رأسه الى السماء تدحرج القمر فى عينه ، وتقاطر ضوؤه دموعا ، حملق فيه بانبهار ، ود لو يزيح الكف التى تلطمه ليعيد له بهاءه فيغزل من ضوئه قماشا مطرزا لولده ولجنيته السمراء ذات العود الملتوى ، ورنا اليها فأحس أنها تناديه وسط العواصف تناديه ، أقرب ما تكون اليه ، وضع يده على شعرها ، واحتواها ، ود لو يغسلها بماء النهر صلب عينه عليها وسرعان ما بكى ، أخذته بين ذراعيها وعينها لا تفارقان القمر ٠

★★★

كنت يوما تمسك الفأس ، وتعكس ضوء الشمس ٠

فلماذا يا رجلى ٠٠

حين تغطى وجه الشمس ٠٠ غيمة سوداء ٠٠

ينسحب منك الفعل ٠٠

وتقعى تنتظر الضياء ٠

●

الطبلة



(١)

عند منحنى الحارة ، وقف ·· عيناه لا تستقران ، ومقلاعه يتلوى فى يده ، يلوح به فى الهواء ، يضرب به الفراغ ، يحاول أن يحشوه بحصاة مدببة ·· أسند جذعه على الجدار وأخرج بلحة حمراء ، ظل يدعكها حتى هرسها ثم نثرها على الأرض · لمح حبل النمل دقيقا ملتويا أسفل الحائط ، ونملتين تحاولان فى عزم واضح الدخول ـ بنصف حبة قمح فى شق مغمور ·· تسحب فى صمت ، وحدق فيهما ، عز عليه أن يرى النملتين تجاهدان فى حمل نصف حبة القمح ·· عطف عليهما ·· وجمع فتات البلحة المهروسة ·· وملأ الشق ·· ارتاعت النملتان ، ثم انفرط حبل النمل ·· وعجز عن الوصول ·· اغتم فى نفسه حين رأى التشتت لكنه ·· حين أقام ظهره واستقام ·· اعتقد أنه سيعثر على شق آخر لا محالة · اصطدم فى بحثه بجسد ضخم ، استدار فواجهه وجه الشيخ · ابتسم لكن الشيخ تجهم · حاول أن ينطق لكن قبضة الشيخ حين جذبته أماتت فيه المحاولة · نفضه فى قوة وقال ··

ـ تعلم الأدب ·· واحفظ لسانك ·

ساحت معالم وجهه ، وابيضت عيناه ، وتهدل شدقه فازاح لبدته ، وأصابه همود مفاجىء ·· وتمتم ·

ـ ماذا تقصـــد ؟

عرك أذنه وأطبق على فمه حتى لا يصيح ٠

ـ لسانك ينالنى ، وتذكرنى بالسوء ٠

ـ لكننى أهبل ٠٠

كبس لبدته فوق رأســه وطوق عنقه بمقلاعه ، ووضع فى سيالته حفنة حمص ٠

ـ لأنك أهبل فلا تتحدث عنى ٠٠

هرس حبات الحمص وطيرها فى الهواء ٠٠ واستحلبها حبة ٠٠ حبة ٠٠ وهو يحدق فى الشيخ ٠٠ وطيف ابتسامة لاحت فاعوج شدقه ، وسال لعابه ٠٠ وقال فى حدة ٠٠

ـ لم أتحدث عنك ٠٠ تحدثت عن رتيبة امرأة شيخ البلد ٠

نهره الشيخ وسحبه من يده ، طلب منه أن يتركه ليبحث عن شق جديد للنمل ٠

ـ حرام أن يضيع النمل ولا يهتدى الى بيته وأتحمل أنا وزره ٠٠

وأنت عارف بالله ٠٠ يا شــيخ ٠٠ النمل سيموت ٠٠ حــرام ٠٠

واشتد صياحه ، ولوح بالمقلاع ٠٠ ووقف نن العين وتصلب الرمش ٠٠ فخاف الشيخ الفضيحة ٠٠ ومضى ٠

★★★

« فى القوالب فى الطين ·· وقف العارف بالله ·· (تقولون عن الشيخ أنه العاف بالله ـ) يتذاكر ، يتمايل ·· تتساقط من شدقه رغوة مزبدة ، يتصارع على لحسها الأتباع ، جريت أرمى رغوتى ـ فأنا الآخر لى رغوة تسقط من شدقى ـ عل أحدا يمتصها ، وحرصت أن يعلو صوتى ، وأنغم ذكرى ، بل حرصت على اخفاء المقلاع حتى يسهل الأمر ·· لكن الاتباع أحاطونى ·· ضربونى فسقطت ، وحين قبعت تحت قدميه ، شممت رائحة عطر ، كان عطر رتيبة ·· كانت تدعك جسمها به حين تدعونى فيعلو على رائحة السباخ فى جسمى ·· « وحين ذهبت اليها حزينا أخبرها أن العارف بالله يتعطر بعطرها ·· صرخت فى وجهى وناحت بالصوت ·· طلبت من الناس أن يغيثوها ·· فقد تجرأ الأهبل ·· ومد يده ·· » وحين دار العارف دورته ·· درت ـ تحت قدميه ـ دورتى ، فرد كفه فسقطت قطع النقود ، فردت كفى ، كانت كفه مخروقة ، وكانت كفى صلبة ·· طلبت عواطف من العارف اللبوس ، ففزعت صارخا ·· يا شيخ ·· النمل سيموت حرام · وفردت مقلاعى وطوحته ·· طارت عمامة الشيخ العارف بالله فبكت النساء · ما ذنبى أنا · الرجال يخاصموننى ، ما عادوا يذكروننى باسمى ·· أهبل ·· أهبل ·· كيف أكون السبب فى بكاء الحريم ! يخاصمنى الرجال من أجل الحريم ·· الحريم تبكى لأن اللبوس المغموس برغوة العارف بالله جف ، ونضب ، وما عدن يذهبن الى القبو المبنى بالطين ، ليودعن قطع النقود ، لهن الحق ·· صحيح لهن الحق ·· واذا لم يكن على رغوة العارف بالله البكاء فلمن يكون ؟! لكن ما شأن الرجال ·· صحيح ما شأن الرجال ؟ » ·

(٢)

دوت الصفارة ، يذكرها من بين جميع أنواع الصفارات · فهو لا ينسى رنين صـفارة « الغفير العجر » · طالت رقبته وظلت

عيناه على اتساعها ، خدش الصوت السمع ، زحف الرجال والنساء والصبية ، هلع ينضح من العيون وغبار يتطاير فى الجو ، خبطات الأرجل والأقدام هرولة صاخبة ، لمح امرأة تولول وهى ترمى طرحتها فى الهواء ، يركض البعض تجاه الحارة الأخرى و « الغفير العجر » يسرع نحوه ورنين صفارته لا ينقطع وعصاه الخيزران تعلو بينما تقبض يده اليسرى على ذيل جلبابه فتبدو تكة سرواله تدور وتلتف حول ساقيه : قطع عليه طريقه ملوحا بمقلاعه ٠

ـ ماذا جرى ؟

نحاه بقوة ، لكنه خطف صفارته بسرعة وظل يدور حول نفسه وحول الغفير ٠٠ يصفر ويصفر ٠٠ ويصفر ٠٠

ـ ليس وقته يا أهبل ٠

زغده بشدة فصرخ بحدة ، كما لو كانت صرخة قد خرجت لتوها من مستنقع الألم ٠

ـ تزغدنى يا غفير يا عجر ٠

لم يمهله ، صفعه ، كور بصـــقة ورماها فى وجهه ومضى يهرول ٠

ـ يا أهبـــل ٠

حين مسح البصقة أراد أن يرمش فاستعصى عليه الجفنان وسرعان ما طوح بمقلاعه فأصابت الحصاة مؤخرته ٠٠ وقف يهرش وهو يكز بأسنانه ، وهو ٠٠ ينفجر من الضحك ، يخلع لبدته ، يقذفها فى الهواء ٠٠ يخبطها بالأرض ، يذبذب برجله كمهر شقى ـ يفتح شدقيه ، يتلوى لسان على الجانبين ، يمسح رغوة مكومة حول

الأشداق ، لحس حافة شفته السفلى ثم ضحك ضحكة متواصلة ، مرتجفة ، ومط صوته فى تهكم ٠

ـ يا غفير يا عجر ٠٠

وقف يبتسم للناس ، يتلفت يمنة ويسرة ٠٠ ينظر تارة الى الرجال وأخرى الى الحريم ٠٠ يمد يده ليوقف صبية أو صبيا ، يود لم أن أحدا منهم رآه وهو يرشق الغفير بالمقلاع ٠٠ لكنهم يولون عنه فى اهمال (فليس وقته يا أهبل) ٠٠ كبس عليهم ، نفضوه من أمامهم ، ولما أحس بهزيمته انحنى الى الشارع الخلفى ٠

« أنا المعشوق والمطرود ، أنا العقل والأهبل ٠ فى المقابر يحلو اللقاء ٠٠ رحت وراءها ، كانت القلب الأخضر الذى يحوطنى دفئا ٠٠ أحس لزوجته وصهره ، أحس نبضه ٠٠ تأخذ يدى بين كفيها فأضيع فى وهج العين ٠٠ بيضاء مدعوكة كالمهرة ٠٠ سرت وراءها يناديني صوتها ، تتحرك فوق الموج والصوت حزين والآهة حرى ، علقتنى على مشجبها فعبدتها ٠٠ آوتنى ، أطمعتنى ، سحبت منى هوسى وأرستنى على شطها ، تظللنى جدائلها ٠٠ لم تكن مثلهن ٠٠ كن جميعا فيها ٠٠ فتميزت ٠٠ وحين تركتنا هوى فينا الهوى وضل القلب ٠٠ آتى وراءك ٠٠ مهروس القلب ، مفقوء العين ٠٠ فأنت بدئى ٠٠ وفيك نهايتى ٠٠ فتحوه ٠٠ وأودعوك ٠٠ ملفوفة فى قماش أخضر مطرز ٠٠ بلون عينيك ٠٠ من يسمعنى الآن ؟ من يحدب على ؟ من ؟ ٠٠ أولول كالحريم ٠٠ وأطوف حولك ٠٠ والقبر غارق فى صمته الطويل ٠٠ وأنا ألف حولك ٠٠ والقبر يسعد بك ٠٠ وأنا ألف حولك ٠٠ والناس ينسربون ٠٠ وأنا ألف حولك ٠٠ لم يبق الا صوت الصمت ٠٠ والحلفاء تتماوج فوقك تحتفى بك ٠٠ وصوتك يناديني ٠٠ وأنا ألف حولك ٠٠ لكنى لم تطاوعنى نفسى ٠٠ فجثوت أمام المدخل ٠٠ لا تجزعى فسأظل

أجثو لك ·· ينادينى ·· وأنا أجثو لك ·· والنداء رهيب ، وقلبى يجثو لك · ناديتنى باسمى ·· النداء همس وألم ·· تتألمين ·· وأسمع اسمى ·· هـ ·· هـ ·· لا ·· ل ·· هلال ·· يأخذنى الصوت فأفزع ·· من يقدر أن يأخذنى منك ·· أو يأخذك منى ·· جثوت وجثوت وجثـوت ·· وفرشـــت أصـــابعى ·· وحفرت وحفرت ·· أكنت أريد أن أدخل اليك أم كنت أبغى خروجك !! وغاص ذراعى كله ·· و ·· وانحط على رأسى دوى هائـــل ·· اقتادونى ·· من أين جاءوا ·· ورائى فى الحياة ·· وورائى فى الموت ·· من أين جاءوا ·· لابد أن تخبرينى ·· اقتادونى ·· كتفونى وأخذوا منى اسمى ·· أيمكن أن أفعلها ؟ أيمكن أن أطولك فى الموت وأنت العفيفة فى الدنيا !! علقوها فى رقبتى وسحبوا منى اسمى ·· » ·

(٣)

الزحام شديد ، والأصوات تختلط وتتعالى ، صراخ النســاء عال كنبابيت الرجال وفى الوسط والمقدمة ، الجرادل والبلاليص ، تهتز فوق الرءوس وتنتفض فى الأيدى · والغفير ، ينفخ ·· يصرخ بصفارته ، يلوح بعصاه · واستقام ذيل جلبابه ·· أغاظه مرآه ، فلف وسطه بمقلاعه ، وكبس لبدته وعوج فمه ، حين أراد أن يسأل رأى عواميد الدخان ، وملاهيب النار مزمجرة غاضبة ، دفع بذراعه الجمع ، التصق فى اقتحامه بمؤخرة امرأة ، حاول أن يفلت فضغطه الجمع ، خبط الأرض برجله ولوى عنقه « زوجة شيخ البلد ، ما لها والنار » ، مط رقبته وأدار عينه عله يرى العارف بالله ، نظر اليها فانكسرت عينها ، ومدت يدها تسحبه · مال عليها ، همس فى ســخرية ·

ـ ليس وقته يا رتيبة ·

ـ الناس كلهم هنا ··

نظر اليها فى غل ·· صرخ صرخة مدوية ، لسعها بمقلاعه وغاص فى الجمع · حاول أن يسخر ، أن يضحك ، أن يرمى من القلب الهلع ·· لكن الفم ينطبق والعبسة تزم الوجه ويرتفع صوت خـــانق ·

ـ ليس وقته يا أهبل ·

« ستطلبوننى حين تحتاجون الى ، ستظلون تهملوننى ، لكنكم تحقدون على فى داخلكم ·· أنا الكاشف والمكشوف ، أنا الداخل والخارج ، العـارف والجـــاهل ·· الأهبل والعاقل ·· أنا ·· أنـا ·· » ·

واشتد قبضته ، لكن عنق الرجل كاد ينقصف ، خلصته يد قوية فبانت العروق النافرة ، وجحوظ العين ·· طاطأ رأسه ، واعتذر أن الناس فى زحامهم لا يدرون ما يفعلون ·· تتحرك حواسهم دون أن يشعروا ··

(٤)

لم يدر كيف استطاعت هذه اليد الصغيرة الناحلة أن تقبض على يده وتحكم الضغط ، نظر اليها فضحكت « وهاهات » ، كان صوتها له طعم حبة التوت وفى عينها وهج النجمة التى يسهر لها الليل طوله ، دفعتها الأرجل فارتعب الوجه ، قبلها وحملها على كتفه ، اعطاها المقلاع تلسع به الرءوس المحتشدة ·

ـ أين أنت !

خاض بها الجمع وهى تخبط صدره برجليها ..

– انتظرتك فى الغيط ولم تأت .

كان منظره يوجب الاشفاق ، حطت عليه بلادة لم يعرفها فحك بأصبعه أنفها ..

– كنت انتظر مساعدتك فى « حش » البرسيم . تاهت عيناه وعصلج لسانه ولم يقو على النطق .

– أين كنت ؟!

قالها فى دفعة واحدة كأنه يزيل عبئا ثقيلا .

– كنت أزور المرحومة .

– وكانت معك الطبلة .

– تركتها منذ ماتت .. وأنت تعلمين ..

– سأنتظرك غدا .. وتكون معك الطبلة ..

كورها ووضعها على رأسه ، تنططت كما النحلة ، حركت ذراعيها كما الفراشة ود لو اتسع فمه ليبلعها ، لتستقر فى الأحشاء .. عند موطن القلب نبت المحبوبة ، .. دار وظل يدور ، وهو غافل عن الناس ، فمن يدرى قد تحدث المعجزة ويبلعها ، لحظتهـــا ستنمو فيه من جديد ، ويحدث التكوين .. دار ، ظل يدور ، طار بها ، واستمر يطير .

– سأطفىء بك النار .

صرخت الطفلة ، وأجشـــهت بالبكاء ، نتش رجل لاهث الانفاس الطفلة منه . خبطة على رأسه ، صاح فيه بعنف .

– ليس وقته يا أهبل .

حين نظر اليها وهى تبعد عنه غاص قلبه والتوى عليه ·

★★★

« طفلتى التى لم تولد ، أخذت منى القلب ، ظلت تسرى فى الداخل ولم تخرج · رأيتها فى وجوه الصغار ، حتى اذا كبروا عادت ثانية لتأخذ منى القلب ·· لكنها ماتت ، وظلت هى فى القلب ، لن تخرج ·· أحييها فى القبر ، لكنها لن تخرج ·· وأنت امتدادها ·· أكان يجب أن تفزعى ·· كنت سأطفىء بك النار ·· لم تعلمى أن ست الكل توسدتنى ·· كان قلبها وسادة دفء ، وعينها مخبأ يحلو لى أن اختفى فيه وأستتر برموش العين ·· وأنت جاء شعرك كجدائل الصفصافة ·· لكن أنفك مبطط كأنف أبيك ·· مع أنى حين لمسته كان مدببا لأنه كان أنفها ·· كنت سأطفىء بك النار ·· أترين أننى حين قبضت على شعرك فكرت أن أطفىء بك النار !! ·· كانت تلعب بشعرى فأفرد مقلاعى ، أعطيته لك ·· وكان لها الراية كان سيفا حاصرت به « أبو زيد الهلالى » ضربت ذراعه ، وشققت درعه ثم جززت رأســـه ·· كنت ألعب تحت قدميها ، وأفرك أصابعها ·· لكنها حين رأت الدم ينزف فرت منى ، وطوت الراية ·· أكان يجب أن تطوى فى الطفـــل ، حين طوحت بمقلاعى ورميت الحصوة » ·

« أكان يجب أن تمضى وتلوى على قلبى ·· » ·

فرد مقلاعه وحشاه بالحصا ، جرى وارتكز على نتوء مصطبة مهدمة ، طوح به فى الهواء ، صادت عيناه الرجال يتدافعون صوب النار ، صادت عيناه الحريم يفرغن الماء ، صادت عيناه الصـــغار ينكشون هنا وهناك ، صادت عيناه « لسان » النار ، وقفت عيناه ، وتصلب الرمش ، وتنطط نفخ صدره ، وعرى ذراعه ، كان أبو زيد

يشهر سيفه ، ويمتطى جواده ويندفع الى الأمام ، يتحرك فى كل مكان ، يدور فى الهواء وينزل كالصاعقة ، حدق فيه ثم أرخى ٠٠ ـ بتأفف ـ كم الجلباب ٠ رمى بجذعه الى الخلف ، أمال لبدته الى الخلف ولم يكبسها ، عوج فمه ، أفسح ساقيه ، ثنى احدى الساقين وثبت الأخرى ، ورمى النيران بالمقلاع ٠ وكلما حطت الحصوة على سلاهيب النيران كلما ضج بالضحك ، لكن عبسة مستمرة كانت معقودة على جبهته ، أحس أن مقلاعه فلت عياره ، وأن الحصا يطيش ٠٠ وأن النيران لازالت تزغرد ٠٠ وأن الناس بدأوا يتسلقون الحيطان ، رموا الحب والقش والحريم يرمين المياه ، تطاير الهشيم ذرات نيران مبعثرة ، أحس أن مقلاعه لا يطاوعه وأن رجلا يزغده فى صدره ويصيح فيه ٠

ـ يا أهبل النيران بجانب دارك ٠

فاق الى نفسه ، رمى بنظرة قلقة رشح منها الهلع ، النيران واندفع ٠

« الحريقة بجانب دارى ٠ ! الحطب واحد ، والتعريشة موصولة ٠٠ سأطفىء النار ، سأدور كالنحلة فحركتى ليست لكم ، حركتى للمخبوء فى التعريشة ، كنت حين أنظر اليها ليلة التمام مستترين بتعريشة الحطب وشعرها الناعم منتشر مجدول بالعيدان ، أرى الخصوبة فيها منكوشة ، ودفقها باهرا ، كانت العيدان ترتعش ، وبقى مقلاعى مستسلما كابيا ، كانت تحك أنفى ـ ولذلك أحك أنفك أنت يا طفلتى ٠٠ ـ وتقول انى أسع الناس جميعا ٠٠ لا تسىء الظن بى يا هلال ٠٠ القمر يجذبنى اليك ٠٠ وأنت تجذبنى الى النهر ، فرخان صغيران كانا يعومان ، وينفضان عن جسديهما بخبط الجناح قطرات مياه عالقة ٠٠ لكنك وليت ٠٠ وليت ما خلفت ، أكان يجب ألا تلدى لى طفلتى !! » ٠

(٥)

بقفزة واحدة كان فوق الحائط ، بقفزة أخرى كان وسط الحطب المتبقى . جذبه الرجال لكنه عاد ـ فى عناد ـ يفتش ، وكلما ينكش فيه ، كلما ازدادت النيران اشتعالا ، خاف الرجال ، لكنه لا يبالى ، دفس رأسه فى عامود الدخان وأصر على النكش ، ولما لم يجد الرجال جدوى من زحزحته ، رموا الحطب فحط عليه ، كادوا يرمونه معه لولا صرخة فرح شلت حركتهم ، وكلمة زاعقة من بين شفتيه تدوى « لقيتها ، لقيتها » .. كاد يستسلم للحظة الفرح ، لكن الأيدى امتدت وخطفته من عامود النار قبل أن يشويه ، فر بسرعة ورفض ، خبط بيده على الطبلة ، قبلها وخبط عليها ، طوح بها ، وخبط عليها ، احتضنها وهو يخبط عليها ، والرجال يحاصرون النار ، وهو أمامهم يتنطط كالنحلة ، ودقات الطبلة السريعة ايقاع الحماس ، وكانوا كلما رأوه يدق على الطبلة ، ويشير بالمقلاع ، الى الدخان والنار والحطب والهشيم ، يتحركون فى اندفاعة قوية ، مسوقين الى الحركة بلا وعى ، كأن المقلاع عصا سحرية ، وكأن الدق ايقاع نغم ، والنبابيت تضرب النيران ، تخمدها ، والأيادى تتناول الجرادل ، والمياه تحاصر النار تطفئها ، وحين رأى النيران تخبو ، وتتلاشى ، ترك الطبلة ووضع الحصوة فى المقلاع واعتلى قمة الجدار ، مال بجذعه وعرى ذراعه ، كان أبو زيد الهلالى فاغرا فاه ، رمى بمقلاعه فى الهواء ـ صرخ ، فارتخت عضلاته واعوج فكه وسال لعابه ، لكنه نسى أن يكبس لبدته ، كانت قد سقطت .. احتضن طبلته ، نقر على جلدها . صاح بقوة « أين أنت » حاول أن يراها ، أن يبحث عنها ، أن يجد القبضة الصغيرة التى جذبته بقوة وسط الجمع .. لكنه عجز ، اندفع وسط الناس ، خاض بحرهم ومضى ، كان يتجه صوب الغيط ، لم يتلفت وراءه ، كان مأسورا بنداء قوى يجذبه ، والطبلة فى حضنه ، نائمة مستسلمة ، فلعله يجدها عند الغيط ، ولعله فى الصباح ، يستطيع أن يساعدها فى حش البرسيم ، ويلعب معها على دقات الطبلة .

شعاع من الماس

الحارة غاصة بالجموع ، النساء والرجال والأطفال ، يتزاحمون ·· ويصرخون · الكل يهرول ، والغبار يتطاير على الرءوس غيمة داكنة ·· الصدور عارية ، اخاديد الصدور النافرة الطرية تتشابك وشعيرات الرجال النابتة فى الوسط ، والصغار يزاحمون ويلتصقون ، ويقبضون بأصابع صغيرة ذيول الثياب فى تحد مترع بالخوف والدهشة · ثمة حدأة فى الأعالى ركبها توتر مفاجىء فدارت دورتين وحلقت فوق الرءوس · بدت الغيمة الداكنة فى العيون الحزينة الكابية ، خفاشا كبير يفرش جناحين هلامين ويحتوى الفراغ وينحدر فى تسلل منسرب الى الأعماق ·· فيطمس المكان والوجوه والنفوس بظل معتم كالليل ·· وثمة فص من الماس يرشح من عرق الجموع ويأخذ من لهاث الأنفاس بعض حرارة راجفة ، ويسحب من عيون مطموسة بعض نور مبهر يجاهد به ان يخرج الى حزمة الضوء ·

وأنا أترصده من بعيد أرقب ابهار ضوئه المرتقب ·

★★★

– فى الأمر شىء !

– عينى عليه ··

ـ أولاده صغار !

ـ قالوا له من زمان ٠٠ ابعد عن عين الشمس ٠

ـ كأن الشمس لها عين !

ـ عين كالجب الغويط ٠

ـ ومع ذلك تقدم وقالها ٠٠

ـ أكان يود أن يعيد نظام الكون ؟

ـ عيني عليـه ٠٠

ـ لا أحد يطول « أبو زيد » ٠

ـ هو شقى ٠٠ وقادر ٠

ـ ربنـا كبير ٠

ـ ولكن ظلمه طال !

ـ أكان يريد أن ينهى ظلمه ٠٠ ؟

ـ كان ٠٠ ولكنه قصف عمره ٠

ـ خســارة ٠٠

★★★

وصـــوبت نظرى اليـهم ٠ وكان سمعى يروح ويجىء مع الأصوات الحادة والحزينـــة ، وحين بدا لى أن الحديث تحول الى كلام ٠٠ ثم الى فتات ملفوظ ٠٠ فار دمى وانتفض عرق الغضب على جبهتى ، وفى لحظة واحـدة ، لحظة أن ســـحبت ســمعى . وأدرت عينى بعيدا عنهم ٠٠ عن الوجوه المصوصة الحزينة ٠٠ لحظة أن عاودنى خيال قوى جموح ٠٠ واجهنى شـيطان قوى مكين ، لاح لى أنه يحمل ألف وجـه ووجه ٠٠ كان وجهه الذى يقبض عليه خيالى ذا ملامح تستفز من يراها ٠٠ ملامح مرســـوم

بصنعة خالية من الدفء ٠ برودة تسري فوق الوجه ، ويطل من العين نظرة متشفية ، قاســـية ، تنبيء عن تحـد وغلظة ٠ وكان هو ٠٠ كان « أبو زيد » ٠ لم يختلف الوجه الذى استدعاه خيالى عن الوجه الحقيقى ٠ فقط كان وحيـدا ٠٠ لا تحوطه الأتبـاع ولا يتقدمه المنافقون ٠٠ وجه مسطح فقدت خيوطه معنى التجبر وان أبقت على الغل ٠ وظل الوجه فى عينى قائما لا يزال ، حددته ندبة فوق الجبهة ، وشـامة على الخد ، وانحدار تحت الذقن ، واكتناز فى الرقبة ٠٠ وجه داوم على التسلل حتى وصـــل الى قدر كبير من الثراء ٠٠ وقصر منيف على ترعة البلد الغربية ، لم ير الناس فى هذا القصر الا وجوها محمرة ، وثيابا أنيقة ، وعطرا يمشى حيثما ذهبوا ٠٠ قال الناس عنهم وجهاء ٠٠ علية ٠٠ أصحاب نفوذ ٠٠ وسلطان ٠٠ وكان الناس يفرحون أن يأتى اليهم من يرون صورهم فى الصحف ويشـاهدونهم فى التـلفزيون ٠٠٠ ويتحملون ، ويغمضون عيونهم ٠٠ على الزمان يصلح المعوج ٠٠ وظلوا صامتين يكبتون فى صدورهم آهة تبغى انفجارا ٠٠ حتى بعد أن أصبح عضوهم المنتدب ٠٠ وأمينهم ٠٠ ثم عصر قلبهم حزن ثقيل أن يصبح أبو زيد المتحدث عن هموم الفلاحين ، أكثر قوة وأثقل ضغطا وأشد تسللا ٠٠ فلم يعد فى الجعبـة صبر ٠٠ ورأيته فى لحظة الحياة الموت ـ فحياته موت ـ رأيت عبد الغفار ٠٠ يتسلل منه فى نغمشة خفيفة فى البـدء ٠٠ آهه ، مخزونة مهروسة مطمورة تحت ركام الصبر والتحمل ٠٠ نفضت عنها وطء الضغط ، فانفجر لها ينبوع ضيق ، فاندفعت منه شلالا كاسحا وهادرا ٠٠ وبات على الرجـــل أن يحمى نفسه من بطش الأمين ٠٠ ولكننى رغم هول الانفعال والغضب ، رأيته ـ أيضا ـ يتسلل فى تؤدة ٠٠ شعاعا خافتا ولكنه قوى ٠٠ خرج من حزمة الآهة ٠٠ له شكل الماس ٠٠ ولكنه لم يعد ٠

★★★

ـ لو بقى عبد الغفار ·

ـ فيه ألف عبد الغفار ··

وضحك الشعاع وتألق ·· ولكنه كان حذرا فلم يبن عن نفســه ·

★★★

قطعت الطريق مهرولا · وضغطنى الزحــام · وفى حارتنا لا ترى سوى الزحام · كأنما بالزحام يحس الناس ببشريتهم · لكزتنى أكواع صبية كمهاميز البغال، تعافر ان تجد فراغا يأخذها اليه فى رقدته الأخيرة ·· فهم لا ينسون حين حكت لهم أمهاتهم كيف قفز عبد الغفار قفزته العالية ·· فبهت الذى كفر وأرخى بندقيته ·· لحظتها كما تقول الأمهات ـ اندهش أبو زيد وقال فى تأنيب معاتب ·· انها للصيد ·· أدرت رأسى ، مددت رقبتى شببت على أطراف أصابعى كى أراه ·· أراه ممددا ، غارقا فى دمه ·· أكحل عينى بمرآه الأخير ، فمن يضــمن لحارتنا أن تجود بواحد مثله عما قريب ·· !! صفعتنى « طرح » سوداء ترتفع فى الهواء ، وتحركها أيد عجفاء لنسوة ممصوصات ·· بدت لى كأعلام الحزن واشارات الغرقى ·· وكلما شال الهواء « الطرح » ··· هب صرير أصــوات تندب فى تآكل مغموس فى نبرة حزن حارقة ·· وظل الندب موصولا وموقعا ·· واستدارت النساء وتحلقن ، انتكشت الشعور الفاحمة اللون ، وبدت كسبائط الصفصاف ·· وانفرجت السيقان ، ومالت الجذوع الى الأمام ، وتلاقت الأكف فى ضربات ذات أثر قابض ·· وانه انقباض نفس تسيل على أنامل الأصابع فى حركة اهتزاز متواصل ··

.... ورصدته فى هذه المرة ممزوجا فى حبـــات العرق المعقودة .... على الجبهات ... مشـــغولا باختراق الجبهة الى الداخـــل .

★★★

– مات عبد الغفار .

– لم يمت عبد الغفار .

– ولكن الدماء تفرش الأرض .

– قل تغسل الأرض وتكنس القذارة .

– قتلوه فى وضح النهار .

– ببندقية مســـتوردة .

– هى الحقيقة ... فارفع صوتك .

– أكان يريد أن يبحلق فى عين الشمس ؟

– ومن يســـتطيع ؟

– عبد الغفـــار .

– ولكنه مـات .

– قلت لك لم يمت .. فلماذا أنت لا تفهم !؟

.... وضحك .. رأيته ضاحكا ، لكن ضحكته مغموســة فى دائرة .

.... متحلقة حول الجسد الثاوى .. فعن لى أن أســـأل .. كيف ؟

.... يضحك فى موقف البكاء .. لكنه أطلق شعاعه فغطى على عينى .

★★★

وسقط عبد الغفار قتيلا لمجرد القول ·· لم يصل الأمر به الى الفعل ·· لم يمهلوه ·· كانت الآهة الحزينة الممطوطة مدخله الى القول ·· وكان القول طريقه الى الموت ·· وبالموت وأدوا الفعل الذى كان يمكن أن يصاحبه ·· وكانت كلمته البسيطة حاسمة وحادة ·· فحملت هذه البساطة تهديدا مباشرا ·· فاختصروا الحاجز الوهمى واغتالوا البساطة ·· « ولكنكم ستسقطون » ·· لم تكن هى وحدها التى أثارت الهزة وأشاعت الرجفة ، ودخلت الى الداخل فأبانت عالما مظلما وكئيبا ·· ولكن النظرة الحزينة الغاضبة المتعالية التى رفت خفيفة منطلقة قبل أن ينطبق الجفن هى التى قتلته ·· قال كل شىء ، فاحتقر من أمامه واحتقر زمنهم ، فبان الهول طاغيا على وجه « أبو زيد » · وقبل أن يعود الى أهله ليحكى لهم ·· ليقول ·· ويتكلم عن صنم مصنوع ·· صنعته أيادى الظلمة ·· وخوف الناس ·· ترصدوه · فلم تصل الرسالة ·· ولكن الدماء أوصلتها ·

وشققت طريقى ، ووجدته ·· كان الفم مطبقـــا ، والعينين مسبلتين ، وبهاء خافت يرشح من جبهته · ولكن شاربه المقصوص كان قد التوى وانحط ملتصقا بشفته العليا ·· وظل طرف شاله الأبيض مرميا على صدره فى ارتخاء ·· طالته الدماء التى غطت صدره كله فبدا كالعرض المغتصب يطالب أصحابه أن يذكروه ·· وحين كان الناس يخفضـــون رءوسهم كأنما يتقون عصيا يرونه ، كانت عيونهم تتلصص ــ غضبا ــ فى اتجاه الشارب وطرف الشال ·· لم تفتنى الحركة ولم أغفل تلك العبسة التى ارتسمت على الجباه ، ولا تلك الكزة التى تخرج مجروشة من بين الأسنان ·· وراجعنى طيف ذكرى صنعت للقرية يوما من أيامها ، ولكنه كان يوما عبوسا ··

« رآها فارتجفت وتكومت على نفســـها ·· كانت متهدمة تتآكل نفسها وتتهرأ ، دست رأسها بين فخذيها وأنت ، وسافر

الأنين الى قلبه فأوجعه ، ربت على رأسها ، وكتفها ٠٠ نظر فى عينيها فانهار فى داخله بناء بأكمله ، ولكنه تماسك ، أدرك أن هولا حدث ، وأن البنت ٠٠ ولم تطاوعه نفسه ٠٠ فقعد أمامها ٠٠ ومد يده ومسح دمعاتها ٠٠ ســوى هندامها ٠٠ وابتسم ، ولكن البسمة كانت غصة ، فاحتقن الوجه وازداد البكاء ٠٠ حاول أن ينهضها ٠٠ فعجزت ٠٠ رمقته من خلف الجفن فاحترق قلبه ٠٠ لحظتها ٠٠ لحظة أن أدرك ، فاحترق داخله كله ، صمم أن يعيد لها ما ضاع منها ٠٠

ـ كيف حــدث ؟

ولو طلبت منه عمره كله اتقاء نظرتها ما بخل ، كانت الذلة ترشح من العين المنكسرة ، وبياض العين الخامد يدعوه أن يرفق ٠٠ وأن يستر ٠٠

ـ كيف حــدث ؟

وأرتعش الجسد ، وتقلصت الأصابع ٠٠ وخرجت الآهة ٠٠ مهروسة تنزف ٠٠ وأحاطها بذراعيه ٠٠ ادفأها ٠٠

ـ أتستر على ٠٠ أتحمينى ؟

ـ بعمــرى ٠

وتحسس شــاربه ٠٠

ـ من هــو ؟

ـ ابن « أبو زيد » ٠

« وتحسس شاربه ٠٠ ومن يومها ٠٠ وهو يهتم به ، أطاله وسواه وشذبه ٠٠ فحامل هذا الشارب لا ينسى الاهانة ٠٠ ودخل

بها فى صمت ، ولكن دماء زفافها لم تكن دماءها ‥ كانت دماء حمامة مذبوحة ‥ وظل يحلم أن يأتى الوقت ليمحو الاهانة ، فلم تكن امرأته ـ وحدها هى التى نالها أبو زيد أو ابنه ‥ ولكن نساء القرية كلها ‥ كن امرأته » ٠

ووجدتها ، تنظر اليه ، ثم ترتمى فوق صدره ، ثم تسترخى عليه كله ٠

★★★

ولكنه قتل قبل أن يمحوها ‥ أدرك بفطرته انه آن للطاغوت أن يمضى ‥ وانه ليس وحده ‥ وانما فكل قريته باتت تحلم به ‥ فأسرع بالقول ‥ ولكنهم صادروا الفعل فقتلوه ٠

★★★

وراعنى صوت رفيع ‥ ينطلق فى حس مدهوش ‥ كان طفلا يحمل وجها بريئا وغافلا ‥ وكانت ملامحه الطرية فى طريقها الى التصلب ، فلقد تسلل التوتر والقلق ، ثم جاءه الخوف مما يرى ‥ عيناه واسعتان تتنقلان وتشربان ما ترى ‥ ولم ترتو ‥ لاصق أمه ‥ وناداها وما ردت عليه ، رأى عينيها تسحان بالدمع ، وافراز أنفها يضايقها ، مالت اليه فى صمت ، مسكت بذيل جلبابه وأفرغت أنفها ‥ سحب الطفل جلبابه فى قوة وعينه تعتب عليها ‥ كومت طرحتها على رأسها وأخذها نشيج حاد ، فاهتز ٠ فلكزها بكوعه ، فقرصته فبكى ، أخذته بين ساقيها ، وأرخت على كتفيه يدين مرتعشتين ‥ أزاح فى خفة يديها ، ورفع رأسه ونظر اليها ، كانت محتقنة الوجه ، ذاهلة أدرك أن الأمر صحيح ، وان ما سمعه من ترديد الاسم يؤكده ‥ فلم يتحمل ، وخرج من بين ساقى أمه ، ولاصقها جانبا ، وشد ذراعها ‥ وسألها ٠

ـ أمي لم قتلوه ؟
ـ حط « الحجر » في عين النار ٠
ـ أكانوا يلعبون « السيجة » ؟
ـ وسهدم الســـيجة ! ٠
ـ أمن أجل السيجة يقتلونه ؟
ـ أراد أن يطفيء عين النار ٠
ـ وهل اطفاها ؟
ـ لم يمهلوه ٠
ـ فلماذا قتلوه ٠
ـ انه أول من قال ٠٠
ـ وماذا قال ٠٠ ؟
ـ لا توجع القلب ٠٠ فكفاه وجعا ٠٠

وعادت الأم الى البكاء ، وكان بكاؤها حادا وعاليا ، فاهتز جسدها وخيل اليه انها ستسقط فاحاطها بذراعيه ٠٠ وقف على أطراف قدمه ٠٠ « شب » ليربت على كتف أمه ٠٠ فازدادت عويلا ٠٠ مسك ذيل جلبابه وقربه اليهـــا ، فقد كان أنفهـــا ممتلئا ومنســـكبا ٠٠

ـ لماذا يقتلون الناس ؟

نظرت اليه ولم تنطق ٠

ـ كان عمي طيبا ٠٠ كان يحبني ٠٠ ويحب العيال الصغار ٠٠ وازدادت بكاء ، فترك ذراعها ، وجرى ٠٠ كان يراه وهو يجرى يمسك بكوز الذرة الأخضر ، ويعطيه له ، كان يراه « حجرا »

عريضا يرقد عليه ، وصدرا حنونا يلجأ اليه ٠٠ كان يراه حدوتة فى الليالى الطويلة ٠٠ وابتسم ٠٠ ابتسم وهو يراه يحكى له عن الشاطر حسن ٠٠ فبكى ٠٠ وصرخ ، وانفلت من بين الجموع ٠٠ وحط على صـــدر القتيل ٠٠ امتدت الأيادى تنتزعه ٠٠ ولكنه تشبث به ٠٠ فدارت الرءوس ، وانحطت العيـــون فى بلادة عند مواطىء الأقدام ٠٠ وبدا هو ٠٠ الطفل ٠٠ يتنطط كنحلة مليئة بالشهد ٠٠ دفس يده الصغيرة فى الصدر البارد ٠٠ فلقد عوده أن يعطيه قرشا كلما رآه ٠٠ فرد أصابعه ٠٠ فلم ير شيئا ٠٠ وضع أصبعه على شاربه ٠٠ رفع شاله ، طالبه بالكوز ٠٠ كوز الذرة ٠٠ ولم تختلج العين ، ولم يضحك الوجه ، ولم تمتد اليد ٠٠ فبكى واشتد عويله ٠٠ دحرج يده عليه حتى قدمه ، ورفع صوته ٠٠ طلب أن يحكى له حكاية ٠٠ أن يكمل حكاية الشاطر حسن ، أن يوضح له ٠٠ هل يستطيع أن يصل الى حبيبته ؟؟ ولكن الجسد الممدد لم يتحرك ، واللسان لم يعد يخرج من الفم ، واليد لم تعد تمتد ٠٠ وبكى وظل يبكى ٠٠ واحاطه بذراعيه ٠

ـ ما كان يجب أن يموت !

ـ من أجل الصغار ٠

ـ ولكنه مات ٠٠ أتموت معه ؟

★★★

ومشى الناس فى طابور طويل يشيعونه الى القبر ٠٠ وغافلهم فص الماس ، فلم يدخل معه ٠٠ ولكنه مشى بين الناس يتملاهم ، فى خفية ٠٠ حتى عثر على الطفل الصغير ، وحط عليه فى وداعة ٠٠ فمد الطفل يده ، وواراه قلبه ٠

الماء .. والنوار

« الناس ينامون فى رخـــاوة ، ونسوة الحـارة يتمددن فوق الحصير باشتهاء ·· شمس مالت قبل الأوان ·· باب البيت تناثرت ألواحه ·· والأولاد يتعاركون ·· ترك لى أجزاء ونتفا مبعثرة وطلب منى تجميعها ·· من لى بواحدة تقوى على ذلك كله ·· توقف النبض وتنسى الرغبـة ·· يوه ·· أذكرى الله وانسى ·· الحمـــد لله على عطائه ·· » · وضعت السبت على رأسها ومضت ·· البيض والجبن حصاد يوم بطوله ·· تقطع الحوارى ، تلف على الأبواب ، تبحث عن رزق مخفى خلف الجدران ·· الأولاد مرميون فى جوف الدار ·· كحـرام تفكك خيطه ·· « كالطاحـــونة ·· لا تكفين عن الدوران ·· تدورين وتدورين يازليخة والأولاد كالقواديس ·· والمزغود يحب « القرص » من برام السمن ·· والفقى لا يرحمه ·· ومن يرحمنى أنا ·· هيه ·· » ·

فرت بسمة هاربة من شفتيها ·· تنبهت الى أن سعدية تسير بجانبها وعلى رأسها برام السمن فهى الأخرى تحصد شقاء الليلة الأخيرة ·· حيتها وأسرعت « لو أنها أمينة لاشتريت منها ·· فارغة العين ·· فى سوق الثلاثاء اكتشفت أم الخير أن زبدة ســـعدية

مخلوطة بالذرة ·· بكت ، حلفت بسيدى رزق أن الزبدة بختم ربها ·· وأنها من خلق البرام ·· لو ·· ! » نظرت اليها فى ضيق وهى تسرع ·· زليخة ترمح وشبشبها يرن ، ويرمى حوله ترابا خفيفا ، وذيل الطرحة السوداء يتلوى على الأرض فى عصبية ·

ـ على مهلك ·

ـ تأخـــرنا ·

« كأن العفريت ركبك · ترمحين وكأن المشى معك زينة ·· العيال العيال ·· تحلمين أن يملئوا عليك الدار ·· هيه ·· ما أن يخط شاربهم يازليخة ·· سيتركونك مثل أبيهم البغل ·· بصى فى المراية ·· وجهك محروق بمية النار ·· » شغلها رنين دراجة فالتفتت ·· ولوت بوزها ·· طيف ابتسامة لاح ثم وئد فى التو كشرت ، ضغطت شفتيها ·· رمت بيدها ·· دقت الأرض وأسرعت اقترب منها ، ضايقها ، جفلت رمى فى وجهها خاتما ، انحنت ، التقطته وطوحت به فى الترعة صاحت بمحبوس الصوت ·

ـ قدام النـــاس ·

بين لحظة وأخرى ترفع طرحتها لتوارى خجلها ، « طبطبى عليه ·· سيظل حولك حتى يفضحك ·· والبغل فى الترحيلة ·· نصحتك فقلت انه يفرض نفسه عليك ·· أفهمتك أنه لا يمكن لرجل أن يفرض نفسه على امرأة ·· دفست رأسك فى حجرك العريض وتأوهت ·· كادت عيناك تأكلنى ·· قلت فى حدة : تغارين منى يازليخة ·· تركتك ·· وقلبى يعصره الألم ·· يوه مالى أنا » ·· حاذت جرف الشاطئ ، أعجبها ورد النيل مغموســا فى الماء ، وحين رأت البطة تسبح وأعشاب الترعة تتماوج ·· وخبطات الأجنحة تتوالى ، ورخات الماء تنســاب على الجانبين ·· ورقبتها تطول فى

استرخاء ، ارتد اليها بصرها فى رعب « لو أنه لم يركب رأسه ، لكنت الآن تنعمين بساعة الصباح ، وتتخدرين بدغدغة المضروب حين يلقم الثدى ويجرشه ، لو أن أباهم لم يركب رأسه ، لكنت الآن معهم ، نفطر معا ٠ ادفسى فى جيب المزغود قرص الســـمن وقطع السكر ، اعلق فى رقبته اللوح وقلم البوص ودواية الحبر ٠٠ الهباب ٠٠ لو ٠٠ أن ٠٠ لو ٠٠ » ٠ وفرت من عينيها دمعة ساخنة صاهدة ٠ تبعتها ولهفت نفسا عميقا من هواء الصـــباح ، تنهدت بعمق وتابعت خيط الضباب ثم انحطت يدها على كتف زليخة ٠ هالها عظمة ناتئة كقرن الجاموسة ٠ لوت زليخة بوزها ٠٠

« دوما تلوين بوزك » دلقت نظراتها عليها فاحتوت وجهها ٠٠ « ضاعت رموشك مم تهربين أصبحت كعود البرسيم المحروم من ماء الندى ٠٠ والشعر الأصفر الخفيف كشعر الولد أسفل الذقن ٠٠ ألم تلاحظيه ؟ لو ماء الندى ٠٠ آه ٠٠ وتلوين بوزك !!) دفعت باصبعها الى أذنها فاقشعرت ، ارتعشت زليخة ، كومت طرحتها ، وخبأت أذنيها (مازلت تحاولين ٠٠ اصبعك ساخن ومثير ٠٠ وتعلمين أنها موطن الرعشة ٠٠ كان كالجمل يطحن ما تحته ٠٠ لكنه مضى وركب رأســـه) ٠

ــ وحدى الله !

« تنفرين منى وكأننى واغش ٠٠ يعاكسنى ٠٠ أنت تعلمين أنهم يرغبون فى ٠٠ خصبة أنا كأرض البرسيم » ٠

ــ أرض البرسيم تبور لو غاب عنها ماء الندى ٠

ــ هيـــه ٠٠ !!

« أخذت ركبتى بين فخذيك يوم نمنا ســـويا ٠٠ ودفست اصبعى فى أذنك ، ليلتها ارتعشت وارتخت عضلاتك ٠٠ حتى أنت أعطيك ٠٠ » ٠

ـ يلاحقنى ٠

ـ أنت حـــرة ٠

ـ بـلا رغبـــة ٠

ـ فقدناها ٠

ـ اننـا نعطيهـا ٠

ـ وحـــدك ٠

« زوجك فى البـــلاد البعيدة ٠٠ وأنتما تدهنان جسميكما بنوار البرســـيم » ٠

ـ العطاء للزوج ٠

« زوجى !! أبو العيال ! كان يغيب أيضا ٠٠ كنت أحتال مع الشبح ٠٠ كنت أبقى سرواله ٠٠ من منا لا تنور فيه الرغبة ٠٠ » ٠

ـ أين هـو ؟

ـ معـــك ؟

ـ معى ٠٠ !! وهو فى الترحيلة ٠٠

ـ اشـــغلى بالك ٠

ـ مشغولة بالرغبـــة ٠

« ألهث بين المنبع والمصب ٠٠ حتى يخرج النـــوار باهرا كعين الشمس » ٠

ـ كفى ٠

ـ أمـــوت ٠

ـ وزوجــــك !
ـ هو الموجود دوما ٠
ـ زوجك يسيطر عليك لحظتها !!
ـ نعـــم ٠٠

خبطت صدرها بعنف ، وتاهت منهـــا العين ، مسكت ذراع سعدية ، اقتربت منها حدقت فيهـــا ، أرادت أن تقولها ٠٠ سقط انفعالها فتركت الذراع والوجه ٠٠ « حلوة ، حلوة وتثيرنى ٠٠ تخرجنى كلما تواجدنا من بين ركام ثقيل ٠٠ لعبنا معا فى ليالى الشتاء ، كشفت فى المجهول الذى أحرص على بقائه ، لست وحدك ، نحن أيضا ٠٠ تموت المرأة منا فى عز شبابها اذا لم يرغبها أحد ٠٠

لاحظت سعدية ابتسامة حيرى ٠٠ قالت وهى تبتعد :
ـ من يرغـب ؟

حطت عليها كآبة قاتمة ، وتسطحت عيناها ٠

(أنا لا يرغب فى أحد !! لو لم نكن على باب الله لربيتك ٠٠ أنا لا يرغب فى أحد ٠٠ زمن ملعون ٠٠ ابعدى عنى ٠٠ لو أستطيع ضربك ! ٠ ابعدى ٠٠ تثيريننى ٠٠ أتلهف كلمـــا تواجـــدنا ٠٠ أنا لا يرغب فى أحد ٠٠ يا ٠٠ يا) ٠

ومحت عبسة مشدودة تعلو وجهها كله ٠

ويلوح المركز فى الأفق ، البنايات تنفض عنهـــا كســـل الضباب ، وتخترق فى قوة سياج الغبشة ، وضوء الشمس الوليد

ينعكس على المرايا البعيدة ، وضـــجيج الســـوق يجذب المرأتين فتسرعان ٠

ــ زليخـــة ٠

نفر منها عرق خفى ، جهدت أن تخفيه ٠

ــ الجو حـار وأخشى على الزبدة ٠

ــ ليس للذرة رائحة ٠٠

ــ لا تكلمينى من طرف أنفك ٠

ــ ما بى رغبـــة ٠

ــ مع أنك ثرثارة ٠

ــ ليس معك ٠

ــ ولـــم ؟

ــ لا تغضبى ٠٠ فأنا لا أحبك ٠

ــ ولا أنـــا ٠٠

ضحكت المرأتان غصبا ، تواجهتا ، فتصلبت العيـــون ٠٠ وبلا رغبة فى الضحك ضحكتا ٠ وافترشتا مكانا بجوار السور الحديدى ٠ « السبت » مفلطح القاع ، رصت عليه قطع الجبن وحبات البيض ، وصينية النحاس عامت فيهـــا قطع الزبدة ٠٠ وعيـــون الرجاء تطوف بالمكان ٠ وتطلب المشترى ٠٠

« الناس يموتون من الحـر ٠٠ كيف أنت فى غربتك ٠٠ دوما تأخذك منى الترحيلة ولا يتبقى لى الا بعض ليلات ٠٠ أتراها تكفى يا رجل ؟! » ٠ يركن عينيها صادتها وهى تنظر بدهشة ٠٠ فليس على الحيوان جنـــاح ٠٠ فقد أدار الحمار ظهـــره للعـالم ولم يهتم ٠٠

اشـتدت قبضـــة الشمس ، ودت ســــعدية لو تخففت من ملابســــها ٠

ـ الجو حار ، وجسمى يضايقنى ٠٠

هشت زليخة الذباب ، ومنعت طفلا كاد يسقط على السبت ٠

ـ زليخة ٠٠ ساتخفف من ملابسى !

رمتها بنظرة حادة ٠ وعادت تهش على السبت ٠

الحرارة تشتد ، الصياح يرتفع ، الغبار ينتشر ، المرأتان تصهدان ، والشمس مصلوبة ، ورزق الله فى الغيب ٠

ـ لم أبع بيضـــة واحدة ٠

سحبت سعدية صينية الزبدة ، وضعتها تحتها ، نظللها وتحجب عنها وهج الشمس ٠٠ وطالت نظـــرة زليخة اليها ٠٠ انفجرت فيها بضيق ٠

ـ تبصين الى وكأنك حماتى ٠

ـ انزلى الجلباب ، واسترى رجليك ٠٠

انحنت وداعبت قطع الزبدة ٠

ـ تطمعين فى الرزق وأنت عارية ٠

ـ اقفلى فمك ٠٠ والا ٠٠

ـ يكفى البـــلد ٠٠

ويولى النهار هاربا ٠٠ وتبيع زليخة حبات البيض وبعض الجبن ٠٠ وتقل قطع الزبدة العائمة ، وتبتسمان ، تقدمت عجوز

ومالت على سعدية ٠٠ جلست بجانبها ، لعبت أصابعهـــا بقطع الزبدة ، شالت ذيل الجلباب ، رمقتها فانحنت عليها فى همس ، ازاحتها فى غـل ٠

ـ ابعدى عنى فان لى زوجا ٠

ضحكت عينا العجوز ٠

ـ ولنـا أزواج ٠

دفعتها فى صدرها فارتمت ، شهقت وتحفزت ، فزت زليخة وسحبت العجوز وأجلستها بجانبها ٠

« يطمعون فى وأنت بعيد ٠٠ أحبك ، فأسعى حتى أتذكرك ٠٠ حين أجـــدك فى القلب ، أقوى ولا أقع ٠٠ » ودت لو نهضت لتنهش العجوز « تروى الأرض البور ، وتضن على بالخصب فأجدب ٠٠ طفلى شائه لم يتخلق ٠٠ وزليخة عندها أولاد بعدد أصابعها ، ينسونها ، ماذا لو عدت وغطيتنى بعباءتك ٠٠ ماذا ٠٠ ما ٠٠ » ٠

مسحت دمعـــة كبيرة غطت وجهها كله ، واسترخت العين ، أدهشها أن ترى العجوز ، وزليخة تضحكان ، كمـــا لو كانتا صـــديقتين ٠

ـ عندك أولاد وتحتاجين الى كل قرش ٠

ـ ركب رأسه ٠٠ وتركهم ٠

ـ الباقى بجنيه ٠٠ لكن ٠٠

قرصتها فى صدرها فى تضحك فى جرأة ٠

ـ أنت تفهمين ٠٠

★★★

جنيه كامل ، أكسى الأولاد ، ·· اشترى الدمور والبفتة ·· الحلاوة الطحينية « للمزغود » ·· مراية صغيرة ·· منديل بخرز ·· ساعة ·· بجنيه ·· أنا لا يرغب فى أحـد ·

سعدية ·· انظرى ·· جنيه بأكمله ·· جـ ·· ن ·· يـ ·· ه ·· » ·

ـ وافقت !

وحين نظرت الى سعدية ، واجهها وجه عابس نافر ، وبصقة كبيرة تعكس وجه الشمس ، دق قلبها بشدة ، ويد العجوز تتباطأ فى دعك الكف ··

لاترددى ·

★★★

« لو كنت معى ما فكرت ·· الأولاد يطحنون (يا بو العيال) ·· لم تتحمل كلمة من شيخ البلد ·· وتريدنى أن أتحمل هذا كله ·· قال لك أنـــك خادم جلف ·· رميت فى وجهـه الفأس وسحبته الى البراح ·· هلل الناس ·· قامت القيامة ·· وبعدها مت مقتولا ·· ماذا لو تحملت أآلمك أن تكون خادما ؟ ·· ألم تكن فعلا خادما ؟ لو كنت معى ولو تركب رأسك ·· لما فكرت ·· هل ·· هل ·· ستغفر لى ·· هل ·· هـ ·· ل ·· » ·

●

صَدَأ القلوب

قصص قصيرة

صَدأ القلوب

- ١ -

تسللت عيناه عبر الزجاج المغلق تمسح لافتات المحلات ٠ كان الصباح نديا ، وشمس النهار تسخو فى وداعة يوم شتوى دافىء ٠ وبدت فى الأفق مزق السحب تتداخل وتتلاشى فى هشاشة محببة ٠ ظللت أبحث عمن يصلح لى زجاج العربة ، وسط شارع ممتلىء لحافته لا مكان فيه لقدم ٠ أبطأت وأنا لا أكف عن التحديق ٠ فكل المحلات متشابهة ٠ ولكنه لمحنى فأشار الى بيده ٠ كان قصيرا مكتنزا ٠ توقفت فتقدم وفتح الباب ٠

جابهتنى بسمة ثرية تأكل الوجه كله ٠ أسرتنى البسمة وشدتنى اليه ملامح دقيقة ٠ أفهمته الأمر ٠ بقفزة واحدة كان داخل المحل ، وبقفزة أخرى عاد والمفتاح فى يده ٠ وبدأ يفك غطاء الباب ٠

بدا لى الباب جبا غويطا منسوجا بخيوط العنكبوت ٠ وبدأت أصابعه تحرك الأسلاك وتخلع الزوايا ٠ أكدت له فى صوت مرتفع يحمل خوفا وقلقا : أن « الأكرة » فى حاجة الى اصلاح ٠ « الأكرة » فقط ٠ حدجنى فى صمت ، وغارت البسمة وواصل خلع الأسلاك ، والزوايا والدوائر ٠٠ و ٠٠ وتكومت الأجزاء وسقط الزجاج فى الفراغ ٠٠ فراغ الباب الأجوف الخرب ٠

خشيت على نفسى من مطالبه • فأن تمتلك سيارة فى مدينة مزدحمة ، وتسير بهـا فوق أرض مبقورة ، وتتركها نهبا للأيدى والحجارة ، وتدفع مخالفات سجلها من لا يقرأ من راتب تتراقص أرقامه •• أمر يستدعى القلق وأنت ترى الرجل ينتبك العربة ويعرى الباب ويفضحه فيتحول ـ فى لمحة خاطفة ـ الأمر الصغير الى شيء كبير بضخامة الهم الذى يصاحبه •

- ٢ -

كان وهو يرش الماء يتهادى فى حركته • كان يمسك الكوز بأصابعه فتنساب المياه خيوطا رقيقة تترامى فوق أرض متربة غار فى جوفها شريط الأسفلت • لم يفتنى المعنى ، فنحن فى الشتاء والسماء هذه الأيام لا تبخل ، والأرض مبلولة ، والطين يعكر وجه الأرض • قدم لى مقعدا وأعطانى سيجارة ، وأتى بفنجان القهوة •

ـ ولكن الأرض مبلولة لا تتحمل المزيد •

وضحك ، وسوى ياقة قميصه ، وأشعل سيجارة •

ـ صيفا وشـتاء •

ـ ولو كانت السماء تمطر •

أدرك الدهشـة ، فسحب مقعدا وجلس ، تعـكر الوجـه واندلح فى العين رقرقة باهتة :

ـ كان فناء البيت واسعا وفقيرا •• ولكنه نظيف •• فى صباح كل يوم تنهض أمى فتكنسه وترشـه بالماء ، وتحرص على أن تبلل الأركان الأربعة • أذكر أنهـا ما قصرت يوما ، حتى وهى مريضة كانت تتحامل على نفسها وتقوم به • كانت تمارس الأمر كأنه طقس جميل محبب •

وتكورت الدموع وسقطت ، وتلوى خيط الدخان ٠

ودخل الى المحل رجل رث الثياب ومعه مبخرة يتصاعد منها دخان أزرق اللون ورمادى ٠٠ وتنتشر فى المكان رائحة عبقة تتمشى فى كل ركن وتتبعه فى كل مكان ٠٠ دخل وخرج وخلف الدخان والرائحة ولم ينطق ٠

أمال وجهه كله الى ومسح دمعاته :

حتى البخور !! كانت أمى تداوم تبخير البيت ، كانت تضع البخور فوق الجمر ، وتلف به وهى تنفخ فيه ٠٠ وعينها مندأة بالدموع ٠٠ ولسانها يبتهل الى الله أن ينزل رحمته ، ويفيض الغيث ويطرد الجن والشياطين ٠

قدمت اليه سيجارة ٠ ونهضت وأشعلتها له ، ثم طلبت فنجانين من القهوة السادة ٠٠ وعدت أواجهه ، ورأسى تقترب منه ، بل تكاد تلامسه ٠٠ وأنا ٠٠ يأخذنى هذا الذى طفا على وجه الرجل وتمدد ٠ كانت تلوح فى هذه اللحظة – لحظة أن غاب الرجل بمبخرته – سكينة تترقرق على وجهه وتنام فى عينه ٠ لم تفتنى رعشة خفيفة بأسفل الذقن ، وتقلص فى صفحة الخد الأيمن ٠٠ وقال فجأة ٠٠ والصوت ترنيمة خافتة تبوح بحزن قديم ٠٠

– ومنذ أن فتحت المحل ٠٠ وأنا لا أنقطع عن اثنين ٠٠ الماء والبخور ٠

ونهض فجأة ٠٠ ولاحت عليه أمارات اليقظة وتوهجت عيناه :

– كانت أمي عظيمة ٠

وتوقف لحظة خطف فيها شوقى ٠٠ لحظة صمت تشبه الوقفـات الصامتـة التى توحى بالترقب ، ومد يـده كلها فى الفراغ ٠٠ وسدد اصبعه فى حدة كمن يفقأ شيئا ٠٠

– مع أنها حرمتنى من الميراث ٠

واستدار ، ودخل الى المحل ، ووقف أمام السندان وامتدت يده الى المفتـاح ٠

(٣)

وضع الأكرة داخل السندان المعقوف وضغط عليها ٠ صاح دون أن ينظر الى أو يخلع بصره عن الأكرة :

– القلب فى حاجة الى تغيير ٠

وصلنى الصوت فطمأنت نفسى أن الأمر لا يعدو قلب أكرة ، وأدرت بصرى الى الشارع أتلهى بالوجوه ٠ ولكنه خبط بيده على الطاولة وفك الضغط على الأكرة ٠

– ما رأيك ؟

– ليس لى رأى ٠

– كيف وأنت صاحب الأمر ؟

– فى أى شىء !

– فى القلـب ٠

ضـــحكت فضحك · لاحت أســـنانه مفلوجة فحدست أنه طيب · لم أستطع أن أتخلى عن موروثاتي القديمة ، ولم أنس أن السن المفلوجـة تجلب لصاحبها الخير وتفـتح له أبواب الرزق الموصودة · وبالرغم من أن عم عبده كانت أسنانه تسمح بمرور حبل وكان يصر طعامه في منديله الخشن ، ويترنم – صافرا – وهو يوضح كيف يأتى الخير رامحـــا · الا انه كان يؤكـد أنه الاستثناء · وكان يحكى وهو موقن تماما بما يقول ·· وظللت أحمل كلامه لأننى أدركت فيه صدقا لم أعهده كثيرا فى الناس ·

وحين اقتربت من الرجل بدأ أنه ليس كل صاحب حرفـة جبارا !! تذكرت ما يقال عن مغالاتهم ، فارتجف القلب وتموجت فى داخلى سحابات قلق معقودة بخوف يصـاحبنى منذ امتلكت العربة · وترقرقت عينى بوميض متوسل وهو يقاب الأكرة بين يديه وهو يرينى موضع القلب ، وهو يميل على ويبتسم ، وهو يعتدل شامخا ينتظر · كان قلب الأكرة صدئا ، شائخا مشروخا ·· فأدركنى وجل لا يبين على قلب الدم الساخن ·

مسكته بين أصابعى فعلق الصـدأ وشـاع فى الجلد · وتملكتنى هزة طويلة اعترتنى حتى كدت أتطوح · أدركـت ان ما يحدث لى ناتج عن صـدأ ما ·· وأن البنت التى كانت حبة قلبى يوما قد تحتاج الى قلب القلب حتى تذوب طبقة الكلس الصدئة التى تمنع مرور الدم وتسلخ منه سخونته ·

أسرع وهو يتملانى ·· وضغط على الحروف بطريقته :

– كل شىء له عمر يصدأ فيه ·· حتى قلب الانسان ·

تمتمت فى همس مسحوب لا يبين :

– شاخت القلوب ·

ولما حدق فى ، وظلت عيناه تكبان فوق وجهى بريقا مدهوشا قلت فى حدة حزينـة :

ـ القلوب فى زماننا صدئت قبل الأوان ٠

أمال رسه وبدت عيناه الغـامقتان تضيئان وتزمان معهما جلد الجفن :

ـ صدقت ٠٠ صدقت والله ٠٠ نادرا ما أتحدث مع زبائنى لكنك أخذتنى ٠٠ فتحت قلبى اليك ولكنه لم يصدأ بعد ، ولكنه سيصدأ ، فالهموم كثيرة ، والحاجات فوق القدرة ، والطلبات لا تنتهى ٠٠ هيه ٠٠ أغير القلب ٠

ـ ألا يمكن اصلاحـه ؟ ٠٠

ظل صامتـا ينظر الى ٠٠ لم تفتنى لمـة عينيه المدهوشـتين فأسرعت قائلا :

ـ اذن غيره ٠

ولم أدر كيف خرج منى دون وعى ما ، فى تلك اللحظـة المقبوض فيها على الأكرة صوت رقيق واهن ٠

ـ ترفـق به ٠

ولم أتحمل « طرقعـة » المطرقـة ، ولا ضغط السـندان ، ولا قرصات المفتاح ولا الاستسلام الهامد للأكرة ٠٠ فأدرت وجهى كله وأطلقته على الوجوه ٠

(٤)

وقف منتصبا ، بدا طويلا رغم قصره ، ملويا رغم اكتنازه • تلوت الأكرة بين أصابعه • جلاها فلاحت فى العيون ذات بهاء • كانت أصابعه تلامسها فى حدب وحنان •• ثم فجأة نهشت يده القلب الصدىء ورماه •• كان منكفئا خربا ، صدئا ، مهملا •• ولاح كما لو كان يئن أنته الأخيرة ، ويودع عالما مترعا بدفء ملمس الأيدى ••

وضع مكانه قلبا آخر فتيا ، علاه بنقط من الزيت ، ودلكه بين أصابعه وأدفأه •• مرر عليه السلك وأداره •• فدار •

(٥)

خطفت عينى امرأة محبوكة الخطو ، ملفوفة بالثياب الصوفية الأنيقة • هبت على المكان موجة من العيون اللاقطة • فأشعة الشمس الدافئة المخترقة تجمعات من الغيم هنا وهناك قد خففت بعض الحذر الشتوى عند الناس وسمحت لهم باستخدام ما عطله البرد • لا أذكر أن قلبى نبض للملاحة والوسامة منذ أن جاء طفلى الثانى • ثمة أشياء تحدث فلا تقف أمامها كثيرا • لأنها ـ وهى تحدث ـ تبقى ،ولأنها تكون قد مست شيئا كان منسيا ومهملا •

حين سقطت عيناى على المرأة كان شىء ما فى داخلى يتحرك •• يتحرك فى بطء •• يتحرك فى بطء شديد •• وكنت أحس بتنميل من يفيق من نوم طويل • أمالت المرأة الوسيمة تجاه المحل •• رأسها وابتسمت ، فأدرت رأسى فى الاتجاه نفسه •

كان الرجل القصير المكتنز يبتسم · رفع يده وحياها ودعاها وضحك · مرقت المرأة كشعاع شمس شتوية · دهمته حالة غريبة من الذهول فرشت ملامحه ولكننى صدت تكشيرة تتكون ، وعبسة تتجمع ، وزمة استحكمت على الشفتين ·· رآنى محدقا فيه ومتسائلا فبادرنى فى حدة :

ـ مدرسة الولد ·· شاطرة ولكنها منشار ·

ضحكت فجاة · لم يعد المنشار اسم آلة ، ولكنه أضحى كلمة تعقد الألسنة وتلوى القلوب · وضعت يدى على جيبى · فمنشار هذا الزمان ينشر القلوب والجيوب ·

ـ ابنى فى السنة الثانية الابتدائية ·· ما شاء الله ··

وهى تعطيه درسا خصوصيا ·

ـ كان يجب أن تساعده ·· أنت ··

ـ المشاغل كثيرة ، وأنا لا أتفرغ له ·· وأنا لا أقرأ ولا أكتب وأريده أن يتعلم ··

وتداخلت الأجساد أمام المحل يطلبون منه عملا ما ، مد الصبى اليه « الكريك » فرفعه الى أعلى ولمسه بأصابعه وانحنى عليه ناظرا فى داخله ، وركنه أسفل الطاولة وقال فى حسم :

ـ ثلاثة جنيهات ·

ـ هذا كثير على كوريك ·

ـ غيرى يصلحه بخمسة ·

دس الجنيهات الثلاثة فى جيبه واستدار · كانت المرأة تطالب باصلاح « القفل » · قلبه فى يده · حرك فيه المفتاح فاستعصى فطلب جنيها ·

كنت ألاحظه وهو يضع الجنيهات حتى تورم الجيب واطلت ثنياتها الورقية كشارب فار يتلصص · أمال رأسه كمن يتوقع أحدا :

ـ أتعرف كم تتعاطى المدرسة ؟

ـ كم ؟

ـ ثلاثة جنيهات بالتمام والكمال ·· ولا تستحقها ·

ـ انها تعلم ابنك ·· والحياة كما تعلم قاسية ·

ـ ولكن المبلغ كثير ·· انها ترسم له البطة والديك ، وتلعب معه بأعواد الكبريت ·· وتمسك أصابعه وتعد عليها ·· وتأخذ ثلاثة جنيهات ·· والكبريت من عندنا نحن ، والورق أيضا ·

ـ ألا نطمئن اليها ·

ـ لا أطمئن لمدرس أبدا ·· والا قل لى ·· ماذا يعملون فى المدرسة ؟ ··

أمال رأسه كمن يتوقع أحدا·· وأخرج سيجارة وأشعلها·· وطلب فنجانا من القهوة ·

(٦)

وقف الفتى الصغير اليافع أمام المحل · أدار رأسه يمنة ويسرة ثم دخل وغاب قليلا وخرج · كان النهار يثبت أقدامه

ويزحف الى الضحى • وقف منكوش الشعر يرتدى بنطلونا وحذاء عاليا • أخرج علبة سجائره (الكنت) وأشعل واحدة • عاد فدفسها خلف بنطلونه فى جيب صغير مدقوق • تحرك فلاح البنطلون باهتا على الفخذين •• كان – قديما – وهى ترتدى البنطلون الجينز حورية تداعب الشباك ولا تدخل • كان كل ما فيها يتفتق على النسيج ، ويسيل عبر الخيوط والمسام • كانت تشتهى طعم الصيد وتتأبى على الفريسة • وحين تواجه الخطان – كنت خطا – واشتبكا ، تهرأ النسيج وانفك • غاظ القوام وغطاه رداء واسع فضفاض • ولازلت أحمل فى الذاكرة صورة شبحية لقوام طالما تفتق فى الجينز ، وأسر قلبى وصادنى به •

رمى السيجارة وسحقها بعنف ظل ضاغطا عليها بحذائه •

أخرج المشط ومشط شعره ، وامتدت يده وضغط على كومة الشعر فى القلف وعلى الجانبين ، ثم نفخ فى المشط وأعاده ببطء الى جيبه مرة أخرى •• لاصقه « الأسطى » وهمس فى أذنه •

نظر الفتى الى بركن عينه • ولازمه صمت طويل • لم أره يفتح فمه ، حركاته تلقائية ونداءات رئيسه ترتد اليه عبر عينين تتسعان حينا أو تضيقان حينا آخر مع حركة حاجب كث أو انفراج خفيف لزاويتى الشفتين كان فى انحناءته خفيفا خفة الحركة التى تشى بتوازن واضح بين الجسم والمسافة ، وثمة مهابة تبدو من وقفته ومن التواءات عوده النحيف •• وفتح الباب •• أطل عليه من عل ، وانحنى فوقه ، أعاد الأسلاك وستر العرى ، وثبت الاكرة ، وعلا الزجاج وانخفض • وكانت انحناءته واحدة • فى ظل هذه الانحناءة الواحدة أنهى عمله • فتح الباب ، وأغلقه ثم صفقه وعاد •

ارتفق الطاولة ومد يده الى الجيب الخلفى وأبقـاها قليلا ثم سحب فى تلذذ بطىء علبة « الكنت » · ضرب عليها باصبعه وأخرج واحدة · وضـعها بين شفتيه فى الزاوية اليمنى وظلت تترقب قداحة فضية اللون · توهجت القداحة وتصاعد الدخان · خرج الدخان كثيفا ملتويا ، ثم رمى بها ولم يسحقها · ظلت السيجارة تعطى دخانها خيطا دقيقا متواصلا على حين مضى هو الى العربة الأخرى التى تنتظر أن يأتى اليها ·

(٧)

كان الرجل يجلس على كرسى صغير داخل المحل · وحين رآنى أدخل عليه نهض واقفـا ، أحسست أنه يعاملنى كصديق قديم · أكبرت فيه هذا الاحساس وهو يحيط يدى بكلتا يديه · ومرح فى داخل طيف مريح أشعرنى بطمأنينة عجل ، وباعد بينى وبين الجيب المتورم بالأوراق المالية · ولكننى صدت همودا يحط عليه ويسرع فوق ملامحه · فارقته بسمة كانت تشع على الوجه منذ الصباح · وكانت بسـمته تتناثر مع زخـات الماء · وها هى تفارقه وقد خلفت تيبسا وجفافا ·

أفهمته أن الفتى أنهى عمله واتجه الى عربة أخرى · ظلت عيناه ساهمتين عالقتين بوجهى · وحط صمت ثقيـل لفنا برهة · وقف الصمت سياجا أمام ضوضاء الشـارع · اللحظة قصيرة ولكنها سلخت زمنا واقفـا لا يصله صوت ولا تخدشـه حركة · وتحرك الصمود وانزاح ، وبقى حزن قديم يتماوج فى العين ·

لم أتصور يوما أن أقف فى مواجهة رجل قصير مكتنز يمتلك محلا لتصليح أبواب السيارات وجيبه يمتلىء للحافة ، وبعض الهم تشى به ملامحه ·· وأنا أزوره لأول مرة ، ويستبقينى ويحاورنى

.. لم يعد الهم مقصورا على فئة الرواتب المحدودة ، ولكنه تضخم وتمدد ومشى فطال الكل . نبهته الى الأمر ثانية ، فارتجف فى افاقة مفاجئة ومد رأسه تجاه الصبى :

ــ أتعرف كم يأخذ فى اليوم ؟

ولما رأى صمتى وترقبى وانطباق شفتى .. قال فى تنهيدة عميقة :

ــ خمسة جنيهات كاملة ، وليست كثيرة عليه .. انه يستحقها .

وتمتمت فى همسة مجروشة .

ــ خمسة جنيهات !

والتفت بكاملى الى الصبى . كانت انحناءته محسوبة ، وحركته متزنة ورأسه مائلة على عنقه ، والمفك فى يده، والسيجارة فى ركن فمه .

تذكرت فى لحظة خاطفة ــ برقت ذاكمات ــ عمرا طويلا ضاع ما بين الكتاب والعمل ..

ــ لم يكمل تعليمه ، خرج من المدرسة .. لم يجد نفسه فيها .

ــ أحسن صنعا .

تناول قفلا وقلبه بين يديه ، أدخل فيه مفتاحا بصعوبة ، حركة يمينا ويسارا ثم رمى به . كانت الحركة عصبية ، وكان صوت الارتطام مزعجا .

ـ هذا الصبى أخى ·· أعطته أمى وحرمتنى ·· أعطته ليتعلم ·· فضيع ما أعطته وجاءنى ·

ضرب الطاولة بيده فتناثرت المفاتيح والمسامير وتكورت السيور ··

ـ الآن كلهم يأتون الى ··

نظرت الى معصمى وابتسمت · أخرجت حافظة النقود وانتظرت ··

نظر الى فى حسم :

ـ ثلاثة جنيهات ·

بزغ ضيق فورى لم أتحمله · لم يمض على الأمر كله ساعة زمان واحدة · لم تفته نظرتى القلقة ولا انقباض أصابعى على الحافظة ·

ـ المهم هو العمل ·· لا يشغلك كم يستغرق من زمن ·· أنت جديد علينا ولكنك ستثق فينا ·

ـ المبلغ كبير على اصلاح أكرة ·

ـ لا تقل اصلاح أكرة ·· قل اصلاح القلب لقد أعدنا للقلب حركته ·

وضحك · كان يضع النقود فى جيبه وهو يضحك ، واستدرت لأمضى ولكنه استبقانى · طلب لى هذه المرة كوبا من الشاى الساخن وأصر على احتسائه ·· وحرك الكرسى بعيدا ·· وجلست انتظر كوب الشاى الساخن ·

ـ نشرت بالأهرام / نوفمبر ١٩٩٤ ·

الزمان الذى كان



تدحرجت من أمامه المرئيـــات دون أدنى اهتمام ، فالحرارة وأدت فيه امكانية الفعل والحركة ، وسحبت من العين مجال الرؤية ، وبؤرة التركيز ٠

سقطت جفونه فى كسل لزج وجرجر ساقيـــه فى همود ٠ أحس عبئا ثقيلا يقيد الخطو ، وخدرا هائلا يمرح فى الشارع ويحط على الوجوه والأذرع والسيقان ٠

فقدت الأشـــياء بريقها تحت صهد الشمس ٠٠ فاختنقت النفوس ، وضاقت الصدور ، وبدت الملامح على الوجوه باهتـــة ومستفزة ٠

انسحب الى الداخل ومضى فى تثاقل وتباطؤ على حين لهث البعض هنا وهناك ٠٠ ولكنه فى اللحظة ذاتهـــا ، لحظة أن خلع بصره عن الطريق وجدها أمامه ٠٠ تسمرت القدم وأصابه ما يعشى العين تواجه ضوءا باهرا لا تقوى عليه بعد ظلمة تعودت فيهـــا على الظلال المعتمة ٠

جفل وارتعش ، واختلج الجفن اختلاجة مدهوش لا يفيق ٠ صلب جذعه وحدق فى قوة ٠ كان حائرا وقلقا ، رمقها فراعه أنها لا تقل عنه دهشة وعجبا ٠ احتوتها عينه خلسة فمد لها يده بفعل القوة التى هزت كيانه وعجز عن السيطرة عليها ٠ أخذت من المفاجأة

لكنها لم تحرجه · استكانت أصابعها فى يده فحدث نفسه أن القلب لايزال يملك النبض وان ران عليه الصدأ ··

انزويا تحت « باكية » بارزة فغطاهما الظل · بادرها فى حـــذر :

– كأننى فى حـــلم !

أزاحت جدائل شعرها الأصفر فلاحت شحمة الأذن خالية من قرطها الذى تعود رؤيته :

– من يصـــدق ؟

– عمر طويل ·· عشر سنوات ؟

استدار فأعطت الشارع ظهرها وتمتمت :

– لم تتغير ·

لم أتغير !!

فى الغياب كنت أتصفح الوجوه ، أقرأها وأتملاها ، علنى أجد فيها وجهك · رأيت الأبيض والأسود ، والرمادى الداكن ، البيضاوى والدائرى والمثلث ·· لكننى افتقدت فيها جميعا جبهتك العريضة التى كثيرا ما وشت بعمق الشعور وحرارة العاطفة ، افتقدت الخيوط الدقيقة الخافية التى كانت تحمل داخلك منسابا فى رقة بالغـــة ·

ولكنه ·· حين لمحها واحتضنها نـــور البصر لحظ خيوطـا دقيقة تكاد لا تبين فوق الجبهة ، ولم تفته ضمة الخيوط حين عبست لحظة الدهشـــة ·

وضح له أن الزمن وراء العبسة والتغضن · وحركت يدها ، فتأرجحت حقيبتها ، وكان اللون الأخضر يميز ملابسها بوضوح ·

أعرفك من الحركة وأعرف فيك عشقك للأخضر · كم حيرنى هذا الرأس الدقيق بامتـــداد العنق ، وحـدة الذقن · كان حين يستكين فى حضنى يرقص العالم لنا ، ويفور داخلنا بالحب والطهر ·· أكان يجب أن نفترق ؟!

ـ من يصدق أننا نلتقى بعد هذا العمر الطويل !

وابتسمت · كانت البسمة ـ رغم الحذر الواضح منها ـ تشى بتفتح زهرة متيبسة فاجأها قطر الندى على غير ميعاد ·

ـ مادمنا أحياء ·

ـ ضعنا فى القاهرة ·

طوحت برأسها فلاح انحدار العنق حتى الكتف ، بدت العنق مستقيمة ومكتنزة ·· وكانت دقيقة منحوتة ·

ـ كان لابد أن نتوه ما دمنا ··

قاطعها فى تودد :

ـ لكنك ما فارقتنى أبـدا ·

تسطحت عيناها وبدا له كان البريق قد خبـــا فجأة · وعلا صـدرها الممتلىء اثر تنهيدة محبوسة ·

تنظرين فى ألم ، وينضح من النظرة توحش مخيف ·· أين منها ـ الآن ـ أنت ·· حين كنت تطبقين الجفنين على همسنا المعطر بالحب ، وترخين الرموش على قلبين يستدفئان بصهد الدم ··

كان رمشك خطين من نبات السوسن يوحيان بالأمان ·· فما بال العين انسحب منها الوهج ·· وبات الحب غريبا وباردا ··

ـ علمت أنك تزوجت ·

ـ وأنت أيضـــا ·

التقت عيناهما فى دهشة · وفرش الوجهين شعور « طازج » لوقته لكن وجهها سرعان ما استسلم لهمود غريب · لاحظ أن الذقن المسحوبة ترتعش ، وجلد الرقبـة الطويلة يتقلص · حركـــت شفتيها فلاح خيط أبيض لأسنان مصقولة ·· ولمح فى التو ســنا مكسورة ·· لكن الزمة العنيفة أطبقت على الشفتين فى قسوة ··

ـ أكان يجب أن نفترق ·

ـ لعلك حين اخترت وفقت ·

أسند ظهره للحائط ، وآثنى ساقه · حطت عليه كآبة عاتية ، داخله صمت غويط ·· وأحس أنه قد يبقى على صـــمته دهرا ، فاعتدل وأحاطها بنظرة مسترحمة · كانت تنتعل حذاء لامعا بحلية فضية على الجانب ، وشريط مفضض على باطنه ·

ـ مازلت تحبين اللون الأخضر والحذاء الـ ···

وأخرسته نظرة عاتيـة زلزلتـه · كان طوال الحديث حذرا خشـــية أن تأتى تلك اللحظة ، لحظة أن تزلزله العين التى كانت بحيرته وظله ودغله ·· لحظة تهز كيانه وتسحب نفسه الى غور مظلم من الفشـــل فتئد الأمل ، وتقطع الخيط الذى جـاهد أن يستره خلف الذاكرة ·

ـ كان موقفـــا صعبا ·

أنت لا تصدقين أنني كنت ألهث في البحث عنك ، لقد انقسمت نفسي الى شطرين ، كنت أجرى وراءهن ، أبحث عن الشعر المنساب فى عفوية ، الأصفر من أطرافه والداكن الصفرة فى الوسط ، كان يقودنى فأسرع ويتوه فى عينى العالم ، أضـــع كفى وأفرش الأصابع ·· كانت كفى تميمة وكنت تميزين جـــلد أصـــابعى باللمسة ·· وكن حين يلتفتن بغتة لحركة كفى يغوص قلبى وأغضى حياء ·· وأعرف أنك مازلت غائبة لأنه فى استدارتك ـ وهذا ما لم ألحظه فى كل الوجوه ـ يلوح الوجه بدرا يغمره البهاء ·· فما بال وجهك الآن يكفهر ويستوى مع كل الوجوه !

ـ لا أنســـاه ·· ثم ··

وزمت شفتيها بما يوحى بالقرف فهاله الأمر وحدث نفســه بان الأمر لا يريح ··

ـ كان يجب أن تقول لى ··

ـ لم أستطع ··

ـ لكنك تركتنى صباحا بأكمله انتظرك ··

وكنت أرى النيل أمامى يبكى ··

ـ كان الأمر فوق طاقتى ··

ـ حملت ألمى واتصلت بك فتهربت ··

ـ أعترف أننى أخطأت ··

ـ أكان حبنا خداعا ··

ـ لم يكن سوى الحب خالصـا ··

الحب بأسمى معانيه وأنت تعرفين ··

لوت وجهها ، وفتحت حقيبتها ، أخرجت المنديل وبصقت فيه .

ـ أنا الآن أعيش خطئي ..

ـ لقد بعتني ..

ـ .. وندمت ..

أتختزنين في داخلك كل هذا الرعب والتوحش ، كنت أملا يحدوني ، ونفسا تشجعني ، تشملينني بحبك ، وكان قلبك دفق الدفء ، ونبض الحس ، وضحكتك غيمة الضوء تظلل الوجه وتنعش الفؤاد . كنت تعطينني البراءة وأعطيك الأمان .. وقف الزمان كالديدبان بيننا .. وكان الموت .. فوق طاقتي انسحبت لأن عبئا ثقيلا انضاف الى أعبائي ، فحصنتك من المكابدة .. وانسحبت ، وفي انسحابي اكبار لك ، وحفاظ على الحب ، حفظتك في نفسي . وها أنت تقتلينني بتوحشك ..

واهتز فيها الكيان الدقيق المتناسق . غضت وجهها كله بالمنديل ثم أبقته لحظة وسحبته في تمهل بطيء . واجهته ثم لوحت به في نفور .

ـ كرهتك يومها كما لو أكره أحدا في حياتي .

وكالحصى المجروش تقلص قلبه وانبسط . والدم المهروس ينثال داخله باهتا وباردا وميتا .

كانت الحياة معك ميلاد يوم متجدد ، كنا نولد كل يوم مرتين في اليقظة والمنام .. وها أنت سحبت مني الضوء وألقيت على الظلال .

ـ لكنني مازلت أحبك .. حفظتك مني وداومت حبك ..

ـ وما الفـائدة ؟

ـ كلما تشتد بى الأيام أعيش فيك ٠٠

ـ أهى جميلة ؟

اعتدل واقترب منها مندهشـا :

ـ مـن ؟

ـ امرأتـك ٠٠

ارتاع ، واستدار ، فبان لها بجانب وجهه الأيسر مهموما ومحزونا ٠ تقلصت شفتاه ، وداومت عينه الرعشـة ٠ لاحظت قربا واضحا بين الرقبة والكتف وفوضى فى الشعر عند مؤخرة الرأس ولم يفتها التهدل فى الكتفين ٠

ـ لم تكن يوما ما مثلك ٠

ـ لكنك منذ صباح ذلك اليوم لم تعد شيئا مذكورا ٠

أدارت ظهرها له ٠ مد يده وعينه وحسه ٠ حاول أن يستبقيها لكنها استقبلت الشارع ومضت ٠

وقف مذهولا ٠٠ غطت عينه غيمة ظل سـوداء ٠٠ تابعها فأحس أنها أخذت منه عمره وسحبت منه أنفاسه ، فالتوى عليه قلبه ٠ مالت نفسه أن ينطلق وراءها ، أن يعرف مسارها واتجاهها ٠ فلعله يداوم الرؤية لها من بعيد ٠٠ فلا يعقل أن تظل فى الذاكرة عشر سنوات كاملة ثم تمرق من أمامه كالشهاب ولا تخلف سوى الهم والحزن ٠ بدا له الأمر صعبا وقاسيا ٠ وهو يرى البناء الذى أقامه فى داخله يتصدع ويتهاوى ٠٠ حدث نفسه فى هوس صوتى

مختلط بأن الانهيار قد أتى على كل شيء . تذكر بيته ، وامرأته .. فداهمه الألم . ومضى وراءها متســـحبا . كان يخلع خطواته من الطريق خلعا . صوب نظره تجاهها .. فتلاشت الأشياء فى عينه ولم يبق سوى جسد جيد التكوين وخبطات حذاء لامع تعكس حليته المفضضة وهج الشمس . ضاق صدره وعجز عن التقاط الأنفاس .

كان الهواء ساخنـــا ، والجو متربا ، والشمس تشتعل . نشع العرق فسالت اللزوجة طرية مطاطة ، ضايقته أنفاســـه ، وعرقه ، فشعر بدبيب النمل يرعشه ويئزه . عاود النظر . سدد بصره بقوة ، أظل عينه بكفه ليرى أوضح .. سقطت الشمس فى عينه فتاهت الرؤية ، جاهد فلمحها من بعيد نقطة صــغيرة باهتة الملمح والتكوين ، خطفها سيل البشر ، وسرعان ما ذابت ثم غابت وخلفت فى نفسه الحسرة . سقطت من عينه دمعة ، شال يده بجهد كبير ومسحها . لعن اليوم والشمس والصهد . برق فى ذهنه وجه امرأته وتمدد لسانها فى وعيه .. فندم أن رآها .. فماذا تجدى الرؤية حين يصحبها الانهيار .

مال الى مقهى ، وجلس كابيـــا ومتهدما . حـدق فى كوب الشاى . يتصـــاعد البخار ثم ينحسر .. لا يكف عن التحديق ، ساحت معالم الأشياء .. وانحسر البخار . حدث نفسه بأنها كانت الملاذ حين يضيق بالبيت .. ترى من أين يأتى الملاذ وقد تم الصدع .

واصابه الذعر حين فكر فى البيت فداوم التحديق ..

وظلت الأشياء فى عينيه مبهمة . أسند رأســه بيديه وطغى الألم يعتصر عينيه .. وتقاطرت الغيمة . وانثالت الكلمات فى رنين

صوتى محزون . لمس شفتيه فتأكد أنهما مطبقتان فى زمة قوية ..
لملم نفسه وحدق فى الفراغ ..

وكانت الكلمات لاتزال ترسل صداها الحزين .

كنت أعيشك بعين الحلم والخيال ، فلماذا حين وجدتك بعين المشاهدة بهت منك الزمان وضاع منى اليوم .

●

ـ نشرت بالأهرام سبتمبر ١٩٨١ .

سفرة الحلم



كان المشهد كله باهتا · طاله تغير أساء الى ما فيه وكأنما يراه لأول مرة · الردهة ضيقة ، والجدران واطئه ، والساعه الدقاقة خشنة الصوت والأريكة بدت بطول قامة الانسان · وكان المدخل الى الغرف الخلفيـة ضيقا ومعتما ، والسقف فى المواجهـة يكاد ينزلق · شدته غرابة الستارة حين لمح فروع الأشـجار ومناقير العصافير · الى اليسار وعلى الحائط العريض واجهته الصورة · شدت الوجه بسمة مزمومة وراحت خصلة الشعر النائم تداعب الجبين · كان المشبك الذهبى يتلألأ فى أحضان الصدر · والرجل ذو الجلباب الأبيض يقف قلقا ومستفزا ·· وبدا الأمر محيرا ·· وها هو يجلس ينتظر أن تأتى · وكان الرجل ذو الثوب الأبيض يقف مواجها له ويقرأ فى صـحيفة · من هو ؟ لا يدرى ! باحت الخطوات بحركة قادمة · تقدمت · نظر اليها ، والى الصـورة ، كاد اطار الصورة يتمزق فأسرعت فى الدخول · الوجـه مليح ، والجسم نحيف ، والعين واسعة ، وبياضها يترجرج كموج بحيرة هادىء· لم ير المشبك الذهبى الذى قدمه حين خطبت · وتنازعته رغبة دفينة ومشروعة فى أن يمسك يدها ، أن يقبض عليهـا ، ويلمس الدفء الذى غاب عنه عاما كاملا ، وأن يحتوى بالعين نسائم القلب الأولى ورائحة الغد الجميل · كان يعلم أن الغربة صقلت وجدانه وأرهفته · وكان النزوح من أجل بناء عش لمليحة الوجه يؤجج المشاعر على أتون من آلام الوجد وجفاف الغربة · وها هو الحلم يقترب ولم يبق الا أن تعطر « واسعة العينين » جنبات المكان بعطرها المميز وروحها المتوثبة ·

جلست ولم تسلم · آلمه ألا تمد يدها لتمسك يده بعد عام كامل وهو الذى يقاوم قلبه أن يأخذها بين ذراعيه ولو كان الجميع يحيطون بها ، وليس ذلك الرجل ذو الثوب الأبيض الذى لا يعلم مشروعية وجوده ·· جلست على طرف الأريكة تكاد تتداخل وعيناها ترتخيان على ملامس السجاد · لم يكف الرجل ذو الثوب الابيض عن النظر اليها ، وهو لم يبعد عينيه عن وجهها ·· وظل يصطاد حركة عين منها ليتواجها ·· اجتاحه وجع فى القلب · وتســـاءل ما الذى يحدث ؟ ·· الرجل يتحرك فى المكان بحرية يفتقدها هو · وهو ينتظر أن تنظر اليه نظرة خاصة · التزمت الصمت وسكنت عيناها ووشى الوجه بهم واضـــح ·

وشت حـــركة الســـــتارة بمقدم أحد ما ، فاختلطت المناقير بالأوراق الخضراء · وحين رن التليفون اختطف الرجـــــل السماعة وبدا عليه الاهتمام ·· استند بكوعه الى الصوان ثم ضحك ، تمددت ضحكته حتى طالت كل شىء · أحس بغيظ شـــديد وهو يراه على طبيعته وكأنه فى بيته · وهى كما هى انطفأت ولزمت الصمت · دخل والدها بصلعته العريضة فتمنى أن يفسر له ما يرى · تداخلت الرأس الصلعاء مع رأس الرجل ذات الشعر الأســـــود الغزير ثم ضحكا وانسحبا الى الداخل · ضغط الصمت · أراد أن يتحرك نحوها فلزمت طرف الأريكة ظل ينتظر نظرة خاصة · لم ير المشبك على الصدر · انفردت ا الستارة فلاحت المناقير حادة وبدا له الأمر غريبا وان لا يستعصى على التفسير ·

كانت البنت الحلوة خميلته وتعريشة حبه · ما بالها تداخلت وأخرست لسانها · كان وهو يمضى اليها يرقص القلب فرحـــــا ويضج بالحياة · وتنظر اليه فى وله ينهل كالقطر وتتساءل :

ـ من مثلنا فى الحب ؟

ويضيع – وهو يلمس بأصابعه الوجه المخملي – في رقرقة موج العين الأبيض ويقسم لها أنه ملك كنوز الدنيا ، وحصل على قلب أخضر نادر الوجود ·

– ليس مثلنا أحـد ·

ويضحكان · ويحدق فيها ، ويمد أصابعه تتلمس الشفتين فتضغطهما ·

– عام واحد ، أرحـل فيـه وأعود ·· بعدها سنحقق ما نحـلم به ·

والآن تكاد النظرة الخرساء تقتله · انه يستجدى منهـا نظرة واحدة · فمن الظلم أن تبخل عليه بنظرة خاصة بعد مضى عام بأكمله · لم تعد العين تستريح لمرآه ولم تعد الرموش تسترخى على لمسة الكف ، وترنيمة الصوت · ترى متى سمع هذه العبارة ·· أضعك فى عينى وأحميك برمشى · لم يسمعها ولكنـه قرأها فى رسالتها الثانيـة له ·

وانتفض ، هب منتفضا ففزعت ووجد الرجل منتصبا أمامه ·· انسحبت الى الداخل مهرولة ·· عاد الدماغ من سفرة الحلم ، واستيقظ القلب من خدر طويل · وبدا كالممسوس فانقضت يداه على الرجل ، جمع صدر الثوب كله فى قبضة يده ، فاحتقن الوجه وتكورت عيناه جاحظتين كعينى ضفدعة ·· طارده الخوف ورزحت الغربة على صدره فارتجف بشدة ·· فهو لم ينس الضفدعة حين لبدت فى الشق وظلت تتوارى شيئا فشيئا بين فكى الثعبان · وصرخ صرخة عاتية · احتضنه الصديق وخلصه من رعبه ثم أفهمه فيما بعد طبيعة المكان · وبدأ يدور على الشقوق يطمسها بالأسمنت ، ويضـع « الكيزان » المملوءة بالميـاه تحت قوائم الأسرة خوفا من العقارب ·

لم ينس ما كان يقوله فى لحظة الهلع ٠٠ كل شيء يهون من أجل البنت الحلوة ٠٠

وكان يرتعش ٠٠ وظل يرتعش والأصابع تنقبض فى موات ٠٠ من أنت ؟ ٠٠

خلص الرجل نفســـه من قبضته ، أدار رأسه فلم يرها ، تساءل فى ألم :

ـ من أنت ؟ ٠٠

فى هوادة وســـكون كالمغشى عليه آخذه الرجل من يـده وجلسا ٠ كان يجلس على الأريكة وهو يكاد يتداخل ٠ عاشق العين البحيرة ينكفىء على نفسه ويصوب نظره الى الأرض ٠

ينتصب الرجل أمامه ، ويقول فى حدة :

ـ ألا ترى أن الأمر منتهى !

ويأخذه حسه الى عالم ســـحرى زاخـر بالألوان ، الأبيض والأخضر والأزرق والأصفر ٠ تتداخـــل الألوان أمام عينيـــه ٠ فبشرة البنت الحلوة سمراء واللون الأبيض يأكل سمرتها ٠

قال الرجل فجـأة :

ـ ولكن الأخضر المشجر يليق بها ٠

حدق فيه مرتابا ، ثم قال هازئا ومهموما :

ـ ولكننى أميل الى الأبيض ٠

ابتسم الرجل هازئا هو الآخر ـ فاطال عنقه اليه ـ رأى ملامح الشفقة تنداح على وجهه ، فتساءل :

ـ كيف يحدث ما يراه الآن وكأنه كابوس أو مشهد رآه في حلم موصول بالخوف والفزع !

وتذكر وهو يجهز لها كل شيء قبل أن يعود ، فهاله كيف كانت اليـد تمتد فتخطف القماش وتحتضن البـلوزة والجونلة والبنطلون والفستان الكامل ·· كان يختار دائما اللون الأبيض بتمامه أو بدرجـاته في فراغات المساحة · فالأبيض سيد الألوان ، ملكها المتوج ، قمة الجبال وتالق الوهج ، وشعاع القمر وخيط النجوم · وبياض عينيها الواسعتين · ويأخذه الخجل وهو يلملم ملابسها الداخلية ·· ود لو جمع كل شيء · فالبنت الحلوة تنتظر ·· وهو ينتظر لا يزال ينتظر ·· فهو لم يحصل على نظرة خاصة ولم يعرف ما يحدث ·

عادت البنت منكسرة ، تتقدم في حياء كأنما تود أن تعود ، رآها لأول مرة تضع على رأسها شـالا أسود اللون فتذكر نسـاء البلد التي عمل بها · لاح الوجه هامدا وخلا من دفء اللقاء وتكورت أصابعها ولم تنفرد · لم يمد يده اليها واكتفى بالرؤية والمتابعة ·

كان جسمها يخب في فسـتان طويل · لم يتذكر ان كان رآها على هيئتها أم أنها غيرت ملابسها ، لكن الوجه لا يزال واشيا بألم ومعاناة · وضعت رأسـها على يدها ، وكوعها على فخذها ، وعينها فوق وجهه · هذه المرة تنظـر اليه ولكن عينيها تدوران وتقفان على حافة اطار الصورة · كان المشبك زاهيا · رفعت يدها فجأة ولمست صدرها · وكان الصدر خاليا من المشبك ·· أحس برجفة قلبها حين اختلجت العين · لايمكن أن تنسى ارتعاشـتها

الفرحة وهو يضع بنفسه المشبك على الصدر . كانت حلاوة الدنيا فى لمسات أصابعه ولاح فى العين البحيرة زوارق الغد الجميل ، ولم يخف انطباق الجفن شعور بالمحبة .

وتمتمت الشفة المراوغة بكلمة (أحبك) . فى تلك الليلة أخذها الى شاطىء النيل ، شاركهما النيل فرحتهما . حنا الموج عليهما وطوقهما النسيم الليلى بقلادة من السعادة . وصحا الألق فى العيون مبهرا .

أحـاط كفها الرقيق وقال :

ـ أحبـــك .

وهمست فطير النسيم صـــوتها :

ـ كأننى فى حـــلم .

ابتسم فابتسمت فقال :

ـ أود لو نسرع الليلة .

وتمتمت حيـــاء :

ـ الى أيـن .

حدق فى العين وضغط على جلد الكف الرقيق :

ـ الى بيت يضمنا .. ولكن أين هو ؟

تنخفض العين وتسدل الأهداب الطويلة ظلالهـــا ثم تقبض بيديها كلتيهما على كفه وتقول :

ـ الحب فوق كل شيء ٠

الحب فوق كل شيء ٠٠ كان المفتتح في الرسالة الاولى وفي الرسالة الثانية جاءت العبارة تحت هامش ملحوظة هامة وفي الثالثة والأخيرة بحث عنها فلم يجدها ٠٠ كان يدرك أن الشقة الصغيرة تحل المشكلة ، وأن عاما في الغربة كفيل بتخفيف الأعباء ، وأن الحب فوق كل شيء وأن المال يحرسه ليبقى ٠٠ ولكنها الآن أمامه كالعود قارب على الجفاف ، وأصابعها تضغط على الجبهة وتمر في خفة على الصدر وتمرق عيناها الى الستارة ، كان الرجل خلفها ٠٠ أطال رأسه ونظر اليها مستجديا وتمتم :

ـ اشتقت اليك ٠٠ كان عاما قاسيا علينا ٠

ـ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠

ـ نستطيع الليلة أن نمضي ٠٠ وأن يضمنا بيت ٠

ـ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠

ـ لن نخاف على حبنا بعد اليوم ٠

وتنهض البنت فجأة ٠ تتجه الى الصـــورة وتضع يدها على المشبك ٠ تحس بضيق في التنفس تفك صـــديرية الفستان ٠٠ تختنق ٠٠ تصرخ ٠ وتنفرج الستارة ٠ يهرول الرجل ذو الثوب الأبيض ويــكاد ينكفىء الأب الأصلع في حين فردت الأم ذراعيهـــا تحتضن البنت ٠٠ صب الجميع نظراتهـــم عليه ٠ أخذوا البنت ودخلوا ٠ لاحت الستارة بيضاء كالعهن واختفت الأوراق الخضراء والرءوس وبقيت المناقير ٠٠ انسل كل شيء وبقي وحيدا ٠

أحس أنه دخل نفقا معتما ، تصكه الأصوات وتخنقه الهوام حتى كاد الظلام أن يغتاله ٠٠ الأصابع السوداء تضغط في شدة

حول العنق والظلال المعتمة تلفه كالطفل فى قماطه المشدود ٠٠ برقت العين فى حلكة الظلام فلاح له الوجـــه غاضبا وبدا الثوب الأبيض شديد السواد ٠ أفاق مذعورا على جذبة شديدة فوجده أمامه مستنفزا ودخان « البايب » يتصاعد هاربا من أتون النار ٠ قاده الى الأريكة وأقعده فى غل ٠ لبد فى نفسه على حين راح الرجل يحدق فيه ٠ أشار اليه أن ينظر الى الصورة جيدا ٠ كان اطار الصورة ذهبيا ، وشعر البنت منسدل على الكتف ، والوردة الحمراء تدفىء الصدر ، وفص الماس يضوى فى الأصبع المستكن على الفخذ المزموم ٠٠ داهمه الأمر فظل محدقا ، كيف لم يلحظ الأمر ٠ ترى هل غطى هواها على عينه فلم ير الا ما يحب !!

كيف لم يلحظ الرجل ذا الثوب الأبيض وهو يقف بجانبها واضعا يده على الكتف ؟ ٠٠ كانت دوائر الدخان تخنقه ٠٠ انتزع بصره وصوبه الى الرجل وقال فى هزيمة ممرورة :

ــ لقد قتلتنى ٠

ظل يدخن ، وهو ينظر اليه ، والمبسم لا يفارق فمه ٠

ــ وقتلتها أيضا ٠٠ أنت وأبوها وأمها ٠٠ كلكم قتلة ٠

رد عليه باستخفاف بارد :

ــ لقد رأيت بنفسك ٠

وينهض متجها الى الصورة ٠٠ كاد يمد يده لينتزعهـا من الاطار ويمضى بها لولا هذه النظرة المنبعثة منها توحى بالهزيمة ٠

ــ ليست هى التى عرفت ٠٠ لقد حولتموهـا الى مسخ ٠ فى غيبة عام واحد حدث ما حدث ، ماذا يمكن أن يحدث لو طالت الغربة أعواما ؟

ـ لقد رأيت بنفسك ٠

اجتاحه انفعال شديد وظل يردد « كان يجب أن أعرف » ٠ قبل أن آتى « كان يجب أن أعرف » ٠٠ ولكنها لم تتكلم ٠٠ فات أوان الكلام ٠ دهم الفعل القول ٠ ليتها قالت شيئا ٠٠ لم تقل له كلمة واحدة ٠٠ التزمت الصمت وأصابها الخرس ٠ عرفها مغرمة بالحديث تستولد قدرا لا ينقطع من الكلام ٠ تصدح بالحديث كما تصدح العصافير ٠ حين رأته يقفز هربا من محاولتها الامساك به كانت تقفز حول القفص ٠ وظلت تلف حتى أوقفها ٠ مدت يدها ثانية ٠٠ تسلل الأصبع فى نعومة وظلت تنتظر منقاره الصغير المدبب ٠ كانت تتخدر وهو ينقر اللحم فى خلسة وخفة ٠ وتهمس فى وداعة صمت يوحى بالفرح ٠

ـ لو كنا عصفورين ٠

ويحيطها بذراعيه ٠ ويناجيها بعينيه ٠ يصلها السؤال ملفوفا بدفء القلب ٠٠ تلف حول نفسها ، وحول القفص ، لا تبالى بأحد ٠ تحدثت عما كان يريد أن يسأل :

ـ كنا نقفز من شجرة الى شجرة ، نحط حيثما نحب ، يسترنا ورق الشجر ، ويروينا قطر الندى ٠

ويضحك زاعقا فرفرف العصفور مبتعدا :

ـ أى غصن يتحملنا ٠

وتبتسم البنت الحلوة ، ويتمايل جذعها كنحلة مترعة يطن منها صوت رعاش بالحب :

ـ من يحب يخف ويصبح كالريشة ٠

– وكيف أمسك به اذا طرت ؟

– وكيف تطير الريشــة ؟

– اذا أخذها الهواء العاصف ٠

تمد اصبعها فتلامس الشفة :

– لن يقدر على ٠

ويعلو صوتها ، ويرتج المكان من شدة الصـــوت ويرفرف العصفور متعجبا وينظر اليها فى خلسة وهى تفرد ذراعيها بقوه الصـــوت :

– أنا أحب ٠٠ أنا أحب ٠

خاف عليها وخشى على نفسه من الحسد ٠٠ كل هذا الحب مرة واحدة – الآن يطمئن – لقد ملك كنوز الدنيا حين امتلك القلب الأخضر ٠ أحس بالراحة ، فالبنت لن تبيعه بأموال الدنيا كلها ٠ هى تعلم ظروفه – تحبه بظروفه ٠ لكنهـــا لم تكف عن الحلم الصعب ٠

– لو نعثر على شقة صغيرة ٠٠ شقة صغيرة يارب ٠

وهو بلهفة الحب يســـعى الى البعيـــد لعله يحقق الحـلم الصعب ٠ يجهز الأوراق الخاصة ويندفع الى الأرض العراء برمالها الصفراء القاسية وجبالها الموحشة ٠ وحمل معه القلب الأخضر ٠ نشر الوجه فوق كل الوجوه ٠ وعاد وفى قلبه أمل يترعرع ٠ ولكنه الآن يتسرب كالهباء ٠ وشعر بألم شديد ونظر الى الرجل مهروس القلب ٠ كز الرجل على مبسم « البايب » وقال :

– لقد رأيت بنفسك ٠

الرجل ذو الثوب الأبيض يرتدى حلة سمراء أنيقة وهى بجانبه يأكل وجهها ضحكة مترعة .. تعددت الصور . ها هى تمديدها اليه بكأس من الشراب هى نفسها من عام كامل قدمت له نفس الكأس . كيف واتاها قلبها أن تفعل ذلك ؟ .. لقد ناولته الكأس فى خفقة حب نادرة .. هل كررتها مرة ثانية !! ترتشف البنت رشفة خفيفة عبر حافة الكأس .

كانت البسمة واضحة . كيف لم يلحظ هذا ؟ . كانت آلة التصوير تضوى بالأنوار ، والكأس فى يدها يعكس الضوء فى ابهار ، وهى تدور كالمخدرة تريق الفرح حولها .. كيف لها أن تقدم الكأس للرجل ذى الثوب الأبيض .. « انه كأسى أنا ، أنا الأول » . وينهض كمجنون عيناه تلتمعان ويداه ترتعشان . يتجه الى الجدار يمد يده وينتزع الكأس ويصرخ :

ـ هذا الكأس كأسى .

مسكه فى يده وأراق الشراب . وظل يقبض عليه حتى انغرست الرءوس الحادة فى اللحم . تعكر الأبيض بالأحمر . وساد الأحمر كل شىء .. الثياب والوجوه والسجاد والجدران والعيون .. وصاح فى حدة قبل أن يتهاوى .. من قال أن الأبيض سيد الألوان .

ـ نشرت بالاهرام مايو ١٩٩٤ .

تداعيات حزينة

- ١ -

لم تمهله ، ألقت فى وجهه بالخبر وانسحبت الى المطبخ . دار حول نفسه دورتين ثم ألقى بالحقيبة ودخل . ألفاها راقدة على سريرها الصغير ، أحست به فابتسمت ، حملت بسمتها اليه رعشة داخلية فجلس بجانبها ، وضع يده على جبهتها ، فأغلقت عينيها وبانت أهدابها طويلة ، انحنى وقبلها . مدت يدها وتعلقت به .. لمح احمرارا فى العين ، واحتقانا فى الأنف . تحسست أصابعه رقبتها وتوقفت . حدس أنها اللوز .. وأن نزلة البرد شديدة .. أخرج الشيكولاتة ووضعها فى يدها . وكانت أصابعها رقيقة رهيفة تكاد تنقصف وهى تضغط عليها . أحكم حولها الغطاء .. لمح عروستها مرمية بجانبها ابتسم وهو يميل عليها :

– كنت ملهوفة عليها .

انفرجت شفتاها واهنتين :

– ولكننى كبرت .

ضحك وفرحة طاغية كست وجهه كله .. هى فرحته ، وشجرته ، وهى الأمل يملأ حياته ويغطى على الفراغ كله .. ويزرع فوق جدران الصمت نباتات خضراء .. أدار رأسه فزاحمته صورة الزفاف فنهض مستفزا ، يذكر أنه لم ينظر الى الصورة منذ زمن طويل .

أوجعته البسمة والرقة ، واليد المضمومة ، وباقة الورد بين الأصابع · وأذهلته النظرة المنطفئة التى لم يلحظهـا من قبل · وأدهشه الشعر الأسود المنساب على الكتفين كجدائل الصفصاف ، فتعجب كيف يتجمد مثل هذا الشعر ويصير بلون التراب ؟

أطل فى المرآة فجابهته الشعيرات البيضاء ، زم شفتيه ، ولمس جبهته · أدرك أن الخيوط تغور وتمتد ، وان الزمن يهبط بثقل واضح ·· وأنه قد لا يجود بحياة جديدة مرة أخرى ·· وعاد اليها وهو يتمتم وعيناها لا تفارقانه :

ـ سبع سنوات ·

أسرعت فى وهن وقالت :

ـ عمــــرى !!

ربت على جبينها ، ومســـح شعرهـا · كان شعرها الأصفر الطويل مدفوسا تحت الفراش فمسك خصلة صغيرة وتحسسها · كانت تبدو طرية بين أصابعه · حركت فيه حبـــا مخزونا وشوقا غائبا · أدرك الآن أنها حبه وشوقه · منذ حملت أمها فيها وشوقه اليها يزداد · كانت الأم تكره أن تجىء البنت ·· تكره أن تجىء بأى شىء · كانت صامتة حزينة ، وكان صمتها يملأ البيت ويقتله ·· وظـل هو حائرا فيما يرى ·· ويلمس ·· واء القلـق والتوتر والخوف والشك ·· وانتظر ·· حتى جاءت البنت فصارت حبه وشـــوقه ·· مال عليها ووضع وجهها كله بين يديه ·· شرب عينيها ، وأنفها ، وذقنها ، وشفتها ·· وقلبها وضحك ·· وبدت الضحكة باهرة كفلقة البدر :

ـ ست سنوات !! أصبحت عروسة ·

فضت غلاف الشيكولاتة ووضعتها على فمـــه ٠٠ بللتهـا ، ولحستها ، ثم سحبتها أسنانها ٠٠ وتوقفت ٠٠ نظرت اليه وقالت :

ــ تأخذ يا بابا ٠

تناولهـا من يدها ومال عليها ، أعاد وضـــعها بين الأسنان فضحكت وتمنعت :

ــ عودتنى أن تأخذ منها حتة ٠

ــ ليس الآن ٠

ــ ولكنك عودتنى ٠

قطع بين أسنانه قطعة صغيرة ثم أعطاها لها ٠ بقيت القطعة فى فمه ساكنة ، وذابت فى بطء ، وظلت القطعة بين أصابعها حتى ساحت وعلقت بالأصابع ٠ مسح أصابعها ونهض ٠ بحث عن ليمونة فلم يجد ٠ أصابه هم مباغت فما شىء بحث عنه ووجده ٠

- ٢ -

لم تمهله حتى يستريح ٠ كانت عصبية ، قلقة ، متســخة الثياب والوجه ، ورائحة المطبخ تعلو على كل شىء ، تلاشت رائحتها وسط دخان المطبخ « وهباب » الموقد ٠ لم يفته الشغف الطارىء بالأكل ، ولم ينس قائمة الطعــام ، ولا المصـــاريف الشهرية ، ولا الولع بكل شىء تراه عند الآخرين ٠٠ ويفتقده بيتهم الصغير ٠

كانت يوما تجيد التطريز ، ترسم الأشكال الجميلة فى اطار من البهجة والفرح ٠٠ وكانت تهتم بحواف الأشياء ٠٠ ولاح ولعها يتبدى وهى تحدد الفراغات فى جسم الأوراق وكأس الزهور ٠٠ وتميل الرأس الى الصدر فى تأمل حذر ، والعين تحدق فى لمعة

مخيفة ، والأصابع تتضام فى حركة دءوب كدودة تخشى على نفسها حقبة التحول فتسرع فى الافراز • كان يلاحظ الفراغات تتسع ، والأشكال الزخرفية تتداخل ، حتى بدت الخطوط والخيوط مفتوحة على اتساعها ، وبدا الفراغ هائلا •• لم يرقه الأمر •• كان يدخل يده كلهـا وسـط الفراغ عساها تحتج ، أو تدرك أن الأمر غير طبيعى • وأن الصـمت وراء الفراغ •• ولكنهـا لا تتغير ، تظل أصابعها تفرز الخيط ، حتى خصلة شـعرها المرميـة على صدرها لا تهتم بها •• وبدا شعرها يأخذ لون الحناء الباهت ، أطرافه مهوشة • مقصوفة ، مغبرة كالتراب •• وكان الفراغ ثقيلا ضاغطا تسمع صوته يتسلل فى كل مكان •• يجتاحه شعور قابض بأن أمرا غريبا يطوف حولهما ويعكر صوتهما ، أين هذا الصمت من طراوة البداية وليونة القلب • وارتخاء الجفن على رعشة الحياة ! •• فضل ألا يسأل حتى لا يفتح بابا تنسل منه الريح عاتية تقصف بما بقى فى القلب ، والقلب موجوع •• والأمل أن ترفرف فى البيت فراشة تقطع بأزيزها ثقل الصمت ، وتملأ الفراغ ••

- ٣ -

توجه الى المطبخ • كانت مشغولة ، وكان الزيت يحرق دوائر البطاطس ، نفس الرائحة ، رائحة الزيت المحترق التى تجابهه وهو يصـعد السـلالم •• ارتفق الباب وصمت ، نظرت اليه ثم اسـتدارت وأمسكت بالسكين ، وامتلأ الطبق بقطع الطماطم ، ذكرته باحتقان ابنته وحمرة شفتيها ، فنطق فى غضب :

– ألم أنبه أن البيت لا يخلو من الليمون •

التفتت اليه ولم تنطق ، صوبت بصرها الى الموقد ، ومدت يدها وقلبت البطاطس ولم تنطق • وكانت القطع تنهى فى الزيت

الساخن طراوتها ، وبان الاحمرار فى الطرف والتيبس فى القلب ، فأدرك أن ثمة احتراقا أصابهما ٠٠ وأن القلب ليس موجوعا فقط بل ومتيبسا أيضا ٠٠ طالت النيران الزيت المتناثر فتوهج الموقد ، أسرعت وأقفلت المفتاح . خبت النيران وبقى البخار صاعدا يحمل رائحة الاحتراق ويحملها ليملأ البيت ، وينزلق الى السلالم يستقبله ككل يوم ٠

ـ منذ متى ٠

ـ أمس ٠

ـ ولم تخبرينى الى الآن ٠

كبت عليه نظرة واسعة وثابتة ، ثم شدت نفسها ووقفت على أطراف أصابعها ٠ كان صدرها نافرا ، ووجها متسخا ، وبان فى رقبتها اكتناز مشدود ، وبدت ساقاها مبرومتين ، تذكر أنه لم يقربها من مدة ، وأن الرغبة لا تواتيه وأنها هى أيضا لا تساعده ٠٠ وضعت الطبق وبدأت تغرف ٠

ـ أتأكل والبنت مريضة !

توقفت ، وصمتت ، تقلصت أصابعه ، ولم تنظر اليه ، أدخل أصابعه فى فتحة البنطلون وقال فى غيظ لم تفتها حدته :

ـ كان الليمون يسعفها ٠

ـ ولكنها هذه المرة ضعيفة ٠٠ واللوز متضخمة ٠

تحسس لوزه ، وتذكر أن العائلة كلها أصيبت بها ٠٠ وطافت على ذهنه صورته وهو راقد على السرير وخدر البنج يضغط على أعصابه كلها ٠٠ وهى بجانبه ٠٠ جاءت تزوره ٠٠ ولم تنطق

بكلمة ، كان الآخرون يبدون الاهتمام ، وهى لا تنطق ، ولا تنهض عن مجلسها ، حتى استفزته فطلب منها أن تمضى ٠٠ نهضت من مجلسها ومضت دون أن تنطق ٠٠ وأخذته رجفة مباغتة :

ــ آلا يفيدها الليمون ؟ ٠

ــ أليس عندك غير الليمون ؟

ــ ولكنه مفيد فى البرد ٠٠

رمت بالملعقة على حافة الطاولة ، فسقطت وأحدثت دويا ٠

ــ البنت يجب أن تذهب الى الطبيب ٠

مد يده وأخذ قطعة من البطاطس ، جرشها وتناول ثانية . مسكت الملعقة وبدأت تغـرف ، جذبته حركة الملعقة فتنبه لدورة الحركة ، وتابعها وهى تغوص فى الاناء وتنزلق فى الطبق وتتساقط قطرات على الأرض ، وفوق الموقد ٠٠ أخذ قطعة أخرى وأبقاها بين أصبعيه ٠

ــ ولكنها نزلة برد ٠

توقفت حركتهـا ورمقته فى غل ، فأسرع وجرش بأسـنانه القطعة :

ــ مم تخشى !

اهتز ومسح اصبعه فى ملابسه ، لم تفتها الحركة فقاصت شفتيها ، ولم تفته الحركة فحدق فى وجهها ٠

ــ ألا يفيدها المضـاد !

ــ الطبيب ٠

وكتم انفعاله · أحس أنه لو زاد كلمة لانفجر الموقف ، وصدعته بنكدها · وانسحب وهو مشغول · كيف يدبر الأمر لو أشار الطبيب باجراء العملية ! ·· ولكنها البنت الشجرة ، والبسمة ، والأمل الباقي له ·· والقلب الموجوع لا يعجز عن تدبير الأمر ·

- ٤ -

كاد يقترب منها في لهفة ، لولا أنها أزاحته · كانت عيناها تنضحان بخوف شديد ، وكانت عيناه يلعب فيهما فرح مفاجيء · وضعت يدها على بطنها فتصور الحلم حقيقة ، لاصقها ومسك يديها الاثنتين · أطبقت عينها وأغفت في اعياء · كانت الرعشة المكتومة تسيطر على وجهها الأسمر الطولي وتجتاحه · وكان هو يحلم بميلاد جديد ، قد تتجدد معه الحياة ، ولكنها لم تبد تلهفا ، كان البرود يكسو ملامحها المرتعشة ، كأنما داخلها شيء منفصل عنها · وكانت اللامبالاة رغم الألم تقتل في داخله حسا يتلظى بالدفء ·· أدرك للحظة أنها قد ترفض الجديد المزاحم فأصابه هول ·· كان يمني النفس بأن اعادة التجربة قد لا تحمل أملا أفضل ، فركز أمله في البشارة التي توحي بقطر كقطر الندى فوق كئوس الورود · ومن يدري فقد يزداد حتى يغتسلا به · ولم يصدق أن امرأة ترفض الخصوبة والامتداد ، أول الأمر على أنه دلال ، رغم أنه لم ير منها الا الصمت والخرس · أسندت جذعها بيديها ورفعت رأسها وصوبت نظرتها اليه وقالت في حدة لاحت منها شراسة لم يطقها :

ـ لا أريده ·

ـ أعرف ·· ولكن لم ؟

ـ جاء سريعا والرضى بالواقع ظلم ·

ـ أتخشين على نفسك منه ؟

ـ وعليك أيضـــا ٠

وكومت نفسها ، وخرج الصوت منها ، مبحوحا ، مجروحا ، مدمما :

ـ أخشى أن نعيش حياتنا مضطرين ٠

كان الصوت نصــلا غاص في القلب وشطره ٠ منذا الذى يجبر الانسان أن يعيش مضطرا ؟؟

هل جاءنا الخواء فجـأة ، وهبط علينا ناسجا خيطه المترع بلزوجة الصمت والبعد والفـراغ !! أم كان نبتـة مستورة طمرها الوهج الأول فى ربيع الأيام الأولى !! أم أننا أسرعنا فى اللقاء ، ولهثنا فى الزواج ، وذابت منا حرارة الدفء والوصال ٠٠ وحل الصمت جدارا صلدا تزحف عليه الرغبـات الموءودة ٠ وبدا حائرا وقلقا ، لم يتحدث اليها ، انسحب ، يدارى همه وقلقه وتعاسته ٠٠ كان شيء ما يدرج معهما فى الخطو ، واللقـاء ، لم يكن قويا ، لكنه كان موجودا ، كانا يسـمعان دبيبه ، أكان ضعيفا فلم يقو على النماء ؟! أم تحول الى حـركات الابرة تنسج الخيوط والفراغ ؟! أم لاذ بالمطبخ يكتوى برائحة الزيت المحترق ؟ ! وظل الفراغ قائما ، حتى اذا جاءت البنت على مضض ، تزايد الفراغ ، وتلفع الصمت بالشراسة ٠٠ ولكن قلبه هو ٠٠ اتسع ، واتسع ، حتى احتوى البنت ، ومن لحظتها ، أصبحت شجرته ، وظله ، وتعريشة الحب فى حياته ٠٠ وظلت هى ٠٠ كما هى ٠٠ تضيع ساعات عمرها بين المطبخ ٠٠ والصمت ٠

بحث عن الاسبرين ، وأحضر كوب الماء ، مسك الملعقة وأذاب الحبة • ودخل ، رأته ابنته فأسرعت تقول :

ــ بابا •• انت قلت أنني كبرت •

جلس ووضع الكوب على الطاولة الصغيرة :

ــ نعم يا حبيبتي •• كبرت ، وستدخلين المدرسة ، وتصبحين تلميذة شاطرة •

ــ وستوصلني •

ــ نعـــم ••

ــ وتشتري لي حقيبة جميلة •

ــ وسأشتري لك حقيبة بأربعة جيوب وسوستة •

ــ ولونهـا بني ••

ــ سيكون أخضر ••

ــ ولكني أحب البني ••

ــ وأنا أحب الأخضر ••

مدت يدها الصغيرة ، وفردت أصابعها ، ادارت رأسها كله ناحيته ، بدت جادة في ملامحها ، ولكن الضـحكة الواهنة كانت مضغوطة بين أسنانها •

ــ أهو أمر يا بابا •

ضحك زاعقا فارتجت زوجته ، ودخلت ، أشارت الى أمهـ فاقتربت :

ـ ماما سأدخل المدرسة ٠

قعدت أمها بجانبها . سوت فراشها ، وربتت عليها ٠٠
ـ وسيشترى لى حقيبة ٠٠ ولكنه يريدها خضراء وأريدها بنية ٠

نظر اليها ، ونظر الى أمها ، ولمح من بعيد صورة الزفاف ، أوجعته البسمة والرقة واليد المضمومة ، وباقة الورد بين الأصابع ٠ والنظرة المنطفئة ٠٠٠٠ و ٠٠ وتناول كوب الماء ٠٠

أمال رأس البنت ووضعه على فمها ٠٠ شربته فى نفور :
ـ كل ذلك لا يفيد ٠
ـ قد تتحسن ٠

نهضت ونظرت الى ابنتها ، ونظرت اليه ٠٠ ولمحت صورة الزفاف ، فزمت شفتيها ، وطوحت بيدها ، كان فى عينيها غضب ، وعلى شفتيها ارتعاشة ، وعلى جبهتها تغضن واضح ، وبين أصابعها بقايا ليمونة ممصوصة ٠
ـ لو تفعل ما يفعلون ما حملت هما ٠

أحاط ابنته بذراعيه وظل صامتا ٠٠ لم يفته تلميحها له بقلة الدخل ، ولم ينس الحاحها عليه بأن يفعل ما يفعله الآخرون ٠٠ ولكنه لا يريد أن يسلك الطريق الوعر ٠٠ فمن يضمن له ـ لو حدث له مكروه ولابد سيحدث ـ أن تعيش ابنته تحت تعريشة الحب التى حلم بها يوما ٠٠ وهو غائب عنها ٠٠ لم يرها يوما مثل الأمهات تغزل الخيوط قماشا ، وتصنع القماش ثيابا . وتطرز الثياب ورودا ٠٠ لم ير الألق ٠٠ ولا الحنان ٠٠ ولا الدفء ينداح من

العين ·· لم ير اليد تبسط الكف على البطن فى حب ·· تداعب الجنين ·· وتماشى حركته ·· فمن يضمن للبنت نعريشة الحب ·· ضغط بذراعيه على البنت ·· فهى العالم والجنة والملاذ ·· انها البنت ، الشجرة ، والبسمة والأمل الباقى · والقلب الموجوع لا يعجز عن تدبير الأمر ·

●

نشرت بالأهرام اكتوبر ١٩٨٥ ·



التجاعيد

كان الميدان غاصا مرتجفا والأجسام معصورة ومسلوبة ، والدوى يخرق الأذن ، ويرجف القلب ، ويرعش العين ، والأسفلت التوى وتشقق وسحب بطن الأرض وتكور ، يصطدم بالأرجل ويوقع بالناس فى تربص ، والقيظ الشديد يرمى على العيون البلادة وعلى النفوس الكآبة ٠٠ وأنا أدور بعربتى باحثا عن مكان ٠ الأرصفة موطوءة ، ومبقورة ، ولا مكان لقدم ٠

يتدافع الناس أمامى وحولى كمن أصابهم المس ، لا يبالون بحفرة ، ولا يهتمون بشىء وكأنما يساقون فى مدار لا تراه ، ولا نهاية له ٠٠ وأنا أنور وأدور ، والبنت تلبد بجانبى خائفة مذعورة ٠٠ اخترقها الميدان فأطبقت عينيها ، وارتخت رموشها السوداء الطويلة ارتخاء شعرها الناعم الطويل ٠٠ وأدور بعربتى فوق بقايا الشارع المبقور ، وتواجهنى لافتة الممنوع ٠٠ والعربات متراصة من حولها وخلفها وأمامها ٠٠ وأنظر الى البنت ، وينساب الى داخلى فى ألم تقلصات البنت ، وتوتر ملامحها ٠٠ فوأدت رغبة البحث عن مكان آخر ٠٠ ووقفت فى الممنوع ٠٠ فان ترى الممنوع مباحا وبمسافة عريضة ٠ يغريك بالاقتداء والوقوع فى أسر المخالفة ٠٠ ووقفت فى الممنوع ٠

وترتجف أصابع البنت الدقيقة فى يدى ، ويرتعش باطن كفى ، ورأسها تتلفت فى كل اتجاه ، ٠٠ لأصقتنى فى دهشة ، وفتحت عينين مدهوشتين ، ولاح لى نن عينها الأخضر الحلو قلقا

حائرا ، فطوقتها بذراعى ، وتلصصت عيناها الى المرئيات المرعوشه المتداخلة · فازداد التصاقهـا بى ، حتى خيل الى أنهـا تود أن تدخل فى ·

ونعبر الطريق ، وندور حول الميدان ، ونختلط بالأجسام · وتتكدر ملامح البنت ، ونعتلى الدرج ، وندور معه ·· أصبح الميدان أسـفل منا ·· والبنت تطل عليه من وراء السـياج ، وتدبدب بقدميها فوقه فى غل وكأنما لا تصدق أنها فلتت بخير ·

ثمة غربة تجتاح عين البنت ، فعالمها صغير ، صغير ، وما تراه هول وهول ·· ويشيع فى ملامحها انكسار ، فتسلم قدميها الى ، وندلف الى داخل البناية الشاهقة ، ونقف أمام عيادة طبيب الأطفال·

كانت العيادة غاصة وممتلئة ، بلمحة خاطفة أدركت ألا مكان لقدم ، وداخلنى استنكار خفى ، فتأكدت من اللافتة ، ومن اسم الطبيب ، ومن لون الباب ، ومن رقم الشقة المجاورة ·· ومن دلايات النور ·· كان الزحام فى العيادة غريبـا على ، فما تعودت أن رى عنده كل هؤلاء المرضى ·· وأتباعهم ·

وأخرج جنيهين ، وأطلب من الممرض أن يحجز دورا ·· ويدير الممرض رأسه مستنكرا ، ويرفع بصره نحو الحائط المواجه ، ويشير بعينه ، ويومىء برأسه ، ويعاود جلسته دون أن ينطق ، فقط كانت عينه تتكلم وتنوب عن لسـانه ·· كانت قائمة الكشف تحدق فى تحد ، وكادت الأرقام تفلت من اطارها لتصفعنى ·· وتمتد يدى بلا وعى وتكمل الجنيهات الخمسة ويبسط الممرض كفه ، كانت اليد قذرة والوجه كالحا · وأدور ببصرى فى المكان ·· تواجهنى قصيدة منظومة ، وموضوعة فى اطار مذهب ، يتحدث بيت فيها عن رحمة الطبيب ويصفه بالنطاسى البارع ·· وكانت عيون الأطفال

الذابلة وملامحهم المتعبة تصيب الكبار بهم رازح على الوجه وفى القلب ·· وأدرك أن ثمة شيئا راشحا فى الداخل يجبر الكبار على الدفع والأطباء على القبض ·· عملية صـــامتة تدمدم بالداخل ، ولا تقوى على الرفض · ولكن العيون تفضحها ·

والجدران متسـخة ، والطلاء قديم ، والخدوش متقاطعـة ، والأكلمة مغبرة ، والكبار يبحثون عن دورة مياه نظيفة ، والأمهات يبحثن عن ماء بارد يبل الحلق فى قيظ الحر ، والزحام شـديد يفقأ العين ، ويدهش العقـــل ·· وأحـدق فى المرض ، هزيل ، ضئيل ، الوجه مزموم ، والعين بليدة ، والأذن مقطوعة لا تلبى طلبا ·· والأطفال يهمهمون ، يتوجعون ، ورأسه مرفوعة ، وعينه على السقف ، وأذنه مع الجرس ، ويده على القلم ·· وجمع الكبار ·· يرمقونه فى غل ، فالجنيهات ، تتساقط ، والاكرامية تزداد ·· وهو ·· كما هو أذن مقطوعة الا من رنة جرس ، أو صوت الطبيب ·

فى زيارتى السابقة لم يكن الأمر بهذا السوء ، كان المرضى قليلين ، والأرائك نظيفة والماء متوفرا ، والحاجة مقضية ، ·· وكان الممرض شابا صغيرا ، وثابا ، لم يبخل عليه أحد ، بالرغم من كثرة مطالبه ·· وأحدق فى الوجوه ، والأيدى التى تروح عن نفسها شدة الحر ، ويمتد الوقت ، ويتمدد فوق الشفاه والوجوه والعيون ·· ويأخذنى بعيدا بعيدا ·· كنت أتردد مع والدى على طبيب مشهور فى الأعصاب ، فى البدء كان الأمر صعبا ، والزحام شديدا ، والحجز يحتـاح الى وقت طويل وصبر أطول ·· وكانت الممرضة الحسـناء تجلس الى مكتبها فى تطلع وكبرياء ·· جميلة يكاد وجهها المشرب بحمرة حقيقية يسحب ناظريك غصبا ·· اذا سارت اختالت ، ونهرع وراءها نستجديها موعدا قريبا ·· وهى ·· ضحوك مستبشرة يتنامى صوتها همسا كأنها تحادثك على انفراد

« وقتى مشغول ... » ونحن نلح .. وهى .. تستعذب الالحاح ، وتضـــحك ، ثم تهمس لنا جميعـا « من أين أجـد الوقت لكم جميعا ؟ ! .. » .. ونلح ، وتضحك والبسمة تترقرق فى وهن على شفاه المرضى ، وقلوب الأصحاء المصاحبين تنتفض نبضا .. وكنا ندفع بالجنيه ، تلو الجنيه ، وكانت تدســـه فى الجيب ، وتضعه فى الصدر .. وتبتسم ، وتطوف بسمتها كغلالة من العطر الفواح .. وتبدو السكينة على ملامح المرضى .

وكان الطبيب المشهور لا يتقاضى أجرا كبيرا . انه يكاد يقارب ما تأخذه ممرضـــته الحسناء .. على البعض ســـاخرا .. انهما يتقاسمان .. وحين دخلت مع والدى الى الطبيب ، وجدته شـيخا وقورا .. ضاحك وهو يؤدى واجبه ، ويبتسم وهو يحرك المطرقة على حزم الأعصاب ، ويسأل الوالد عن مباشرته مع الوالدة .. ويضحك عاليا حين يخبره الوالد بأن الكريم لا يضام .. ويشع وجهها عبر الباب جمالا لا تقوى عليه قلوب المرضى .. وكان قلب والدى موجـــوعا ، ولم يملك زمامه ، فازدادت دقاته ، وتركزت عيونه .. والطبيب يبتسم ويوجه كلامه الى قائلا : ألم أقل لك .. ان قلبه صحيح .. وأعصـــابه سليمة ، بل هو عفى .. طمئن الوالدة .

وذهلت حين دفعت نصف جنيه ثمنا للدواء ، وأصـــابنى هاجس خفى أن تكون الممرضة الحسناء مصيدة للعجزة ، ومرضى الأعصاب ، وذوى القلوب الموجـوعة .. وكاد ينمحى احســاسى الجميل تجاه الطبيب وممرضته الحسناء ، لولا أننى لاحظت على والدى تحسنا .. فحمدت الله على الشفاء ، ولكن والدى همس لى فى تودد ، ألا يصح أن نستشير الطبيب ، وأدفعه بيدى ضاحكا ، الطبيب أم الممرضة .. ويضحك والدى ، وتضحك والدتى ، وكانت

ضحكتها رائقة كقطر الندى البارد فى فم الظمآن ٠٠٠٠ كانت الأيام حلوة ، وكان رحيقها مختوما لم يدنس ٠٠ و ٠٠

وأنتبه حين ضغطت البنت على يدى ٠ والممرض ينبهنى أن دورى حان ، وأخلع نفسى وذاكرتى وأدخل ٠ نهض الطبيب وحيانى ، ربت على خد البنت فانكمشت وغاضت حياء ٠٠ كان حياؤها خمرى اللون ، فهان لدى كل شىء ٠٠ فحصها وطمأننى . أفهمنى أن الأمر يسير ، وأن الحلق سيبرأ ، وأن الموضوع فى أيدينا ، وأن الليمون مفيد ، وأن الغرغرة تقتل الميكروب وأن الدواء المكتوب سيفى بالمطلوب ، فأراحنى وأزاح عن صدرى قلقا كان ينشب فيه وارتفق الطبيب مكتبه وأشعل سيجارة ، وتحدث فى عفوية ٠ وأصابعه تبحث عن القلم :

ــ أحب أن أدون بعض المعلومات ٠٠ أنت تعلم أنها مفيدة فى تكوين الصورة العامة للمريض ٠

مسك القلم وفرد الورقة :

ــ ليس الداء بذى بال ، المهم هو حالة المريض ٠٠ الوضع الاجتماعى ٠ ٠مثلا ٠

أزاح الكرسى قليلا فلاحت بطنه مكتنزة ٠

ــ الأصل فى الوضع الاجتماعى أنه يساعد فى جودة الأداء ٠٠

ضحك حين رآنى أحدق فيه مندهشا :

ــ هذه الأيام لا نعالج المرض العضوى فقط ، بل والنفسى أيضا ٠

قاطعته مسرعا خشية أن يستمر :

– وهل لذلك ضرورة فى التهاب الحلق .

كانت ضحكته زاعقة ، حتى خيل الى أن الباب فتح ، وأن المرض البغيض أطل منه ..

– بالطبع .. خذ عندك .. التكييف فى الصيف ، يعادل ضرر المدفئة فى الشتاء .. كلاهما سبب قوى لالتهاب الحلق ونزلات البرد .. ولا تنس القدرة على شراء الفواكه ، والحمضـيات ، والمضادات .. و .. واستشـارة الطبيب كلما طرأ جديد على الصحة العامة .

وابتسم ابتسامة ضيقة ، سحبت شفتيه وزمتهما :

– ألا ترى .. كم هو مهم .. الوضع الاجتماعى .

أصابنى خرس مفاجىء ، تذكرت الأطفال فى الخارج ، والألم على وجوه الآباء ، وغاظنى أن يكون الوضع الاجتماعى لهم عادياً بل ومهينا ، وأنه فى مرض الصغار ، يستوى الغنى والفقير فالمرض يغتالهم جميعا ، والطبيب يبتسم .. كدت أنهض مهروس القلب لولا أنه فاجأنى :

– قلت لى ، انك مدرس .

– نعم .. أنا مدرس .

– اننى أدفع خمسة جنيهات كاملة .. لقاء ساعة واحدة .

واقترب منه ، وأتملى وجهه ، وأثبت عينى عليه .. ويشيح بوجهه ، ويرتفق المقعد :

– أنت مدرس .. ولابد أنك تفهم .

ـ أفهم ٠٠ ولكننى لا أفعله ٠

وأخرج الطبيب قرص نعناع وأعطاه للبنت ، تناولت البنت القرص وعيناها تختلجان ، ناولنى قرصا آخر ، فظل لابدا فى تجويف الفم لا يتحرك ٠

ـ أنت مخطىء ٠٠ وكيف تعيش فى هذا الزمان ؟ ٠

يحملنى عبء الاجابة الصعبة ويذكرنى بزوجتى ، وهى تدفعنى دفعا الى فعله ٠٠ فالحياة قاسية لا ترحم ، ونحن لسنا أقل من الآخرين ، وأنك لست أقل من غيرك ٠٠ من المدرســـين ، فالشقة تحتاج الى طلاء جديد ، والتليفزيون الملون غزا القرى ، وموقد البوتاجـاز ذو العيون الست ، يجتـاح البيوت ، وموكيت الردهة بهت لونه ، وجارتنا تلبس كل يوم فستانا جديدا ٠٠ و ٠٠ و ٠٠٠

ـ ولكن الجنيهات الخمسة كثيرة !!

لوح الطبيب بيده ، فسـقطت طفوة السيجارة على أوراقه ، مط راسه ونفخ :

ـ هى فعلا كثيرة ، على درس لا يتجاوز ساعة ٠

ظهرت أسنانه المفلوجة بيضاء ناصعة وهو يسحب قهقهته :

ـ اخصم منها الزمن الضائع فى شرب القهوة ٠٠ والمرطبات ، بل أحيانا بعض السندوتشات ٠٠ أنت مدرس وتفهم ٠

وادير رأسى الى البنت ، كانت تنظر الينا فى وداعة ، وكان قرص النعناع لا يزال فى فمها ، وأربت على خدها فتبتسم ، والبسمة عنقود مترع بحلاوة لا يتدوقها سوى الآباء ، كانت تؤرجح ساقيها على الكرسى ، وتشب برأسها ، وتدفس يديها بين فخذيها ، وترمق من حين لآخر سماعة الطبيب تتأرجح فوق بطنه ٠٠ كانت تحس

بالأمان .. وتغوص البنت فى عينى وقلبى ، وتلوح لى عيـــون الصغار ، فى الخارج .. وزاحمنى هم ضاغط ، راعش ، صامت يتمدد على وجوه الآباء ويزحف الى الداخل .. كل الداخل .. فقلت منفعلا :

– ولكن الجنيهات الخمسة كثيرة على الكشف .

نهض الطبيب فجأة ، سوى هندامه وأرخى سماعته ، ظل حبلها ملتويا على يديه ، رمق ساعته ومسح بعينيه كتبه ورسومه ، فوضعت يدى على كتف البنت وكدت أنهض ، لكنه جلس وبدأ يهز رأســه ، ثم مال برأســه الى الأمام وحدق فى . امتدت يده الى النظارة ، خلعها ووضعها أمامه ، وظل يحدق فى . آنستنى نظرته بالرغم من حرج بدأ يشب داخلى ، حتى أننى فكرت أن أتأسف له ، فالوقت ثمين ، والمرضى من الأطفال ينتظرون .. ولكننى أحسست أنه كمن ينتظر حديثا لم ينته ، فبادرته فى نبرة عتب :

– ماذا جد يا دكتور .. اليد هى اليد ، والسماعة لم تتغير ، وورق الروشتة لم يرتفع سعره ، والدواء نشتريه نحن .. فماذا جـد ؟ !!

كانت ضحكته عالية فضــحكت البنت وملت بصــدرى أرقبه وانتظر :

– قل هى الخبرة ، نحن فى زمن الخبرة .

ورمق ساعته خلسة ، وتابع وهو يخفف من ضحكه :

– اننا نبيع الخبرة .

وأقبض على ملامحه قبضا .. كررت عبارته فى ذهول صامت ثقيل .. وتزاحمني صــورة زوجتى من جديد وهى تفقــأ الفراغ

محذرة بأننا نقف والتيار من حولنا يندفع ، ولن يرحمنا أحد، الكل يجرى ونحن جامدون ، ولا جدوى للطيبة فى زمن السعار ..

ـ الكل يبيع الخبرة !! اننا بهذا يا دكتور نجعل الحياة لا تطاق .. لقد كنت هنا قريبا .. وكانت الأمور معقولة ، وفى متناول القدرة .. فماذا جرى ؟!!

ويقترب الطبيب من مكتبه ، ويمد يده ، ويبـــدأ يقلب فى الأوراق أمامه ..

ـ منذ متى على التقريب !

ـ منذ أشهر قليلة .

وتوقفت أصابعه عند حافة الورقة العليا .. من جهة اليمين وقرأ الاسم :

ـ بل منذ ستة أشهر كاملة ..

ـ أهو زمن طويل !! ؟

كانت حركته عصبية ، ولم تفتنى نبرة الافتعال فى صوته :

ـ هوه .. فى هذه الأشهر انقلبت الدنيا تماما ، كان لابد أن تتحرك مع الحركة . انك ان وقفت ضـــدها ، أخـذتك الدفعة وأسقطتك .

وتعود صورة زوجتى ، فتطفو من جديد .. أخذت هذه المرة ملامح الطبيب .. وتصـــورت نفسى أمام باب تفتحه ريـح رخية لتأخذنى عاصفة هوجاء فى تيار لا يعقل الحركة ولا يضبط الاتجاه .

ـ أنت تعلم أن أجر الكشف كان جنيهين .. وكنا قانعين .. ولكن .. وقع الصمت غائرا يحفر العيون .. وانتظرت أن يكمل .. وانتظرنى أن أعلق .. وظل كلانا ينتظر الآخر ، تتلاقى العيون

وتتواجه ، والبنت حائرة بيننـا ، وكل منا يتوقع أن تنفرج الشفة عن معنى ، فان تحادث طبيبا كل هذا الوقت ، ومرضـاه يعذبهم الانتظار ‥ ودقائقه محسوبة ، ومدفوع ثمنها مقدما ‥ فلابد أن يكون لحركة اللسان قيمة ‥ وتنبه الطبيب لحركة الباب ، ولوجه المرض يطل ببلادته ، باسرع قائلا :

ـ لعلك تعلم أن قيمة الكشف عند الطبيب المجاور كانت خمسة جنيهات ‥

ـ نعم ‥ أعلم ذلك ٠

ـ ولكنك لا تعلم أن المرضى كانوا يذهبون للأعلى سعرا ٠

ـ أهو فقط السبب وراء الزيادة ٠

ـ لا بالتأكيد ‥ انما هو مظهر له ٠

ونهض ‥ ووضع السماعة حول قبته ، وتدلت فتارجحت فوق بطنه ، وأحكام نظارته فوق وجهه ، وأعطى البنت قرصـــا من النعناع ، ومد يده وضغط على مفتاح جرس بجانبه ، وبسط يده ، وانفرجت أصابعه ‥ ومددت يدى ، وصافحته ، ولكنه أبقى على يدى وقال :

ـ لا تنس أننـــا نعيش عصرا لا يســعفك فيه التـأمل أو الانتظار ‥ وخسارة ‥ خسارة ألا تستفيد بخبرتك ‥ فالتيار يندفع وبقوة ٠

وانسحب ، والبنت فى جناحى وديعة كحمامة ، ونفسى يشتجر داخلها حديث ثقيل ‥ ثقيل ، وأنا أسائل نفسى فى مرارة ‥ الى متى تظل صورة زوجتى تزاحمنى دوما ‥ وهل يأتى يوم أرى فيها ملامحها مرسومة على كل الوجوه ٠

نشرت بالاهرام ديسمبر ١٩٨٧ ٠

تراجيع الصدى والصمت



وهو ينسرب الى الداخل فى خفة ، واجهه سكون متربص يطل من الأركان ويسيل فوق الفراغ كذرات دقيقة لا تبين ، أحس به وهو يداهمه فى لزوجة ، فارتجف عائدا الى الباب ، والى الدرج ٠٠ البيت بيته ، وهو لم يخطىء ٠

وقف ساكنا أمام اللوحة ذات الاطار الذهبى ٠٠ وتنهد عميقا ، حين لمح البريق فى العين وهاله توحش يحتوى العين فلام نفسه عند الاختيار ، وتساءل لماذا لم يلحظ ذلك من قبل ؟ ٠ مشى معه الصمت ثقيلا وهو يتخطى الردهة الضيقة الى البهو وهاجس يراوده ملحا أن شيئا ما خرق ناموس حياته ، فقد احتجب الضجيج وتلاشى ولم يعد الصوت المدوى رجع صدى يصك الأذن ويرجف القلب ٠ أمال رأسه وأرهف السمع ، وتوقع أن يأتيه الصخب من مكان ما ٠٠ ولكن الصمت يتماوج سكونا مطبقا ويحيط به ، ويعتصره ٠٠ أتراها قد أخذته معها فى سفرها الى الأهل ؟ ٠

كان قد عاد لتوه بعد أن رافق امرأته الى المحطة ٠ لا يذكر أنها سافرت بمفردها من قبل ٠ كانت تحتد فى وجهه ان تعلل بانشغاله ٠ وتستنكر أن تسافر امرأة دون صحبة الزوج ٠ وكان وهو يراها منفعلة ، يكتم فرحا غامرا يفيض فى داخله أما هذه المرة فقد انفردت بالأمر وألحت عليه ونفذته ٠ حاول أن يعترض ولكنها ببريق العين الحاد قتلت محاولته ٠ فنزل على رغبتها مضطرا ٠

أدار عينه فى البهو فأحس به يرشح من المسام ‥ سائلا محمولا فوق ذرات ريح خفية لينزلق على الجلد والقلب والعصب وينتفض ، ويلوح بذراعيه ، ويدور فى مكانه ، ليطرد بحركته القلقة هذا الذى يسيل ساكنا وصامتا .

وقف أمام الثلاجة يستمتع بصوت المحرك الذى يشبه نغما نادرا . لقد كان الصوت الوحيد الذى يشعره بوجود ما . أخرج زجاجة المياه ووضعها على الطاولة ‥ وارتطم الزجاج بالزجاج . وامتد الصوت وعلا زاعقا ، فأسرع فزعا ليضعها فى الثلاجة دون أن يشرب ، مسحت عينه أكداسا من الطعام والشراب ، ومرت على الخاطر أن تكون امرأته قد أزمعت على الغياب ،فهمه الأمر وركبه حزن ثقيل ‥ كيف تتركه مع صمت ثقيل كهذا ، وهو الذى لم يتعود منها الا الصخب والدوى الزاعق ؟ تذكر وهى تتلو عليه قائمة النصائح أنها ستمكث أسبوعا . كانت تملأ المكان كله فى وقفتها ‥ كانت تسد عليه كل الواجهات ، ولم ير الا واجهتها فقط ، كانت عادته التى تربى عليها . وأحس بطمأنينة مباغتة فليس الأسبوع كثيرا فى حساب الأيام ‥ ووعى صوتها وهى تحادثه فى حدب لم يتعوده منها ‥ هذا الصنف ليومين ، والآخر يؤكل مرة واحدة أما الثالث فلن تنتهى منه قبل أن أشاركك فيه ‥ الفاكهة طازجة لم يمر على قطفها يومان ‥ تستمر أسبوعا وأكثر ‥ أعرف ولعك بالفاكهة ، ولكن لا تسرف فأنت لا تقوى على الشراء ‥ ستراني بعد أسبوع أعصر لك كأسا من البرتقال ‥ وان كنت لا تتمنى ذلك ‥ أنتم صنف الرجال لا أمان لكم ‥ ويضحك ، يضحك عاليا فيرتد الصدى صاكا مسمعه ، فيرهف أذنه ‥ ما عليك الا أن تغسل الأطباق ‥ اياك أن ترسل الى الشغالة القديمة ‥ فقد كبرت ولا تصلح لك فى غيبتى ‥ احكم الغطاء حولك ‥ ويبتسم ابتسامة صافية ينداح صفاؤها على وجهه كله فهذه المرأة لا تكف عن حصاره أبدا ‥ حتى فى الصيف ، والعرق ينز من الجلد تحرص على لفه

بالملاءة كطفل صغير ٠٠ الدواء من صنف الداء ٠٠ وتترقرق بسمته وهو يصيد طيفها ٠٠ تنبه الى الموقد ، ولا تنم قبل اغلاق التلفاز ٠٠ ولا ٠٠ ولا ٠٠ ولا ٠٠ وانبهم شعوره انبهاما شديدا ٠

حين أراد أن يخطو الى الداخل أوقفه احتمالات الصوت المدوى وسط السكون المطبق فخلع حذاءه وظل ممسكا به ٠ فهو لا يقوى على الصمت ، أو الصوت ٠٠ كيف يواجهه بمفرده ؟ أين يضع الحذاء ، أيظل يمسك به ؟ ٠٠ عودته امرأته أن يضع الحذاء فى صندوقه الخاص ٠٠ وصندوق الأحذية بجوار الفراش ، والفراش الوثير يقبع خلف باب ، والباب يصر صرير ساقية قديمة ٠ والصرير الآن يقتله ٠ كثيرا ما نبهها الى علاج مفصلات الأبواب ٠٠ ولأنها طوع أمره ٠ فاهتمت بالأمر اهتماما شديدا ، اسقطت الزيت على الخشب وظل الحديد كما هو صدئا ـ وكلما نبهها الى ذلك ازدادت بقع الزيت فى مساحة الخشب ، فهى لا تعصى له أبدا ٠٠ أمرا ٠٠ وهى امرأة مغرمة بكل صوت عال يحاكى قرع الطبول ٠٠ ولأنها عادته ، عود سمعه على الرهافة وأجرى بين العين والسمع حركة تبادلية ٠ وظل اللسان ـ وسط حشد الأصوات المختلطة ـ لابد فى تجويف الفم ٠ ولابد له أن يتعامل وأن يتحدث ، وأن يصل صوته اليها أولا قبل الآخرين ٠ ودرب حنجرته على النطق ٠٠ وكان نطقه صراخا ٠ فليس للهمس مجال فى الضجيج ٠ ولكن الصوت الآن يختلف ، انه خيط من حزمة أصواتها ٠ له زعيق يعادل ما تحدثه من صخب يومى ٠ واذا كان يقدر على الكف عن الفعل ، فهو عاجز أمام الصمت الغريب المزاحم الذى ما رآه يوما ، أو سمع عنه ٠ وها هو الذى تمناه يوما ، يحاول الهرب منه ، فكم تمنى أن يعيش ليلا ساكنا ، وقمرا وادعا ، ووجها مضيئا ، ويدا لا تمسك بالمنفضة ، وشعرا غجريا متمردا ٠ وعينين وادعتين لا بريق لهما ٠ فقد هده البريق وأزعجه ٠٠ وها هو الآن حزين ، لا السكون أفرحه ولا انطفاء البريق ٠ وأحس بوحدة قاتلة ٠ والوحدة ليست

غريبة عليه فهو لا يذكر أن حبال الكلام امتدت بينه وبين امرأته الا قليلا ٠ هو يستطيع أن يعد مفردات اللغة التى تدور بينهما ٠٠ ففى الصخب تعلو لغة الاشارة ٠٠ وكثيرا ما يفتقدان لفظا مناسبا لحظة نشوة طارئة فيضحى الأمر مضحكا ومربكا ٠٠ ويصبحان على اشارة جديدة منذ أن ينفذ شعاع الشمس الدامى ، عبر خصاص النافذة ، فتهب يقظة ويدها على مفتاح الراديو ليعلو صـــوته ٠ ويزعج الآخرين ٠ ثم تبدأ الجوقة فى صخب عال حتى يأخذها التعب أخذا الى النوم ٠٠ وكثيرا ما تعجب من رقة حديث يسمعه فى الخارج ٠٠ أو نعومة لفظ ينساب كخرير جدول ٠٠ واعتبر ذلك أمرا ملفتا للنظر ، ويســـتحق الاهتمام فهو أشبه بخرق العادة ٠٠ وكثيرا ما كان يسائل نفسه كلما رأى عاشقين يقتربان حتى يكادا يذوبان التصاقا ٠٠ كم يحتاج من الصبر وضبط النفس وتدريب الصوت ٠٠ ليحتمل موقفا هامسا كهذا !؟ ٠٠

كان الذهاب فجأة مطرقة هوت على رأسه ٠ فهو لم يتعود فراغا هائلا كهذا الذى يقبض عليه الآن منذ أن أتى بها الى بيته ٠ ولو كان البديل عن الصخب سكونا طالما حلم به ٠ أراد أن يثنيها عن الحركة الزائدة والصوت الذى يطحن العصب ، ويميته ، ولكنها كانت تداومه وتصر عليه ٠٠ كان يروقها أن ترى نفسها مشغولة دوما ، كأنما كانت تخشى أن تتاح لها فرصة سانحة للحديث ، أو تقع متلبسة بهمس يشى بالفعل ٠ كان الصخب يملأ وجدانها كله ويفيض ٠٠ وكانت الضحكة تجلجل عبر البهو وبين الغرف ، وأضحت المنفضة كالعصا التى تؤذن بهدير الصوت ٠٠ حتى اذا جاء آخر الليل ظل صدرها يعلو وصوتها يرتفع وأنفاسها تتلاحق كأنما تريد أن تكمل حركة النهار ٠٠ ويظل هو بجانبها سهران يقظا ٠٠ يلعن اليوم الذى حرك فيه مشهدها ٠ حنينا الى البيت ، ورغبة مكتومة فى أسرة صغيرة وعش دافىء ٠

وحملته الأيام على جناحها عبر السكون المعطر بالسكينة ٠٠ وكلما مضى يوم داخلته الطمأنينة شيئا فشيئا حتى أحس بها تملأ كيانه كله ٠٠ واندهش لرقة فى صوته تجاوبت مع المجال الذى يتحرك فيه ٠ وحين أصلح الأبواب خيل اليه أنه يعيش فى واد سحيق لا يخدش هدوءه مرور سحابة غضبى ولا عواء ذئب أو نباح كلاب مارقة ٠٠ هفت نفسه الى الأغصان والشجر والماء ينساب بين طيات الحفر ، والطائر الغريد يصيح فى السحر ٠٠ وابتسم ٠٠ وفرح ٠٠ كيف يواتيه النغم ، وهو الذى ظن نفسه متيبسا !! أغرته نفسه أن يطير ، أن يرفرف ، ويخبط بالجناح على شواطىء لم يرها ٠٠ فها هى نفسه ، تخدعه ، وتخف ، وتشف ، وتكاد تطير به محلقة ٠٠ ما باله الآن يترنح منتشيا ٠٠ وهو يخطو فى الردهة وبين الغرف فى خفين من القماش الاسفنجى !!! ونسج الصمت رداءه الساكن الناعم وغفا على وسادته منعما ٠

اطمأن لخزين الطعام والشراب فمكث فى البيت ولم يخرج ، ظل الأيام قابعا فى بيته دون أن يذهب الى عمله ٠٠ كيف يقوى على الضجيج مرة أخرى وكيف تتلاءم طمأنينة السكينة مع صخب يتقافز مع كل خطوة ويدخل فى كل تنفس ٠٠ كيف يوقع العذاب بنفسه ويستعيد الصخب الذى صنعته امرأته وأغرقته فيه ؟ ٠٠ جاءه اقتناع كامل بأن ما يحياه الآن يسير وفق رغبة كامنة كانت تراوده على خجل شديد ٠٠ رغبة أن يكون هو نفسه ، أن يتحرك فى مجال من صنع يده ٠٠ يذكر ـ وهو يتحسر الآن فقط ـ أنه لم يقو على فعل ما يريد يوم جاءه الزواج سريعا ، حين لم يفكر فيه أو يعمل له حسابا ٠٠ وتصور أن بالزواج سيكتب تاريخه هو ، وأنه سينسلخ من تبعيته لأبيه ٠٠ فالبيت بيته الآن ، وهو رب البيت وصاحبه ٠٠ وجوده الآن لا يقارن بوجوده فى بيت الأسرة الكبير ، حيث يعيش الكل فى تيه لا حدود له ٠٠ فسلطان الأب لا يعلوه سلطان ٠ ولكن امرأته الخبيثة تداوم على طاعته ، لا تؤخر له طلبا و لاتراجع له

أمرا ، هو السيد ، كانت تضحك وهى تبدى له الخضوع وكانه يتمدد نشوة وهو يراها خاضعة • لم يراها يوما تحقق ما يهواه •• ولكنها تخضع له ، لم يسمع منها غير كلمة « حاضر » ولم ير منها عملا يحقق له رغبة • وجاءه الزمان يتلاعب برغباته كلما حلا له •• وهيأ نفسه ، وبدأ يبحث فى دماغه عن رغبات كثيرة موءودة ، ليخرج بها حية على بساط يده ، فقد آن لها أن تفك أسرها وتنطلق •• وظل يبحث فى دماغه عن رغبات يمكن أن يحققها فى غياب امرأته ، •• وداوم البحث ، ولم يظفر بشىء ، خيل اليه أن رغباته قد تلاشت تماما ، أو أنه حققها دون أن يدرى •• وقنع برغبة كبيرة كانت تتأبى عليه وهى التنعم بلحظات صمت مسروقة من صخب امرأته •• وها هو غارق فيه ، فكف عن التفكير • قادته قدماه الى الشرفة فى خفة •• وكانت تطل على حقل من البرسيم • وحملت النسائم الى أنفه رائحة الأرض المختلطة بعطر نوار البرسيم ، وعب صمت الكون كله ولم يرتو • وحط أنفه على الأرض وعيدان البرسـيم المرشوقة فى طينها تتعالى وتقبض على وجدانه •• وتذكر الرجل وأنفه معلق برائحة الأرض •• أن امرأته تغيب أكثر مما حددت ، حاول القـلق أن يزاحمه فنحـاه حتى لا يخدش جمال اللحظة الوديعة • وحتى لا يسحب ذكر امرأته ذكرى صخب لايزال منتظرا خلف الأذن •

فى الصـباح الباكر ، ارتدى حلته الأنيقة ، وخـلع خفه الاسفنجى •• ونزل يواجه الخارج بجبروت صخبه • وتوجه مباشرة الى موقف القطار •• فتأخر امرأته ـ وهو لا ينكر ذلك ـ قد أقلقه وأودع فى قلبه هاجسا يخشى منه • ليكن الذهاب لمجرد الاطمئنان ، وحبذا لو عاد بدونها •• ولكن الواجب يقتضى السؤال •• تماوجت حول الأذن دقات الطبول ، فكاد يرجع لولا أنه لمح القطار فهرول • كانت المحطة غاصة والزحام شديدا • هاله التكدس الرهيب ، ووشى اليه هاجس قلق •• كيف يواجه هذا الحشد الضخم ؟ •• كيف

يقتحم هذا الجدار البشرى ويخترقه ؟ ·· على مدار حياته العاقلة ·· لا يذكر أنه شارك فى لمة ·· أو مشى فى مظاهرة ، أو استجاب لدعوة أحد ، أو نجح فى خوض زحام ما ·· بارادته ·· كان يومه ينقضى بين رئيس يتلقفه صـباحا ضاحكا ·· وامرأة تسجنه بعد عودته محصورا بين الصخب العابث والصخب الراعب · كيف له وهو الذى يسير بجانب الحائط أن يواجه حركة الأجسام فى مسارها الى القطار وفتحاته ؟ ·· وكأنما لم يركبه يوما !! حاول ونجح ، وضع قدمه على أول درجة ، ها هو يضع قدمه على الدرجة الأولى ·· ولكنه فجأة دون أن يدرى وجد نفسه مكوما على رصيف المحطة· اذا كان مجرد وضع القدم كومه على الرصيف فما باله لو حاول أن يدخل ، أو يجلس مثلا !! ·· وظلت عيناه تراقب حركة الأجساد وتداخلها والتصاقها ·· وهز رأسه فى أسى ·· كيف تقبل امرأة أن تحشر جسدها كله بين عيون لا ترحم وأعصاب لا تنام ؟ ·· ولم تفته سخرية زميله فى العمل كلما تأخرت موظفة ·· انها تعمل من أجل أن تركب القطار !!

•

وانسحب عائدا وهو يمنى نفسه بأن غدا اجازة وأن القطار سيواتيه راكبا ! ·· وأيقظته صيحة الديك ، فمنذ أن سافرت امرأته كفت ساعة البهو ، والمنبه ذو الدقاق النحاسى عن العمل · أعد له كوبا من الشاى الساخن ، وفضل أن يحتسيه بالشرفة وكان باب الشرفة يتباعد عن مرقده فى نعاس خدر ، كأنما يدعوه الى القدوم · وأطل على مرج البرسيم وغبشة الليل لاتزال تمسـك بأوراق البرسيم وزهراته البيضـاء · وقبل أن تكتب الشمس شهادتها ، وضع قدمه على الدرج متجهـا الى المحطة · ولعل فى البكور ما ييسر له الأمر ، فهو لا يريد أن تهتز صورته عند أهل زوجته ·· واجتاحه غضب شديد ·· فالزحام قائم ، والمكان ممتلىء، والحركة صخابة ·· أين يذهب الناس فى يوم أجازتهم ، ومدى علمه أن القوم لا يهتمون بأجازة ، وهم لا ينهضون من فراشهم

الا قرب الظهر · فلماذا تعاكسه الأيام على غير عادتها ؟! وهي تعلم أنه لابد له أن يركب القطار الى امرأته فلقد مضى الأسبوع ولم تأت ·· لا مفر · وحين أبطأ القطار ، كان لجسده النحيف قدرة اختراق هائلة ، تعجب لها واندهش · وضع قدمه اليمنى على الدرج ، ومسك قضيب الباب الحديدى بيد من حديد · وهم أن يرفع قدمه الأخرى ليدخل ·· فعجز ، وبقى جسمه فى الخارج مضغوطا بأجساد المزاحمين · خيل اليه أن موجة عاتية تريد أن تقتلعه ، فاستماتت قبضته ، كيف تكون صورته أمام أهلها وهو يماطل فى الذهاب ؟·· واشتدت قبضته ، حتى بدا له أن أصابعه تكاد تلين الحديد وتنغرز فيه ·· والقطار يمضى ·· وبقية جســـده مضغوط لا يدرى عنه شيئا · فى المحطة التالية هبت حركة الأجساد فى موجة جديدة فتحين الفرصة ، ونزل · استقر على الطوار لاهثا ، موجوع الظهر مضروب الصدر ، مخدر الســـاق ·· وحمد لزوجته أنها ليست عاملة · وأنها لا تحشر جسدها الا مرة واحدة ·· ومرق على خاطره أمر بدا له غريبا ·· أيكون ذلك وراء الصـــخب الذى تصـــنعه امرأته ؟ ··

وعاد الى بيته مهموما · فضل أن يقطع طريق العودة سائرا على قدميه ·

وأخذه الخوف هذه المرة ، فلم يأت منها خبر أو رسالة ، أو مكالمة هاتفية · وكأنما ـ هى الأخرى ـ قد تعاونت مع القطار لاحداث رعب خفى يتسلل اليه فيحرمه من متعة التنعم بلحظات السـكينة التى امتدت معه أياما · أتســتكثر عليه هذه اللحظات المسروقة ؟ ، وهو الذى أضاع عمره كله بجانبها يتلذذ عذابا من صخبها وضجيجها ورائحتها ؟ أتراها الآن تنتظره ؟ أو شغلها شاغل فرمت فيه بثقلها فأنساها اياه ، وهل ثمة شاغل يفوق متعة اختلاط متعة اختلاط الأصوات عندها ؟

لقد ظل هذه السنين الطوال عاجزا عن معرفة كيفية اهتدائها الدقيق الى أعمق النغمـــات وأرقها وهى تدوس بقدميها المقاعد ، وتمسك بيدها آلة الهاون ·· وبالأخرى منفضة من السلك الرنان ·· لم تفته آهة تصدر وهى تتابع أداء مطرب ، أو ارخاء جفن على ترنيمة حب ، أو حزن ·· ولايمكن أن تنمحى صورتها وهى تضرب بردفيها الغليظين وتفرقع بأصـبعيها السـبابة على دقات مطربة شـعبية ·

وقرر أن يعاود المحاولة للمرة الثالثة ، وهو حتى هذه اللحظة لايستطيع أن يدرك ما حدث وتساءل فى دهشة : كيف تعامل كل هذا الزمان مع القطار ، ثم يعجز عن ركوبه الآن ! أتراه كان منوما طوال هذا الزمان الماضى !!

كان الوقت الذى ذهب فيه الى المحطة وقتا ميتا ، واستطاع أن يدلف داخل العربة ، بل ويجلس مرتاحا ، لا يذكر أنه بذل مجهودا يذكر هذه المرة ، الفرصة مواتية والمرأة تنتظر ، والطريق لايستغرق ساعتين ، جاء مقعده بجوار امرأة تستند على حافة نافذة مفتوحة ، كان كوعها مدببا ، ومسودا ، وعضلات اليد مشدودة ، تحرك رأسها تواءما مع نغمة مفلوتة ، أثاره أن تمط جسمها فى حركة صعود وهبوط أمال رأسه اليها ، زاحمته رغبة فى رؤيتها ، هذا الساعد الأنثوى لا يكون الا لرجل ، لابد أنها تعمل ، وتعمل ·· وتصدر قدرا هائلا من الصخب هى الأخرى وحين أمال رأسه كانت قد اعتدلت ، وعاد الذراع راقدا على صدرها المكتنز · ثم فتحت حقيبتها ، وأخرجت مرآة ، وســوت شعرها ، وضغطت شفتيها ، ومسكت زجاجة عطر صغيرة ، ورشت العطر على الصدر ، والعنق ، وتحت الابط ، وتحت البطن ، واعتدلت · وصوبت عينيها الى بعيد ·

اكتأبت ملامحه ، وبدا الضيق واضحا عليه ٠٠ فانسل هاربا، ونزل ، مسكته أنفاسه المتلاحقة وشدته ، ونز منه عرق غزير ٠ ولعن الرائحة وصاحبتها والقطار وسائقه ٠ كيف لامرأة أن تتعطر برائحة كتلك ؟ ٠٠ يعلم أن الرائحة الطيبة ترطب الأنف فالقلب ٠ فما بال هذه الرائحة تقبض النفس وتلوى الصدر !! ٠٠ كثيرا ما نبه امرأته الى نوع العطر ٠٠ ولكنهن فى هذا الزمان ما عدن يفرقن بين عطر القلوب ، وعطر العرق الغزير ٠٠ امرأته كانت مغرمة بالرائحة، بانسكاب العطر ، بلون فريد من العطر يدير الرأس ويبعث على الغثيان ! ٠٠نبهها كثيرا الى تغييره بل اشترى لها عطرا محببا له ٠٠ كى تستخدمه ٠٠ ولأنها تطيعه ، ولا تعصى له أمرا ، كانت تفرغه فى الخلاء ليظل عطرها يجوب الفراغ ويملأ البيت كله ٠ كان يحمله معه دوما دون أن يدرى ، فمن تكرار العطر وكثرته فقد حاسة تمييزه ٠٠ زميلاته حين كن يشـــاهدنه صباحا ، يضحكن ويملن برءوسهن ، ويغمزن بعيونهن ٠٠ وكثيرا ما نبهه رئيسه الى تغيير نوع الرائحة فهى لا تليق بمثله ، ولا تتلاءم مع جو العمل ٠٠ ويغمز بعينه الى النسوة ٠٠ ويظل هو حائرا مندهشا من سلوك زميلاته ، ورئيسه فالرائحة خالية تماما من أية أنوثة بل هى مقززة ، يعلم أنها مقززة ، وان كن لا تبدين ذلك ٠ تبدلت البسمة الى امتعاض خفى !! ماذا كانت تبتغى امرأته وهى تسكب العطر على ملابسه !٠٠ وهى تنسحب ـ بعد أن نهرها فى قسوة ـ آخر الليل لترش العطر بعد أن تتأكد أنه نائم !! ٠٠

ومشت الرائحة معه ، دخلت معه ، وخرجت معه وعلقت بكل شىء ، ولأنه تعودها افتقد حاسة التمييز ٠٠ ولكنه هذه المرة لايقدر على نسيانها ٠٠ كلما تذكرها شعر بغثيان يقبض على حلقه . وهب ضاجرا ، واقتحم غرفة النوم ٠٠ كانت زجاجات العطر ساكنة كأنما تتداخل ٠ وفى هدوء ساكن ٠٠ أخذها وأفرغها كلها فى حوض المياه ٠ فى ذلك المساء بعد أن فرغ من العطر ، شعر بأن ثمة

ريحا تنساب في البيت تحمل نوار البرسيم ، ورائحة الحقل ـ حث خطاه الى الشرفة ـ رأى نتفا من السحب البيضاء تتجمع ٠ وأحس ببرودة خفيفة تكاد تلسع الجلد ٠٠ جاءه الخريف مزينا بروائح الحقول الناشفة ٠ أوصد الباب ٠ ولبس « روبا » ثقيلا ٠٠ كم طالت لياليه فى أيام الخريف !! كان يجلس فى البهو الواسع على أريكته المفضلة ، وتحت النافذة مباشرة متنعما ، فى الهزيع الأخير من الليل ، بهبات ريح تحمل نسائم ليل يقترب فجره ٠ مستمتعا بلحظة نادرة لا تقطعها امرأته ٠٠ نفس المكان ، وذات الأريكة ، والليل يرخى من حوله أستار الصمت ، وهو مبهور بسكون الخريف وبرودته ٠٠ الساعة لا تدق ٠ معطلة ، والثلاجة بيضاء مصمتة ، مخلوع سلكها بالليل وموصول بالنهار تكاد من صمتها أن ترتكن على جدار كالح ٠٠ بهتت ألوانه ، كأنما كان يسرق انشـــغاله ليتســـاقط ، واتخذت المقاعد ذات الرداء القطيفى الرمادى هيئة جذوع نخل متراصة ٠ ولاح الصوان وبداخله تطل المعادن البيضاء عبر زجاج مغبر ، كمرآة أدارت وجهها فى عتمة مقبضة ٠٠ وانكسار الظلال على الصوان طمس واجهته وأغطش لونه ٠٠ لم يبق واضحا أمامه سوى شاشة التلفاز ، الأشكال تتبدل ولا صوت ٠٠ اقتربت الاضاءة من الظلال ، وكأنما الظل يخنق الضوء والصوت معا ٠٠ وبدت فى عينه ملامح الأشياء بقعا من الليل ٠

ظل جالسا فى مكانه لا يتحرك ، وهو يشاهد الرجل العجوز على الشاشة ، يمر أمام الباب ٠ وهو يقبض على عصاه الرمادية ، وهو يحكم اغلاق صديريته ، وهو يرفع رأسه الى أعلى ، وهو يثبت عينيه على نافذة البناية العليـــا ٠٠ العيون منطفئة ، والجفون مرتخية ٠٠ وكانت هى ٠٠ تتساند على جدار النافذة ٠ وتنظر اليه ٠٠ والعيون منطفئة والجفون مرتخية ، كان كل منهما ينتظر

الآخر ٠٠ ظل العجوز يمر أمام الباب وينظر الى أعلى ٠٠ والمرأة تتساند على جدار النافذة وتنظر الى أسفل ٠٠ وهو على أريكته ، تحت النافذة مباشرة ، يتابع المشهد بانبهار شديد ٠ وتولاه العجب ٠٠ وشرع يتمتم : لا الرجل صعد ولا المرأة نزلت ، وأخذه النوم عميقا ٠٠ عميقا وهو لايزال يردد ٠٠ لا الرجل صعد ، ولا المرأة نزلت ٠

●

- نشرت بمجلة اكتوبر يوليو ١٩٨٨ ٠

انكسار الضوء

- ١ -

كان كل شيء هادئا ·· الطرق ممتدة وواسعة ، والجزيرة خضراء مترعة الخضرة · ورجل المرور يقف على يمين الاشارة ، ويرفع يده اليسرى فى الاتجاه المقابل ·· كان الاطار بين يديه لا يزال يرتعش · والنغم الموسيقى ينساب من فتحات الراديو هادئا مؤثرا ·· والعين تهوم فى البعيد ·· والقلب ـ وأذنه تتلقى النغم ـ يرتجف وجدا ·

أخرج من صندوق العربة زجاجة عطر ·· لاصقت العربة الرصيف ·· ثم انثال العطر رذاذا ·· أغمض عينيه وغام ·· كانت النسمة رخية وأصابعها تمتد فى زحمة الهوس المتفجر من العين · ألقت بالزجاجة ومرت فى وداعة فرطبت قلبا يحترق ، وأسدلت على العين سترا شفيفا لا يخفى حمرة القلب ، ولا يمنع سخونة الدم · ود لو يسحبه من الذاكرة ويحييه ·· لم تفته عين رجل المرور وهى ترمقه فى تفحص ·· أغلق باب العربة ، سحب المفتاح · دسه فى جيبه ، نظر الى العربة ، والى اللوحة ، والى زجاجة العطر ، والى رجل المرور ·· ثم رفع رأسه الى بناية شاهقة ·· ومضى متجها اليها ·

- ٢ -

وهو الآن لا يصدق أنه يقف أمام الباب · هذا المكان الذى تراءى له يوما بعيدا ومغرقا فى الوهم ·· يقف الآن فى مواجهته ، منتظرا لحظة زمنية واحدة تفصل بين خطين دقيقين مبهمين ومتوحدين ·· لحظة ويتحقق من هذا الوهج الشفاف الذى يسيطر عليه ويأخذ وقته كله · ووعيه أيضا ··· فمنذ أن رآها وهى تسير ماضية كالسهم ، رخية كالنسمة ، وضيئة كالنور ، فواجه كالوردة ، حتى أدرك أن هذا الشىء الذى لا يستطيع أن يضع يده عليه ويلمسه ، قد واتاه وأضحى قريبا منه ·· والوجه الوضىء اللامع الراشح بجماله يفرش حسن ملامحه ويأكل بنوره ما يقترب منه ·· ولكنه يقترب ، يظل يقترب ·· وها هو الوجه ذو الأنف الدقيق ، يقف على جسد فارع ، ممتلىء بأنوثة يعجز الثوب عن لمها وسترها ·· ويقترب ·· ومن يعشق رؤية الجمال ولا يقترب ؟!

فى لحظة الاقتراب يتوارى الوجه ·· توارى وخلف موجة أثيرية تعبق المكان وتضمخه · والوردة الحمراء لا تزال مغروسة ترف أوراقها رفة النسيم ، وتضحك رائحتها فيمشى العطر فى المكان ·· ويذهل ·· لم ير فى حياته وردة دسمة اللون ، عميقة الرائحة ، تتيه فى اختيال أثيرى كتلك الوردة ·· ويقترب منها ، حتى كاد الأنف يلاصق القلب ·· قلب الوردة ، وفى لحظة انفصال الأنف ، لحظة أن امتلأ الأنف وارتوى فابتعد موصولا بخيط دقيق شفيف ·· رآه ·· رآه للمرة الثانية ، رأى الوجه المضىء صغيرا ، مصفرا بورق الورد ، ومزينا برائحة حمراء تنبعث من شفتين حمراوين حمرة الكريز المقطوف لتوه · وجاءه الذهول هذه المرة ضاغطا وثقيلا ·· ظل صامتا لا يتكلم ، جامدا لا يتحرك ·· انطبقت ملامحه ، وتمشى على الوجه امتعاض وهول ، ووقف اللسان فى التجويف مرتخيا ، وظلت عيناه مرتبطتين

بالوجه وجه المرأة التى فتحت له الباب ·· كان مبهوتا · كيف لم يتأكد من الوجه قبل أن يصعد البناية ويدق على الباب ؟! · ولكن الجسد الفـارع الذى يعجز الثوب عن لم أنوثته ·· كان هو ·· هو ·· والرائحة التى تضوع منهـــا وهى تسير كالسهم أو فى رخاء كالنسمة ·· هى ·· هى ·· رائحة الوردة الحمراء · لايمكن أن يخطىء الرائحـة ·· انهـا معه تلازمه ·· وهى الآن قابعة فى العربة ·· ولكن الوجه الذى رآه مختلف ·· هذا الوجه المراوغ الذى يتلبس الجسـد الفارع الجميل ، والرائحة الجميلة ويدخــل فى النور ويغتســل ·· ما باله اللحظة يخطىء ؟أجاءه الخطأ وهو فى لحظة استحواذ الوجه عليه وتمكنه منه ؟ أم أنه لا يجب أن يكون له شبيه فيتعالى ؟؟ ·· والعين المتسائلة من وراء فتحة الباب تقلق ، ولسانه يعجز عن أى تبرير ·· فتمتد اليد وتصفق الباب فى قوة ·· ويظل هو جـامدا ، ثم تأخذه قدماه الى أسفل ، درجة ، درجة ، حتى تلقى به الى حافة الشارع الغاص بالوجوه والأيادى والأجسام ·

- ٣ -

تنزلق الغلالة الشفيفة ، ويتلاصـــق معها ، يختلط الجلد بالجلد ، كان يأتيها تائها وحائرا ، لم تدفعه الرغبة أو الشوق ، أو استثارة شىء يلبد فى ذاكرة الحس ، كان يقدم على الفعل فى بلادة ·· ولكنه هذه الليلة يدرك أن شيئـا مبهما وغامضـا لم يتعوده ·· يحدث أمامه · رآها ·· امرأته ·· تسوى الفراش فى طقوس رتيبة ، المخدات الصغيرة فى الأركان ، والســتارة الحمراء المزينة بورود بيضـــاء تتـدلى فوق رأس الفراش ، ورائحة عطر نفاذة تنبعث من الأركان ·· والليل الغاطس فى ظلمته ، تحرك موجاته « لمبات » ركنية صغيرة ، تبعث ألوانا مختلطة بين الأحمر والأزرق ·· والشعر ينســدل على الأكتاف ·· وما رآه يوما

الا مزموما فوق قمة الرأس ، والقرطان الصغيران يلمعان فى احمرار مصفر ، ولمعان جلدة الوجه يشى بأن أصابع مدربة جرت عليه ·· ولكن ·· العين مختلفة ، ··· العين تختلف هذه المرة ، ·· أين الانطفاء من الوهج ؟ والتحجر من خبطات الجفون حياء ؟؟ ·· وانحسار القميص عن الصدر وكل الظهر ·· وما كان يرى الا ثوبا خشنا يسجن الجسم ويزمه ؟! ·· ثمة موسيقى لا يعرف من أين تهب ·· تنساب فى رقة وهشاشة ·· تدغدغ الحس وتنقل الروح الى عالم خفيف ، يقف على حافة جدول تترقرق مياهه وهى تتسلل عبر الورود والشجر ··· ظل قلبه قائما ·· كيف يطمئن ·· ولم يكن يسمع الا دقات الهاون ، وخبطات الطبلة ، وصدى المنفضة يزعق عاليا فى ضجيج يومى ، حتى اذا ما استكانت قليلا من وقع الدقات ، امتدت يدها الى آلة التسجيل لتدس فيها « شريطا » لمطربة شعبية ذاع صيتها هذه الأيام · وهو يرمقها بركن عينه · يتلوى جسدها مع صراخ المطربة وآهات الناى ونفخات المزمار ·· يرمقها ثم يهملها فتمتد يدها مرة ثانية ·· فيعلو الصوت ويعلو فوق كل شىء ·· ويتلوى جسدها عنفا وهوسا ·· ويضطر ·· ففى كل فعل معها يضطر ، حتى يخرسها لاهثة وحتى لا يسمع فحيح الصراخ ·· ولكنها هذه المرة تختلف ·· تختلف تماما ·· حاول أن يعرف ، ولكن الغلالة تنزلق ويتلاصق معها ·· تمتد يده لتزيح الشعر المسترسل فوق الوجه · ينهض قليلا ليتملى الوجه ، هذا الوجه الوضىء المشع نورا ، يتلألأ ضوءا ، ويتبدى اختيالا ·· هذا العصى الأبى ، الجامح الرامح ، أمامه وفوق فراشه ، وعلى مقربة من لمسات أصابعه ،وملامسة شفتيه · وتتمشى أصابعه فى رهافة مدغدغة ، ويستريح الوجه بين كفيه ، ويستريح الوجه فى وداعة وارتخاء·· ويقبض عليه ، يقبض عليه ·· هذا الهارب دوما ، صاعد القلب ساخن الحس ، راعش الدم · كان الوله ينساب تيارا دافقا لم يعهده يوما فى حياته · هذه الليونة الطرية تتماوج مع لمحات

الوجه المعطر ضوءا ٠٠ أدرك لحظتها أنه جمع فى يده كل أصوات البلابل ، وكل روائح الورود ، وكل نعومة المخامل ، وكل الأضواء المستورة ٠٠ فى اللون الأبيض ٠ هذا اللون المخادع الذى يقهر الألوان ٠٠ وها هى تنساب رقيقة ، شفيفة ، وديعة ، تفرش الوجه بكل ظلال الألوان المخبوءة ٠ كل المخبوء يتبدى ، ينصهر الجامد ويشيع رقراقا كموجة فجرية ، وهى بجانبه تشهق يتقاطر الدمع من عينيها ، وتشهق ٠ هذا الانسياب العاطفى لم تحسه يوما ٠ كان يأتيها باردا ، أو عنيفا ، فما باله الليلة رهيفا كنسمة الفجر ، نافرا كدفق النور ، باهرا كشلال من الموسيقى !! تتماوج البسمة ٠٠ وتخرج من غفوة النشوة وذوبان الحس ٠٠ وتهمس :

ــ أنت الليلة تختلف !!

كان لا يزال قابضا على الوجه ٠٠ بين أصابعه ، وكانت عيناه تغيبان فى أغفاءة شاردة وحط على ملامحه رضى واطمئنان٠٠ وكانت الفرحة تتخايل عليها وتتمايل ، وظلت تهمس فى هشاشة صوت لا يدرك ٠٠ أنت الليلة تختلف ٠٠

وهو يسحب نفسه شيئا فشيئا ، يرفع الرأس ، ويفتح العين ويرى الوجه ٠٠ ويتبلد ، ٠٠ كانت امرأته قد أرخت ملامحها ٠٠ وراحت فى غفوة عميقة ، ٠٠ وتبلد ، نتر نفسه فى عنف ورجفة ، ألقى على امرأته نظرة ممرورة ٠ وارتدى ملابسه ، وانطلق ألى الخارج ، وصراخ المطربة الشعبية المنبعث من المسجل يطارده ٠ والوجه المراوغ يقتله !!!

- ٤ -

تنساب أمامه المياه رقراقة ،وتنحدر فى قناة ملتوية حادة الحافة ، ثم تتعكر وهى تختلط بماء البركة ، وتتناثر خيوطا

فضية حين يخبط الأوز بأجنحته ·· ود لو يخلع ملابسه ويغوص سابحا الى القاع ، فمنذ أن خلع ملابسه على شاطئ البحر من سنين ، وهى ملتصقة بجلده لا تنخلع الا حين تشرع امرأته فى تشغيل الغسالة ·· لحظتها يتحامل على نفسه امام نظرات زوجته ، ويشد السروال ، وينظر الى ملابسه الداخلية ، ويتحسر على افراط زوجته فى الغسيل ، ويرى أنها - أى الملابس - لا تزال صالحة ليومين أو أكثر ·· ولكن أن يخلع ملابسه ويتعرى ، ويخبط بذراعيه الموج ، ويغوص كسمكة ·· و ·· و ·· يغوص كسمكة وراء المحار ذى الألوان المختلفة ، والسمكة البهية ، تواجهه ولا تخشى·· هنا يظهر اللون المخبوء ·· لم يعد الأبيض اللون السائد ، ·· ترى الحقيقة باهرة ملونة بالأصفر والأحمر والأزرق ·· تتداخل الألوان نسيجا لونيا رائع المنظر ، ويبقى لكل لون مساحته ، حتى وهو يتداخل يظل محافظا على نسبته وان تبدى شبحا لونيا · والسمكة تنزلق فى مسارات ضوئية ، وترعشك بالنور واللون ، تأخذ منك هذا التيار السيال فى جسدك ولا تشعر به · تسحبه ذبذبة راعشة فلا تملك الا أن تنساق وراءها ، وأن تتعرى ليتلقاك موج القاع الأكثر برودة والأوضح مجالا لرؤية الضوء ·· لأنك كلما تغوص كلما تقف على مواطن مظلمة تتراكم فيها العتمة وتتمدد ·· وتظل السمكة البهية المختالة بنفسها وجمالها وألوانها تسحبه شيئا فشيئا ·

ولكن الأوزة بخطبتها القوية وبانطلاقتها المشرعة تشق صدر الماء ، أضاعت من عينيه تلك السمكة البهية المختالة بنفسها والتى سحبت من جسده جذوة ظلت تتحرك ولا تبين ·· أمال جذعه والتقط حصاة ورماها بالماء ، واقترب ، أحدثت الحصاة تموجات رقيقة على السطح ، أدهشه أن يرى القاع خاليا من أى جمال ، فانسحب مهموما ومدهوشا ، أرعبه هذا الصمت

الذى يتغلغل فى سـكون ويتسلل اليه رويداً رويدا · يحس به يرعش اللحم متسـللا دون أن يقوى على ايقافه ، شىء ما يفرز فيه هذا السائل الرقراق الشفيف الذى يحيل الجسد هالة من الظلال ·· ويظل يتجول خفيفـا ومهموما ·· أدركه خوف مبهم فالتصق بساق شجرة ، كان اللحاء خشـنا مدببـا ، فأضحت ملامسة الجلد له مؤلمة ·· باغت نفسـه وجرى ·· وهو يجرى أدرك أنه يجرى وسط الموج الأخضر فخفف من عدوه ، تمتعت عيناه بالورود والزهور ، وسقطت على مسامعه وشوشات الأوراق وترانيم العصافير · وامتدت يداه تلامسان الثمار ، ومشت أنامله على فتحات المناقير تنساب موجا من النغم ، وتفتقت بين راحتيه قشرة الرمان ، ولاح الحب الأحمر مدمما كالعقيق ، وازداد الفتق حتى وصـل الى القلب ·· كان محاطا بغلالة بيضـاء ، تفصـل تجويفا عن تجويف ، وتتمدد الغلالة وتتسع ، وأنفاسه تتلاحق ، يقترب فى رعشة الرغبـة · ورهبـة الخوف والغلالة البيضـاء تتسع ·· وأنفاسه تتلاحق ، وعيناه يتفجر منهما الينبوع المستور المستكن وهو يرى بمجامع عينيه ، ملامح الوجه تتشكل على رقائق الغلالة ·· ها هو الوجه الوضىء يتبدى ·· ويترنح ، لم يقو على المواجهة ، ولا على رؤية المستور والمخزون ·· ويترنح ·· ثمة يد بيضاء تمتد لتسنده ، تأخذه تحت جناحها وتضمه ، وتقعد به على خميلة من العشب الأخضر ، تفرد ذراعه ، وتفرك عينيه ، وتقرص خده ، وتحدق فى عينيه ، هذا الجسم المخملى ـ نفسه ـ يتمدد بجانبه · تتمشى يداهـا برائحـة الورد المنساب ·· من زجاجة بللورية ـ على الوجه الغافى ـ يحاول أن يخـرج الى النور فلا يقوى ·· من يقدر على مواجهة الوجه وهو فى لحظة ضعف عافية ·· يحاول أن يخرج الى النور ولكنه بكل ما يختزنه من تيار سيال فى مجرى الوجدان ·· يتلقف اليد الممدودة ويقبض عليها ·· يقبض عليها ويتضرع اليها ·

ـ الآن ‥ لن تهربى منى !!

ويطوح برأسه يمينا وشمالا، ويخلع عينه من كل المرئيات، ومن كل الألوان ، ويتغنى صادحا :

ـ أنت اللحظة قمرى وضوئى ‥ لن أفرط فيك ولو أخذت عمرى ٠

ويضـحك الوجـه الوضىء فيغمر المكان نور باهر متعدد الدرجات ‥ لا سيطرة فيه اللون ‥ يضحى الكون كله ، سماؤه وأرضه ، متشحا بغلالة النور ‥ يرتسم عليها ملامح الوجـه بعرض السماء وعمق الأرض ٠

ويفتر الثغر عن لفظ مضىء :

ـ ولكن عمرك يهمنى ٠

وتأخذه سحابة بيضاء فيهمس :

ـ أيهمـك أمرى ؟!

ويتلاعب الوجه بالنور فيأسره :

ـ انه أنا ينساب فيك ولا تدرى ٠

وتنعقد الدهشة فوق الوجه كله :

ـ وكيف أعثر عليـك فى ؟

وتنداح فوق ماء العين ظلال من الضوء :

ـ عندما ينير داخلك ويشتعل ٠

ويصرخ فرحـا :
ـ هو الآن يشـتعل ٠

وتبتســـم :
ـ ولذلك رأيتني ٠

ويتفجر غضـبا :
ـ ولكنني الآن لن أتركك ٠٠

ويضحك الوجه ، وتتلألأ الضحكة فوق الغصون شريانا من النور ٠ وتمتد يداه بكل قوته وتمسـك ٠٠ وتضغط ٠٠ هذا الوجه ، وهذا الجسد الفارع ، أمامه ولصق جلده وبين أصابعه لن تضيع مني ٠٠ ويضغط ، ويظل يضغط ، وتمتد أصابعـه تحاصر الكتف ، والذراع ، والصدر ، وتدفن الوجه في الوجه ، ويضغط في قوة ـ الآن لن تضـيع مني ـ وتتقلص أصابعـه ، تتقلص ، على حين تندس في باطن اليد زجاجة من العطر ، عطر الورود المصفى ٠٠ تلك الرائحة التي تغلغلت في مســامه ٠ حين فرك عينيه ، وفرد أصابعه ، لمح الزجاجة ، اجتاحه هول ، خلع عينيـه عن حافـة القناة ، وأدار بصره في كل اتجاه ٠٠ بحث عنه ٠٠ فلم يجده لم يجد للوجه أثرا ٠٠ صاح فارتجت الأشجار وأدلت الطيور أجنحتها ٠٠ أصابه غم غويط فانكفأ على المقعـد يبـكي ٠

– ٥ –

كان يسير في الشارع يخوض الزحـام ويطوى المكان ٠٠ وكانت أقدامه تتعجل المسير وتدخل الى الاقتحام ٠٠ لم يعـد

هدفه أن يرى المرئيات كما كان ، حينما استحوذت عليه يوما بعد ما يخرج من عمله ·· كان يقضى وقته فى الشارع ·· كان الشارع هو الملاذ ، وهو الملجأ ·· يتصفح فيه الوجوه ·· به اقتتان بالوجوه ·· مغرم بتحديد طبيعة الشخصية عن طريق ملامح الوجه ·· بالرغم من أنه وقع فى سوء فراسته وهو يختار زوجته ، جاء الوجه مدببا مسحوبا عند الذقن ، عريضا عند الجبهة ، بارزا على حدود الخدين ، ظن فيه خيرا ، ولمح ـ كعادة تصفحه للوجوه ـ ثباتا وانفساحا ، وأدرك أن ثمة عالما فسيحا وراء اختياره ·· ولكن الزمان عاكسه ·· حمل الوجه طابع امرأة عنود حادة المزاج ·· ولما وقع فى سوء اختياره ·· عاود الخوض فى الزحام ، والركض فى الشوارع ، وتصفح الوجوه ·· من جديد ·· فلعله يقع يوما على سر سوء اختياره ·

ولكنه اللحظة مشغول ·· دهمه الوجه الوضىء ، ونسجت الرائحة حوله قماشا من عطر الورود · ولم يعد قادرا على رؤية أى وجه ·· أو التصفح فى أية ملامح ·· وكان اذا اضطرته الصدفة أن يرفع رأسه عند مستوى الرؤية ، كان يغفى العين ، ويرخى الجفن ، اتقاء وخوفا ، فما يدريه لحظتها أنه لن يأتيه ـ فى تلك الغمضة ـ كاسحا وهادرا · فالوجه الوضىء هذه الأيام ·· يكثر من الظهور والاقتحام · كيف يتواصل معه وسط هذا الحشد من الناس ؟ وكيف يكون موقف الناس لحظة أن يعتريه الذهول وتنضح من عينيه النشوة ؟ ·· لم يستبعد أن يذهبوا به الى مكان لايداع المخبولين ·

أخذ حذره وهو يمشى ، الرأس منكفئة على الصدر ، والعينان لاصقتان بأسفلت الشارع · والذهن واع تماما ·· وهو يكبت رغبة فى رفع الرأسه خشية أن يراه مترقرقا على أحد الوجوه ·· ثم ينسل منه مخادعا ·· ويبقى له القامة الفارعة ، فهو لا يدرى

لم يحط دائما على القـامة الفارعة ؟ ولم يختار الجسد المتفتق الذى يعجز الثوب عن لمه ؟ ٠٠ انه واع تماما لخدعاته المستمرة ٠٠ لن يحتك بأحد ٠ سيتجنب كل أنثى ، ولو كانت عجفاء القد ٠ فهو يصر ان ظهر له هذه المرة أن يقبض عليـه بكلتا يديه ٠٠ ثم يحدث ما يحدث ٠

هو أو الوجه ، كلاهما لا يستقيم ، واحـــد فقط ٠٠ صمم أن يضع نهاية لهذا الوجه المارق المخادع ، انه نشوته ، ولكنها النشوة الناقصه ٠٠ وتقف امامه بكل جسدها ، يرى الظل على الاسفلت صغيرا ومحدبا فتيقن آن صاحبة الظـــل عجماء ، وهو لا يحب هذا الصنف من النساء ٠٠ ويمد يديه ليزيح الجسد من أمامه ، فهو مشغول ، وليس عنده وقت ، فهو ذاهب الى صديقه الرسام ٠٠ ومد يده ليدفع الجسد ، دون أن يرفع بصره ، فمازال يخشى أن يداهمه ولو على جسد عجوز ٠٠ ولكن الجسد يفاجئه ، كان الجسد مدكوكا ومبروما ، سحب بصره من الأسفلت ، الى القدم فالساق فالخصر ، فالبطن والصدر ٠٠ ثم ٠٠ وقف مذهولا ، ومدهوشا ٠٠ انه يترقرق فى بسمة مترعة بألق الفجر ونور الضحى ٠ لم يمهله ٠ لم ير الملامح المرتخية ٠٠ الوضيئة وهى تواجهه كأنما تدعوه ٠ ولم يمهله ، لم يحاول أن يقف طويلا أمام نظرة العين الراشحة بكل جلال النشوة وموجات الحب ٠ ولن يمهله الوقت طـــال والناس ينظرون ، والشفتان المكتنزتان مر عليها عابرا ، كأنمـــا يخترق سحابة من العقيق مسها سيال كهربى فأرجف القلب والحشا ٠٠ وما أمهله ٠٠ انقض عليه ٠٠ انقض عليه قابضا ٠٠ لا يريده أن يفلت منه ٠٠ أيأتيه وسط الحشد ويلازمه ، وهو الهارب المخادع فى الخلوة ؟ ٠٠ طمأن نفسه بأنه ربما يود أن تكون ولادته الحقيقية وسط الناس ، ليشهد الناس جميعا على حلول الاتصال واكتماله ٠٠

خاف أن يلاطفه فما زال لابدا فى أعماقه كيف أنه يأتيه داهما ويفر منه كسحابة هاشـــة ٠

وتظل يداه قابضتين على الوجه ٠٠ ويروح الجسد من هول المفاجأة مترنحا ، فيسنده فما عادت وسائل الوجه المربكة تنطلى عليه ٠ وتمتد يداه لتحتضن الجسد المبروم كله ، يحوطه خوفا وطمعا ، يتعرى فيكسوه ، فلا يصح للساق البيضاء اللامعة المخروطة أن تتعرى لأحد سواه ، هو أحق بها ، أليست ملكا للوجه ؟ وأليس الوجه يغزوه فى صحوه ونومه ٠٠ اذن ٠٠ فهى ملكه ٠٠ ما الضرر أن ينعم بملمسها قليلا ٠٠ على ألا يخدع فيفر منه ثانية ٠٠ وتمتد أصابعه لتكشف الثوب المزين بأوراق الشجر ، فيبدو الســـاق كغصن أترعه عرق الحياة ٠٠ ويزداد ضغطا وقبضا ، لم تخدعه أبدا تلك الأصوات الزاعقة التى تعلو من الجسم ، فمن يدريه ٠٠ فقد تكون حيلة من حيله الكثيرة ٠ هذه المرة لم تفته القبضة التى سقطت على رأسه ، أوجعته الضربة فادار رأسه ، فوجد الرءوس متلاصقة ، والأيادى مرفوعة والعيون يطل منها شرر كالنار ٠

تمعن فى الوجه فلم يجده ، أعاد النظر الى جسد المرأة فاحتواه ندم مرير ، نهض منكسر الخاطر ، تعلو وجهـــه كدمات زرقاء ٠ لم ينس وهو ينسحب فى ترنح جملة ظلت تطوف حـــول أذنه ، قبل أن تخترقه ، وتدميه فى القلب :

ـ دعوه ٠٠ انه مخبول ٠

- ٦ -

واقتحم عليه خلوته ، دخـــل دون أن يؤذن له ، فليس بين الأصدقاء حواجز ، وما يحمله من هموم فوق كل حاجز ٠ صديقه ـ

وهو يراه مقتحما ــ لم يعره اهتماما ، وظل يمارس عمله · فقد تعود منه في الأيام الأخيرة امورا تبعث على الدهشة . حاول أن يرجعها الى الخلاف الدائم بينه وبين زوجته ، ولكنه اقتنع أن ثمة باعثا مغايرا وراء سلوكه الذى يتصف هذه الايـام بالخروج على اطـار التعقل · ومع ذلك فلم يسعده أن يتركه فى ذهوله وحيرته ، وحركته الدائبة وتنفسه اللاهث وعينيه الحائرتين ، فغمس ريشته ووضع « البالوت » وأزاح قماشة رقيقة على اللوحة ، وتوجه اليه · كان ينتفض ، يهتز اهتزازا عنيفا أرعب الرسام · قاده من يده وأجلسه وصب له فنجانا من الشاى ، وقدم له لفافة دخان وسأله فى بلادة :

ـ خلاف جديد بينك وبين امرأتك !

ولكنه ظل صامتا ، ينظر اليه ، والدخان يتماوج فى سماء المرسم ·· لا ينطق :

ـ وتريدنى أن أتزوج !

وضحك الرسام ، وهو لايزال صامتا محدقا ، حتى خيل للرسام أن صديقه قد أصيب بمس · وكانت لفافة الدخان قد أتت على نفسها وشرع الوهج ينتقل الى الفلتر وجلد الأصـــابع ، وهو صامت ومحدق ، كان مستغرقا تماما فلم يشعر بلسعة النار · التقط الرسام الفلتر وهزه فى خفة وفى رقة محسوبة · وانتفض ، انتفض ونهض واقفا مرعوبا وصاح فى خفوت ممطوط واصـــبعه مشرعة فى الفراغ ·· فى تحد مرتخ :

ـ سأقبض عليك ولو على الورق ·

ارتاع الرسام ، فهو لم يألف من صديقه تلك الحدة المرعوبة والمصحوبة بنظرة غير محددة · واقترب منه · حاول أن يتلطف معه فبادره فى تبسم :

– أتقبض علي أنــا !؟

ودون أن يلتفت اليه ، أو يحرك رأسه ، أو يرخى جفنيه ، رد في بطء شـــديد :

– بـــل هو ٠
– هو ٠٠ هو من ؟
– الوجـــه ٠
– أى وجـه ؟

وصاح في عنف وحدة وتقلصت ملامح وجهه كله ، ووقف جفناه لا ينطبقان :

– الوجـه ٠٠ الوجـه ٠

هدأ الرســـام من روعه وأجلسه ، وقدم له ثانية فنجانا من الشاى الساخن وأشعل له لفافة أخرى ، أدرك الرسام أن صديقه يقع تحت وطأة أمر ما يثيره ويضغط عليه ٠ وحل صمت مطبق حتى ليخيل اليك أنك تسمع دبيبه في جنبات المرسم ٠ وتتابعت موجات الدخان في حبـــل متعرج وهو يلاحق تلاشـيها بعينين متسعتين ٠ حط السكون عليه فازداد دبيب الصمت ، واسترخت ملامحه وأسند ظهره ومد ساقيه ، وبدا كما لو كان في حالتـــه الطبيعيــة ٠

تحدث الرسام في نبرة حزينة ، وهو يحرص على أن يبعد عن مواطن الاثارة :

– منذ مدة لم تأت الى المرسم ٠

رشف من الفنجان رشفة · وسحب من اللفافة نفسا عميقا ، ووضع ساقا فوق الأخرى وأمال رأسه قائلا :

ـ جئتك لتساعدني ·

ـ فيم أســـاعدك ؟

ـ أن ترسم لي الوجه ·

مرة ثانية يتحاشى الرسام الحديث عن الوجه ، فهو لا يستطيع أن ينسى الهول الذي لاح على ملامحه وهو يصرخ ·· الوجه ·· الوجه · أي وجه هذا الذي يثير فيه هذا الهول كله ؟ ·

ولاذ بالصمت · انتظر أن يكمل حديثه ولكنه وهو الآخـــر لاذ بالصمت · واستغرقه شرود مباغت · فقام الرسام الى اللوحة ورفع عنها الغطاء ، وبدأ يتأملها ، يقترب ويبتعد وهو ـ وقد خرج من شروده ـ يتابعه ويتأمله ·· ثم نهض وتقدم الى اللوحة :

ـ جميلة ، ولكن اللون الأبيض يطغى على الكل ·

ـ اني أرمز به ·

وقاطعـــه في حـــدة :

ـ لا ترمز به لشيء · كيف يكون المخادع رمزا ؟ ·

ـ ولكنني أريد أن أحمله معنى ···

صاح في غيظ مدمدم :

ـ هو ظالم ، قاس ، طـــاغ ، يفرض ســـطوته على بقيـــة الألوان · يأكلها ، يضمها ثم يطويها ، ويخفيها ، ولكنهـــا ستظل موجودة ومستترة ·

ـ اللون الأبيض ٠

ـ الوجـــه ٠

ويقترب من الرسام ٠ يلاصقه ٠ يتودد اليه ٠ يلتمس منـــه أن يرسم له هذا الوجه الوضيء المخادع الذى لاتكتمل النشـــوة الا به ، هو الوصال ، والحياة ، والهجر ، والألم :

ـ أمعك صـــورة له ٠

ـ وما فائدتك لو كان معى صورة ٠

ـ وكيف أرســـمه ؟

ـ سأصـفه لك ٠

ـ ألا يستحسن أن تأتى به نفسه ٠

ويتحرك فى المرسم ، هائجا ، وصائحا ٠٠ مرددا ٠ آتى به : آتى به ! ٠ ويواجهه فى غضب وحدة :

ـ كيف آتى به وهو يترقرق كالموجة ، على وجه القمر ٠ أتستطيع أن تأتى بالموجة الرقراقة لترسمها ٠

ـ أذهب اليها ٠٠ أنا ٠

ويردد ٠ يذهب اليها ٠ هذا الرسام مخبول ٠ ويقف أمام اللوحة ، يخلعها فى عنف ويضع ورقة مكانها ، ويقبض بيد مرتعشة على الفرشـــاة والبالوت ٠ ويتقدم الى الرســـام والدمع ينعقد فى المآقى ، ثم ينداح قطرة مكتنزة بالألم ٠

ـ ارسمه ٠ أرجوك أن ترسمه ، فربما أستطيع أن أقبض عليه ولو على الورق ٠

أخذ الرسام الفرشاة منه • ووقف أمام اللوحة وقال له :

ـ اذن صفه لى ، وأمرى الى الله

تنحى جانبا ، أدار ظهره الى الباب ، واقترب من النافذة ، همس فى هشاشة لاتسمع :

ـ مم أبـدأ ؟

ـ كمـا تريـد •

حاول أن يبدأ ، فاحتار • ممم يبـــدأ ؟ • فليبـــدأ من قمة الرأس • من الشعر ، مثــلا • ثم ينزل درجــة درجة ، حتى الذقن فالرقبة • ولم لا أبدأ بما هو مثير ومهم • بالعين مثلا ؟ أو الشفتين ، أو •• حاول أن يدقق فى شىء مما كان يراه فلم يستطع • واستعصى عليه الأمر • كاد ينفجر غيظا وغضبا • بل كاد يتمزق • امتدت يداه الى قميصه ، فتقطعه وتبعده عن جلده الذى يلامسه ، وينز منه عرق غزير كشلال • وفى اللحظة التى بدأت الأصابع تبعد ياقة القميص •• لحظة أن بدأ القلب ينغل بالحقد على هذا الذى يتأبى على الذاكرة •• ترقرق كموجة فجرية على لوحـــة أمامه •• وقف مشدوها لا ينطق ، جاءه الغيث بعدما شعر بالجدب والموات •• ظل واقفا لا يتحرك ، راعش القلب لا يهتز ، يصيح داخله ولا ينطق •• وانسحب من داخله صـــوت يتندى بالفرحة ويشى باللذة ، وحبات العرق تنعقد على جبينه كحبات الثريا •

ـ ارسم ولا تقاطعنى •

واحتار الرسام • تملكته حيرة فنية باهرة لم يمر بها من قبل • كيف يجسد كل هذه المعانى الجميلة فى لوحة ؟ • كيف تكون العين نافورة ضوء تشع بالألوان السبعة ، لا يطغى فيها لون

على آخر · كيف تجمع العين كل الألوان ؟ بأى لون ؟ وبأية فرشاة . وبأى وهج فنى تتحول أغصان السوسن النائمة الى أهداب للعيون ، تقف على حواف بحيرة تستقبل موجة ضوء فجرية ·

ووقف مأخوذا · حاول أن يوقفه فلم يستطع · كان شيء ما يشده الى اللوحة يقرأ ما فيها دون أن يدرى · أدرك أن صديقه فى غيبوبة ، غيبوبة اتصال نادرة · بدا له صديقه نفسه موضوعا ممتازا للرسم · فكر فى أن يغير اللوحة ويرسمه هو · تلك لحظة نادرة لا يجود بها انفعال على طول ما رسم وشاهد · ولكن الصوت يأتيه خافتا وراقصا · خيل اليه أنه يأتى من خلف اللوحة · لم ير فى اللوحة جديدا ، حتى تجذب صديقه كل هذا الجذب ·· وعاودته الحيرة · كيف يرسم انثيال المعانى الشعرية فى خطوط وألوان · الشعر الأصفر المنساب على الجبين والجانبين يحمل معنى اقتراب الشمس من خد الأرض البكر الخجول · لا تنس أن الشعر يتموج بموج البحر ، مترع بما فى جوفه من لآلئ وأصداف · تذكر أن فى القاع عتمة ، لكنها عتمة ما قبل الفجر ، تذكر ذلك وأنت تلمس بفرشاتك التقاء الشعر بالجبين ·

ويعلو اللهاث ، ويطفو الانبهار · وينبهر الرسام بما يرى · تلك حالة لا تحتاج الى فرشاة ، انها فى حاجة الىمن يلتقطها فورا على فيلم طويل · وتقف الفرشاة بين أصابعه عصية · من أين له بلون يجمع عصير الكريز ونزف الدم ليرسم الشفاة · الشفاة لابد أن تكون حارة وأنت تراها · حرارة دم منزوف فى فرحة ، يتألق فيه لون الكريز واستدارته · وليكن الشق الدقيق بين الشفتين رهيفا كحد الصراط ولكنه لا يحجب لآلئ البحر · وتأكد تماما أن البسمة رقيقة كأوراق الورد ، معطرة كأريـــج الزهر ، متموجـة كسحابة تحمل الغيث للمعطشى ، هاشـــة لا تدرك كنسائم ليل

قمرية . وامتدت يد الرســـام الى علبة الدخـــان ، سحب لفافة وأشعلها ، كانت أنفاســـه عميقة عمق حيرته . تتابعت موجـات الدخان ، ثم ضغط اللفافة بعصبية ، وهو يمسك بالفرشـــاة فى لهاث فنى مبهور .. وهو يحاول أن يجعل من الخد مرفأ للأمان .. تأتى الى الخد ، فيعطيك الأمان بعد رحلة طويلة فى بحـر ناء من العذاب والمكابدة ، تحملك موجة ، وتأخذك أخرى حتى تصل الى المرفأ الحضن ، فتجده منتظرا ، أحمر حمرة التفاح وأنت تطبع فوقه قبلة الوصــول .

ويقف الرسام صامتا ومذهولا . والفرشـــاة بين أصابعه تتحرك ، وكأنما موجة أثيرية ، تهب عليه فتأخذ معها ما تريد من معان ، ومن خطوط وألوان .

وقفت الفرشاة عند طابـع الحسن .. وطابع الحسن كمـــا تعلم هو لؤلؤة الوجه . اذا ما نظرت اليه خيل اليك أنه ينبوع للفضة . بل هو نبع للحيـاة تتدفق منه المياه صافية كالبللور . لا تنس أن تعطى طابع الحسن معنى العمق ولون الفضة وصفاء الماء .. فهو فى استدارته كون بأكمله .. ثم ثم .. وأنت .. الفنان .. ثم .. هو نقطة .. ارتكاز .. الذقن .. الذقن . فى انســـحابها الى .. العنق .. ثـم .. و .. تذكـــر .. و .. ثـم .

ويسقط مغشيا عليه . ويسقط معه الرسام متعبا ولاهثا ، ومبهـــورا .

- ٧ -

حين جاءه رجل الشرطة وقع فى حيرة شديدة ، فهو متيقن من أنه لم يفعل شـيئا يحاســب عليه القانون ويقتضى الأمـــر

بالاستدعاء ، ليس له اهتمام بالسياسة ، ولا يتدخل فى الشئون الخاصة ، ولم يتسلق يوما درجات هرم حتى يخشى من يقبع على القمة أن يزاحمه ، وهو متأكد تماما أنه لم يقم بفعل فاضح من نفسه أو من غيره ·· فلم الاستدعاء ؟ ·· أتكون المرأة قد أسرعت وقدمت بلاغا ضده ·· ولكنه يذكر تماما أنهم اكتفوا بضربه ·· والضرب فى المجنون حرام ·· أهى مشاجرة جديدة من امرأته مع جارتها التى تغار منها ·· كلما تضحك المرأة لى أو منى أو تبتسم ·· تغلى امرأتى غليانا ، وكأنها تشعل فى داخلها أتونا من نار ·· لم ينس كيف سحبت امرأته جارتها من شعرها ورمت بها على درجات السلم ·· ولولا لطف العشرة وتواصل الود ، لما قبل زوجها أن يكتفى بأن نعالجها على حسابنا الخاص ·· ولكن امرأتى هذه الأيام ، تغالى فى الرقة ، وتمتاح من نبع الحنان الطارىء ما يجعلها مشغولة بتجديد الطقوس الليلية منذ أن ظهر الوجه ·· وتخدرت بلحظات الدفق الرعاش ·

ـ فيم الاستدعاء ؟

أخرج المحقق من درج المكتب صورة صغيرة وأراها له · هب واقفا ومذهولا ، مد يديه كلتيهما وفرد أصابعها كلها ، وأمال جذعه ، ووقف لسانه ولم ينطق ، وظل معلقا بين شفتين مفلوجتين :

ـ أتعرفها ؟

كيف لا يعرفه ! ·· ولكنه الآن جامد جمود قطعة حجر : أين الرقرقة والوضاءة والنبالة ؟ أين العطر الذى يمشى فى المكان ويعطر حتى الفراغ نفسه ! أين ؟ ·· أين ؟ ·· ولكن المحقق لم يمهله :

ـ أتعرفها ؟

ـ أعرفه ·· نعم أعرفه ·

ـ ولكنني أسـأل عنها ٠

ـ وهل لى حديث غيره ؟

بدا للمحقق أن الأمـر يـدور فى مدارين مختلفين فاقترب منـه وهمس :

ـ ماذا نعرف عنهـا ؟

ـ عمن تتحـدث ؟

ـ عن المرأة التى خطفتها ٠

ـ اذن فأنا متهم بالخطف ٠

ـ انها اختفت فعلا ٠

ويزداد اقترابه منه ، وهو يزداد انكفاء ودهشة :

ـ و ٠٠ وكنت آخر من رآها ٠

ـ رأى مـن !

ويصيح المحقق فى حـدة :

ـ لا تناور فقد رآك رجل الشرطة وأنت تنطلق من سيارتك الى البناية المواجهة ٠

ـ أهو يسكن هنـاك ؟

ـ قلت ان المخطوفة امرأة ٠

ـ ومن أدراكم أننى كنت هناك فعلا ؟ ٠

ويسحق المحقق سيجارته ، ويحتسى الرشفة الأخيرة من فنجان القهوة :

ـ انهـــا تحمل نفس ملامح اللوحـــة التى تضـــعها فى السـيارة ٠

ـ نفس الملامح !

ـ نفس الملامح !

ـ ويسكن فى البناية المواجهة للميدان ٠

ـ وتسكن فى البناية المواجهة للميدان ٠

ويهب فجأة صائحا فى هوس :

ـ ولكننى تركتها ٠٠ تركتها لأننى لم أره ٠٠ نعم لم أره ٠٠ فهو وجه ٠٠ وضىء ٠٠ وحلو ٠٠ ولكنه مخادع ٠

ويتحرك أمام المحقق فى شرود واضح ويتابع :

ـ تتصور أنك قريب منـــه ، حتى اذا هيىء اليـك أنك قادر على مسكه ، فلت منك ، وترك لك جســـما مغايرا تماما ٠

ويشير الى المحقق فى جد واضح :

ـ انه سرعان ما يترك الجسم فجأة ٠

ـ أكنت تحبهـــا ؟

ـ كيف لا أحب من يعطينى لحظة الحب والاتصال ٠

ـ أنت الأن تعترف أنك تحبها ٠

ويحتد المحقق ، ولكنه يتراخى شيئا فشيئا أمام هذا الذهول الراشح من العينين :

ـ أتصـــفه لى !

ـ أصـــفه لك !! ٠٠

ـ انه الضوء المنساب من موجة قمرية ليزيح ظلال تتراكم فوق النفس ٠٠ هو النسمة الرطبة في ليلة صيف حارة ٠٠ هو عينك ٠٠ حين تفقد عينك ٠٠ هو القـــدرة على الاختراق لترى ما تحت القشرة ، وما داخل اللحاء ٠٠ اصفه لك !! ٠٠ كيف أصف البسمة تكتنز فى الشفتين ثم تتماوج ٠٠ فى تجاذب حتى تتلاحق موجاتها الى مسام جلد الوجـــه الوضىء ٠٠ مســـامه المخمليـــة ٠٠ هو ٠٠

ويقف فجأة ، جاءه النداء المرئى ، فوقف فجأة ٠

ظلت ذراعه معلقة فى الهواء ، وفمه نصف مفتوح ، وأصابع يده الأخرى فى حركة مطوية ، وعيناه مصبوبتان على زجاج المكتب ٠

أدار المحقق رأســـه بينه وبين الزجاج ٠٠ داخله ذعر وقتى بأن ما يراه خارق للعادة ، وصادق فى نفس اللحظة ٠

كان الوجه يترقرق خلف الزجـاج ٠٠ جاءه اللحظة مداهما ٠٠ كعادته يأتيه فى لحظة الفقد والشعور بالضآلة ٠٠ يأتيه يصب النور فى العين فتقوى ، ويرش العطر على الروح فتنتشى ٠

كان الوجه يضحك ، فضحك ٠ غـــرق فى الضحك وظل يضحك ٠٠ حتى أخرسه الوجه فأمال جذعه اليه وهمس :

ـ انهم يبحثون عنها ٠٠ ما علمت أن لك جســـما ٠٠ وان دخلت كل الأجســـاد ٠

ويضـــحك ٠٠ يضـــحك فى نبرة حزن تســـحب الدمـــع من العين :

ـ كيف أخطف من لا أقوى على مســـكه ٠٠ كيف تقبض على الحب ، أو الفرح ، أو النشوة أو الغيبوبة ٠

ويرفع يديه فى ضراعة ، والمحقق مذهول ٠٠ مذهول لدرجة الذعـــر الحقيقى :

ـ كيف تفعل بى كل ذلك ٠٠ لقـــد أوصلتنى الى الشرطة فماذا يبقى بعد ؟ ٠٠

ويضحك ٠٠ يضحك الوجه زاعقا ، يضحك طفلا ، ويبتسم قمرا ، ويضىء فجرا ٠ وينتفض المحقق ، الضحك يملأ الغرفة ، يملأ الفراغ ، وينسحب الوجه شـــيئا فشيئا ٠٠ ينسحب كما تنسحب حواف الدوائر لموجة عاتية ولكنه ينكفىء ، ينكفىء على الزجاج فى نشيج حاد ، وهو يصيح :

ـ لا تتركنى هذه المرة ٠٠ لا تتركنى ٠٠

ـ ٨ ـ

كتب المحقق فى محضر التحقيق ٠

بالرغم من أن الحالة تقع تحت طائلة القانون ، الا أن المشرع فاته أن يستحدث وسيلة ما للوصول الى كيفية القبض على دليل الاتهام وهو يسرى مع الدم فى وجـــدان الحالة ٠٠ ولذلك أمرنا باقفال المحضر ، وانهاء التحقيق حتى يتسنى لنا الكشف يوما ما عن دليل الادانة الوحيد ، وهو يتستر فى وجدان الحالة ٠

- ٩ -

أخرج زجاجة العطر وضغط عليها ، فتناثرت رشات العطر فواحة برائحة الورد ‥ وغمرته موجة فرح فجرية ‥ فأدرك بداية حلول الاتصال ‥ فمضى منطلقا اليه ‥ ولم ينس فى لحظة انطلاقه أن يعلق على صدره اللوحة ‥ فمن يدرى ربما ينخدع الوجه ويتلبس جسمه ٠

●

– نشرت بالأهرام أغسطس ١٩٨٩ ٠

الحلم يأتي غداً



- ١ -

كان قد مضى عليه وقت طويل وهو يحمل نفسه على الصبر ، ويمنيها بيوم جديد تتغير فيه الأحوال وتستقيم ، ولكنه — لحظة أن عاد من عمله الشاق وجسمه ينقذف الى بيت الايواء فى أطراف المدينة — فوجىء بمشهد غاية فى الايلام · الزوجة تنحنى على الابن فى توجع ، والولد الصغير ممدد على الأرض لا حراك فيه ·· هزه التوجع ، وأدهشه حركة السكان التى لا تهمد ، فانقبض صدره وارتجف القلب · وصله صوت متعجل :

— أحمـــد الله ·

بنصف وعى شاهد المرأة تقتحم الجمع ، وتنحنى على الولد ، وتعريه تماما ، ثم تصب عليه الخل ، وتدعك الجسد ، كان الجسد متخشبا وهى تميله على جنبه ، وعلى بطنـــه ، وهى تضغط على صدره ، وتشد ذراعه وأصابعه · حتى رمش الولد بعينيـــه · زغردت واحدة فى الطرف فرحا بدبيب الحياة العائد ·· ولفت المرأة الولد باحكام ، ونظرت الى الأم · طلبت كوبا من الليمون الساخن ، ولكن الأم ظلت ساكنة تنهمر الدموع من عينيها مصحوبة بشهقات متواصلة ·· رمحت واحـــدة من الجمع ، وأتت بكوب من الليمون ·

احتضنت المرأة الولد ووضعته فى حجرها ، أسندت رأسه وقربت حافة الكوب من شفتيه الناشفتين ·· وانزلق الليمون قطرة

قطرة ·· وبدأ الدفء يسرى فى الجسد · أبقته فى حضنها حتى اطمأنت عليـــه ، وابتسمت حين راحت الأنفاس تتردد فى هدوء وانتظـــام ·

وضعته على الحصير ، ومهدت له فراشـــا ، وتلت المعوذتين ثم نهضت وأحضرت ورقة وبدأت تقص وتقطع حتى شـــكلت من الورقة شكلا لعروس ·· وحين مسكت بالابـرة تخرق جســـد العروس ، كان الصمت حافلا بالدهشة ، والعيون تتابع غرز الابرة فى القلب ، والعين والفخذ والبطن والأطراف ·· وطافت عيناها وهى تبتسم ترقيه ، مستعيذة بالله من الشيطان الرجيم ومن عيون الواقفين ، وكل من رأى الولد ولم يصل على النبى ·

كان الرجل لابدا فى ركن الحجرة ، يثيره هذا الاهتمام الكبير بولده · وتساءل فى بلادة ·· ماذا كان يمكن أن يفعل لو كان من الأغنياء !! أكان يمكن أن يشاهد هذه اللمة التى تأخذه بعطفها ·· وزهت شفتاه بابتسامة طارئة ·· فبعد لحظة واحدة ·· ستنشب خناقة على دورة المياه ، أو على حنفية الماء الرئيسية ، ويتحول العطف الى عنف مسلح بالناب والظفر ·· وراحت الابتسامة المدهوشة تقبض على ملامحه حتى صكه صوت المرأة تطلب منه عود كبريت ، تلجلج حتى كاد يقع · أخرج علبة الكبريت وأشعل العود ·· وطالت النار جسد العروس ·· فتمزق وتقطع وتفحم ولفظ النفس الأخير ·· فأخذته المرأة وسحقته ، ثم تناولت الرماد بين أصابعها ورسمت على جبهة الولد خطين متقاطعين من السواد ·· وذرت الباقى بنفخة قوية مفاجئة ·· وطمأنت الوالدين وانسحبت ·· وهرولت النسوة وراءها ، وفرغت الغرفة ·· وبقيت الأنفاس كالصـــدى يملأ جـو الغرفة ويقبض عليه ·

- ٢ -

كانت أنفاس الولد تتتابع فى انتظام ، فارتاح صدر الرجل ، واستبشر خيرا · وقبع فى ركن الغرفة وأشعل سيجارة · وظلت الأم بجانب ولدها وعينها على وجهه المبتل بالعرق ، ونظراتها ·· لا تكف عن متابعة الصدر فى حركته الهادئة ·· وتنبهت الى زوجها فنهضت فى خفة ، ومرقت الى باب الغرفة وأسدلت الستارة ·· فبيت الايواء لا باب فيه ولا حاجز ·· الكل يرى الكل ، والكل يجرح الكل ، والكل يصمت على فعل الكل ·

حين جلست بجانبه ، طلب منهـــا أن تصنع له كوبا من الشاى ، وشغله هاجسه اليومى الذى دام عشر سنوات ·· ظل خلالها يتمنى أن يعثر على مكان يقيه من عيون الآخرين · ولما طال به التمنى استسلم لواقعه ، وأصابه هم غويط لاحقه طويلا ·· واحتسى الشاى بنشوة أثارت زوجته ·· فابتسمت عيناه ، واحتد وجه الزوجـة ·· وأزاحت منديلهـــا فلاح الشعر ملموما ، ثم سرعان ما انهل كسبائط الصفصاف ، فتعجب من جماله وسيولته بالرغم من ندرة المياه وشحتها ·

باحت عيناه بالرغبة فأسرعت هامسة :

ـ لاتزال العيون مفتوحة ·

تنهد فى ألم ثم قال فى صوت ممرور :

ـ متى يشعر المرء بالأمان فى بيته ؟

سحق السيجارة بأرض الغرفة وحدق فى الفراغ :

ـ كل يوم نصبر أنفسنا ، حتى مل منا الصبر ·

ـ وهل هنـــاك غيره ؟

– نعـــم ٠٠ الموت ٠

خرجت الكلمة من فمه باردة مدممة ، فأسرعت تطيب خاطره :
– غدا سيكون أفضل من اليوم ٠

ضحك فى عفوية وقال :

– لم لا ٠٠ قد يكون الغد أفضل ٠٠

مد كفيه وأحاط وجه امرأته فتداخلت ضحكتها مع ضحكه وأشرق وجهها بالجمال :

– غدا ستفتح الدنيا كنوزها لنا ٠

ابتسمت وظلت ترنو اليه وقلبها ينبض بحب حقيقى :

– لا تنسنى وأنت تغرف من الكنز ٠

– كيف أنسى عمرى ؟

وتهدجت أنفاسها وأوشكت على البكاء :

– سأشترى لك ملابس لم تلبسها امرأة ٠

ضحكت زاعقة فجفل الولد فى نومته :

– وسأشترى لك الكردان والخلخال والغوايش ٠٠ وحلقانا كهيئة القلوب ٠

ارتعشت ، ومشت أصابعها على الصدر والمعصم والقدم :
– لا تحلق بى بعيدا ٠

صـــاح خافتا :
ـ ذكرتنى ٠٠ سأبتاع لك الجناحين ٠٠ تطيرين بهما ٠

فغرت فاها ، فلاحت الدهشة مغموسة بفرح صادق :
ـ وهل أقوى على الطيران ؟
ـالخروف كاملا من أجل خاطرك ٠
ـ ولكنك نسيت شيئا مهما ٠

أدرك المغزى ، فصمت ، ثم بهرها فجأة بحديث لم تتوقعه :
ـ هذا أمره سهل ٠٠ فغدا سيقوم الرجل ذو القلب الكبير بتوزيع الشقق على المحتاجين ٠
نسيت نفسها ، وخبطت على صدرها وقالت :
ـ انه الكنز الحقيقى ٠

تابع فى جد صـــارم :
ـ انهم يبنون فى كل عام مائة ألف شـقة ، ونحن هنا من عشر سنوات ٠٠ الناتج مليون شقة ٠
ـ أصحيح ما تقول !
ـ أعهدت على الكذب يوما ٠
ـ ما عهدتك الا صادقا ٠
واتخذ الرجل هيئة الجد ، فقست ملامحه :
ـ لا تخبرى أحدا بذلك ٠
همست فى دلال :
ـ علينا أن نستقبل الغد بما يليق به ٠

ـ غدا تفتح الدنيا كنزها الضنين وتحصلين على شقة .

وارتج سكون الغرفة تحت وهج الآمال وثوب الضحكات الخالصة .. وسبحا معا فى مياه معتقة بأمل يترسب فى العمق .. كانا مسلوبى الارادة وهما يتخطيان حدود الممكن الى جزر بعيدة ، تترصدها لجة عاتية .. وأسلما نفسيهما للتيار ، مسحورين بهذا البريق المتأجج الذى ينبثق من شطآن الجزيرة ، البريق الذى يخطف العين ، ويأسرها ، ويبقيها على اتساعها وينزلق الى القلب فيرعشه وينفضه ، ويمسك الدم فيه .. وأطلق القلب دماءه ومشط الخيال ضفائره ، ففقدا المناعة تماما .. وانطلقا ينهلان من المجهول الآسر المعطر برائحة جديدة نافذة ، خيوطا مرعوشة بجدلاتها معا بوهج الأمل الذى طاف عليهما بغتة ، فحطما ـ فى لحظة انعتاق نادرة ـ قوقعة الأيام الرتيبة ، وفتحا محارة الحلم ، ودلفا اليها باحثين عن وهم جميل ، ولؤلؤ ثمين .

- ٣ -

فى الصباح الباكر ويده تمتد الى الستارة تزيحها فى طريقه الى عمله .. فوجىء بالسكان يقفون وفى أيديهم الأطفال ، اندهش للحظة ، وظن أن أمرا ما قد حدث ، فلا يخلو يوم من حدث . لمح المرأة الطيبة التى عالجت ولده بالأمس ، فاتجه اليها مندهشا وخائفا . قبضت المرأة على يده . هم أن يتحدث فضغطت يده بشدة وابتسمت . نظر الى الجمع فرآهم جميعا يبتسمون . أمضه قلق مباغت فنزع يده بقوة وصاح فى حدة :

ـ ماذا جرى !

ظل الجمع ينظر الى المرأة ويبتسمون ، وراحت المرأة تنظر الى الرجل وتبتسم :

ــ أحدث شيء !

تغضن وجه المرأة ، وتغيرت نظرتها ، فخشى على نفسه من تعاويذها :

ــ يا خالة ٠٠ كأنكم تضحكون منى ! ٠

ربتت على صدره فى تودد :

ــ نحن لا نضحك منك ، وانما نفرح معك ٠

ــ من يعيش عيشتنا لا يفرح ٠

غضبت المرأة فزامت الوجوه ٠ طوحت بيدها وفردت أصابعها الخمسة فى وجهه :

ــ عشنا معا عشر سنوات على الحلو والمر ٠٠ أتحب أن تستأثر لنفسك بالحلو وتتركنا للمر ٠

أطل ولده الصغير من وراء الستارة فجرت اليه وحضنته وحملته فى حنان :

ــ ان لى فيه أكثر مما لك ٠

ــ أنت الخير والبركة ٠

قالت المرأة فى حسم لا تراجع فيه وهى تحدق فى قوة :

ــ خذنا معك ولا تخل بنا ٠

أتقوين على عمل البناء

رفعت صوتها فى ميوعة ونحت الولد جانبا وقالت :

ـ بناء !! اننا نعرف أين نذهب ٠

ـ انني سمعت بأذني أنهم سيوزعون مليون شقة هذا اليوم ٠

صاحت النسوة وأيديهن تقبض على أكف الصغار :

ـ خذنا معك من أجل الأطفال ٠

أدرك الرجـل الموقف ، فلقد سمعت المرأة حديث الحلم بينه وبين زوجته ٠٠ أراد أن يفهمها الأمر فأصرت على أن تمضى معه حيث الرجـل الكبير الذى سـيوزع الشقق على الغلابة ٠٠ وتناهى الى سمعه الرجاء والتوسل ٠٠ وبدا للحظة خاطفة أنه مهم ، بل قد لا يقل أهميـة عن الرجل الكبير ٠٠ وأنه قد آن الأوان ليقطف ثمرة الصبر ، ويسكن فى غرفة تحمى أسراره وتصون مشاعره ٠٠ وطالت رأسه حتى شاهد الأعناق المصلوبة ٠٠ ونادى على زوجته :

ـ احملى الطفل واتبعيني ٠

وأفسح الجميع له الطريق ٠٠ ونزل الدرج درجـة درجـة والأقدام وراءه تدق الدرجـات فى تعجل وثقل ٠٠ ومضى الجمع يقطع الطريق الى قلب المدينة صـوب الجانب الشرقى ٠٠ وكان الجمع منظما ، وأصر الجمع على أن يمضـوا زحفا على الأقدام حتى يشعروا بحلاوة الثمرة وهم يقطفونهـا بعد عناء ٠ كانت شمس الصباح تطل عليهم فى رجفة مصفرة ٠٠ وقرروا أن يتركوا بطن الشـارع للسيارات ، ويكتفوا ـ كعادتهم بالحافة ـ سـاروا على الرصيف فى تتابع ٠ ولم يخل الأمر من دهشة ، فاقترب البعض منهم ٠٠ كانت الملامح مشدودة ٠ والأطفال يبكون والنسوة يلوحن بالطرح السوداء ، والرجال كالرعاة ٠

وظلت المرأة تتبع الرجل مباشرة على حين مضى كالسهم رافعا رأسه ، ممسكا بذيل جلبابه ، يخترق المكان يمينا وشمالا ، والمرأة تدفعه والجميع يندفعون • شاهد الطريق بعضا من الناس يهللون ويقتربون ويسألون •• صاحت فيهم المرأة أن ينضـموا ، فاليوم تنفتح أبواب السماء ويتحقق الأمل ، ويوزع الرجل الكبير المليون شقة •• وهرع الناس وتداخلوا وامتـد الجمع وطال •• وأبطأت السيارات ثم توقفت وزاحم السائقون الجميع ، وتدافعت الأقدام وثار الغبار وطمس وجه السماء بسحابة معتمة تخترقها بخيمات تشع بضوء الأمل وانعقدت القلوب بها متمنية أن تهطل خيرا يكفي الناس ويزيد •

وصل الطابور الطويل الى مشارف النيل • لم يبق الا أن يعبروا الجسر الذى يربط بين البر الغربى والبر الشرقى حيث قلب المدينة • ويا لفرحة الرجل الكبير وهو يرى الجموع تمد اليد ليعطيها مفتاح السعادة ، انه يومه الذى يحقق فيه وعده •

وقف الرجل على صدر الطابور فوقفوا جميعا ، وتسمر فى مكانه مذهولا •• حاول البعض أن يصـل اليه ، فمنعتهم المرأة قائلة •• انه الرجل ، ولا رجل غيره •• هو الذى أباح بالسر وهو الأمين عليه •• كان الرجل مذهولا •• وعيناه مصوبتان الى الجسر الذى بدا هوة سحيقة لم تبق منه الا قوائم كالشواهد • وصرخ الرجل فى غضب • أين الجسر ؟ •• أسرع وصعد على نتوء حجرى وواجه الجمع :

ــ لقد انهار الجسر •

صاح أحد الرجال :

ــ انها مكيدة مدبرة •

شقت المرأة ثوبها حتى بان صدرها كاملا ٠٠ ثم قالت في حزم :

ـ هيا الى الجسر الآخر ٠

وأخذت الجموع طريق النهر الطويل في اتجاه الشمال ، وتداخلت الأشجار من حركة الجمع الزاحف ، ولاحت مياه النهر لابدة ساكنة كأنما أصابها ذعر ، وأخذ الرجل يحدث نفسه بهاجس خفي :

ـ أيكون الأعداء قد دبروا لنا مكيدة ٠

سمعته المرأة فقالت :

ـ وهل للغلابة أعداء !

مد يده ولملم مزق الثوب عند الصدر وقال لها :

ـ احجبي صدرك عن العيون ، فلا زال فينا حياء ٠

ضحكت فضاع الصوت الضاحك وسط ضجة الغضب :

ـ ضاع الحياء في بيوت الايواء ٠

ولكنها ظلت تردد في حشرجة صوت بللته ملوحة العرق :

ـ هل للغلابة أعداء ؟ !

وضربت صدرها فجأة وقالت :

ـ لقد فعلوها اذن ٠

ولكزت صدر الرجل فكاد ينطرح ، وأشار الى الجمع أن يمضي ٠

سدت الهرولة مسامع الناس ، وسدت الأقدام منافذ الطرق ، ووصلوا الى الجسر الآخر ٠

كان الجسر الطويل العريض الفخم طللا من اسياخ الحديد ٠٠ وعواميد الأسمنت منكفئة يلطمها الموج من كل اتجاه ٠ وغلت الدماء في العروق المرهقة ٠٠ وقفز الرجل على سور عال ونظر الى الجمع ٠٠ كان الطابور طويلا طويلا ٠٠ وعيون الأطفال مذبوحة ، ووجوه النسوة مدممة ٠٠ وبريق لا يقدر العناء على طمسه يطل من عيون الرجال المجهدة ٠

صرخ في الجمع :

ـ ان الأعداء يترصدوننا ٠

وهلل الجمع وصاحوا في صوت واحد كالرعد :

ـ الموت للأعداء ٠

مد الرجل عنقه وزعق بقدر ما تواتيه حنجرته :

ـ لقاؤنا عند الجسر الأخير بجانب فندق النجوم الخمس ٠

وبقفزة واحدة كان بجوار المرأة ٠

كان الشارع ضيقا محصورا بين ضفة النهر الغربية والبنايات العالية على اليسار ، لم يتسع الرصيف الضيق لحركة الجمع فنزلوا الى بطن الشارع وكانت الجموع تحتشد وتتواصل وتتدافع ٠٠ بالرغم من مكابدة الزحام ٠٠ ومشقة الطريق وطوله ٠٠ فلقد ظل الجميع صامدين تحركهم الرغبة في مواجهة هؤلاء الأعداء الذين ينسفون الطريق الى قلب الرجل الكبير ٠

ثم تسمر القوم فجأة حين رأوا الجسر الضيق الصغير مهدما ·· وحديده القديم يغوص في النهر ، تبدو أطرافه المدببة كأشرعة غرقى ·

وقف الرجل في نبرة واطئة مجللة بالحزن :
ـ ليس أمامنا الا أن نجتاز النهر ·

حط صمت ثقيل له وخز الابر وحد السكين ·
ـ ولكن النهر عميق ·
ـ ليس أعمق من مأساتنا ·

صكت المرأة وجهها وقالت في عنف وحشي :
ـ أتظنون أنفسكم أحياء ·

أثارت المرأة كوامن النخوة فيه فراح لسانه يردد في صخب هادر :

ـ لتكن أجسادنا الجسر الذى نعبر عليه ·· وليمسك الرجل يد امرأته ، ولتضع الأم ولدها على كتفها ، ورضيعها على صدرها ·· والفتى يقبض على وجه فتاته ·· اننا ذاهبون الى عرس الأمل ·· هلموا ·· أقدموا ·· وأسرعوا ···

وخطا الرجل خطوته الأولى ·· وغاصت القدم في النهر ·· والمرأة بجانبه تدفعه ·· وظل يغوص ، ويداه مرفوعتان ·· حتى اختفت أطراف الأصابع ·· وبلع النهر الأجساد ، وأد الصرخات ، وقتل الرضع ·· واستبقى الجميع في قاعه البارد المظلم ·

ـ نشرت بالأهرام أغسطس ١٩٩٣ ·

قطع اللّسان



يا حاج على ٠٠

أنا أتيت اليك فى مسألة ٠٠

لا تطلب منى أن أجلس ٠٠ فأنا أعلم أن جلستك متعة ٠٠ وفيها لذة كبيرة ٠٠ ولكن الأمر الذى يشغلنى حد خطير ٠

لا أستطيع أن أنتظر الى أن تفرغ لى ٠

مشـــغول !

أنا أعلم أنك يا حاج مشغول ، وأن جلساءك كثيرون وأنهم والحمد لله من أعيان البلد ، ولكنهم يمكن أن ينتظروا ٠

كيف يا حاج ! ٠٠

أقول كيف ! الأعيان أعيان يا حاج ، ووقتهم ملكهم أما أنا وأمثالى فوقتنا ليس لنا ٠٠ انما نحن نساق بالسياط ٠٠ ليست سياطا من الكرابيج ٠٠ لا تندهش يا حاج ٠٠ رانما هى أمر ٠٠ انها سياط الحاجة ٠

ـ أنا يا حاج أجلس معكم !!

ليس لمثلى أن يجلس مع الأعيان أو يشرب القرفة بالقرنفل أو أن يستمع لفكاهة من فكاهات المجلس والتى كما يقال يظل الرجل يضحك لها حتى تخرج أحشاؤه ٠

– لا يا حاج ٠٠

الهزل في غير مجلسك ، وهل يطيب المقام بغير ضحكة هنا أو هناك ٠٠ الضحك يا حاج مسقى القلوب ، والقلوب تحيا بالذكر ومن دواعى الذكر البسمة والضحكة ٠ نحن فى زمان يا حاج نحتاج فيه الى نهر من الضحك يغسل أحزان النفوس وأنا بالذات يا حاج أحتاج الى أن أجلس معك وأتشرف بمجلسـك وأحوز على بركتك ولكن الحاجة شديدة والوقت يدفعنى ، ولا أملك أن أدفعه ٠

كيف يا حاج وأنت الرجل المبارك الذى يحل لنا المعقد من الأمور ٠٠ فقط أتركنى أقول ما يضغط على الصدر ٠

لن أطيل ٠ ! من قال أننى أطيل ٠ اننى حتى هذه اللحظة لم أدخل فى الموضوع ٠٠ سأدخل يا حاج ! فقط أسوق عليك النبى الذى وضعت يدك على شباكه أن تمهلنى قليلا ولا تسوقنى سوقا الى الكلام فأسرع ٠٠ فيضيع ما أريد أن أقوله لك ٠

– تقول الأمر وما فيه ٠

هيه يا حاج على ٠ ان الأمر والله محرج ٠٠ وأنا لا أستطيع أن أبسط الموضوع فى بساطة ، انه والله يمس القلب مباشرة ويمس أشخاصا هم بالنسبة لى كالجدار الذى يستند عليه السقف فلا يميل أو يسقط ٠٠ ومثلك يا حاج كالنهر يلقف كل شىء ويستر كل شىء ، وعندك تحط أسرارنا وهى تعلم أنهـا ماضية الى سرداب لا يفتح ٠ من أجل هذا يأتيك الناس يا حاج ٠

ابتسم يا حاج ٠ فوالله لا تتحقق البركة الا حين تبتسم ٠

أنت رجل من أولياء الله الصالحين ٠

حججت البيت وزرت نبيه ٠

ـ ومشهورا ! ٠

ومن قال أنك لست مشهورا ٠٠ ان المطايا تقف ببابك بالساعات ، على أمل أن ترضى لأصحابها بالدخول ٠

أعرف يا حاج ٠٠ وجودى هنا تفضل منك وذلك أمر لا أنساه ، ولا يمكن أن أقلل من أهميته ، ان ذلك يعنى أنك راض عنى ٠٠ وأن عينيك تجوسان داخلى وتكشفه ٠

ـ وما دخل عينيك ؟ ٠٠ كيف يا حاج ؟ !

وعيناك تبرقان كعينى صقر ، يرى فريسته على بعد شاهق ٠

لا والله يا حاج ما خطر ببالى أننا فرائس لك ٠ ولكن من أجل أن أوضح أن لك عينين ـ حماهما الله ـ من كل سوء ـ يلمع فيهما ضوء ينفذ الى الأعماق فيكشف ظلامها ويتحسس احجارها ورمالها ٠

لا تضحك يا حاج ٠

نعم ٠٠ نعم ٠ وكيف لا ٠٠ النفس كالصحراء فسيحة ومظلمة ، تتخللها الرمال كما تتخللها الجبال ، ويشق ظلامها نور النجم وضوء الشهاب ٠

اننى يا حاج ٠٠ نعم أنت الضوء الذى نأتى اليه ليفك ألغازنا ويكشف ظلام نفوسنا ٠

لم نعلم فى زماننا رجلا أعلم منك ٠

ـ أنا يا حاج ! ٠٠ والله ما سمعت يوما لما يقال ٠

ـ ما يقال !! ألا تعرف يا حاج ما يقال ٠٠ انه كلام خبيث ٠
لابد أن هناك من يحقد عليك يا حاج ٠ انني ما قابلت أحدا الا وأثنى عليـــك ٠

ـ كلهم ! ٠٠ نعم كلهم يا حاج ٠

وهل هناك من ينكر علمك الروحاني ، لكم شفيت المرضى ، وأعدت المسروق وزوجت العانس ، وأخرجت الثعابين من شقوقها ، وأولدت المستعصية وألنت الحديد وطويت البر وتغذيت بسمك البحر وببيض النسور على قمة الجبل ٠

ـ دعهم يا حاج يقولون ٠

انهم يغارون منك ٠

والله يا سادة عليكم على يمين ، انكم تجالسون عفريتـا من الجن ٠

لا تؤاخذني يا حاج ٠٠ فالأمر جاء دون أن أقصده ٠٠ فأنت والله مبارك من المولد حتى الممات ٠٠ ولكن ٠

لا تضحكوا يا جلساء الحاج فما قصدت تفكهة أو اضحاكا ، انما كان قصدى أنه فاق الجن في تخفيه وحيله ٠

ـ سامحك الله يا حاج ٠٠ أأنت محتال ٠٠ وهل يقوى مثلي على هذا القول ٠

أنا الرجل الضعيف آتيك لأستشيرك ٠٠ أفأسخر منك ٠٠ قطع لساني لو كان قصدى ذلك القصد ٠

حاضر يا حاج ٠٠ أدخل في الموضوع ٠٠ نعم سأدخل في الموضوع وهل أتيت الا لأدخل في الموضوع ٠٠ لقد تركت العمل وجئت الى هنا لأدخل في الموضوع ٠

لقد حاول الخفير اللسان أن يوقفني فلم أقف ٠ كنت متعجلا كي أحظى بمقابلتك وتفضلك بالسماح بالدخول لي ٠٠ وأنا أعلم أن المطايا تقف أمام البيت بالساعات ٠

ـ تقول هل قال لي شيئا ؟

وهل مثلنا يصدق ما يقوله يا حاج ٠

انه لسان ، الناس يسمونه باللسان ، فهو يمد لسانه فيطول كل شيء ٠٠ حتى زوجته وأولاده ٠

ـ تقول أطالك يا حاج !

والله لا أعرف ماذا أقول ولكن ٠

ـ أنا لا أخاف يا حاج ، وكيف أخاف وأنا في مجلسك ويحوطك الأعيان من البلد كلها ومن غيرها ٠٠ ولكنني فقط أتحرج ٠

أمني يا حاج وأنا أحكي ٠٠ أمني فلقد زرع اللسان الخوف في الناس ٠

ـ ما عاش رجل يخوض في سيرتك يا حاج ٠٠ نحن لا نسمح لأحد أن يفعل ذلك ٠

والله ان سمحت يا حاج لذهبت اليه وقطعت لسانه ٠

لا تبتسم يا حاج ٠٠ أنا عند قولتي ٠

اذن يا حاج فلا تؤاخذنى ٠٠ فالرجل يدعى أنك متزوج ٠

نعم يا حاج ٠٠ فالبندة كلها تعلم أنك لم تتزوج ٠٠ ولكن اللسان لا أدخله الله جنته يدعى أنك متزوج من جنية بيضاء كاللبن الحليب ، لا ترى الا والفجر يسلخ جلده من ثو بالليل البهيم ٠٠ يدعى اللسان ــ كب فى نار جهنم ــ أنه رآك تنتظرها عند الحد الفاصل بين الليل والضوء على سطح الدار ٠

كففت عن الكلام يا حاج لأننى خزيان ٠٠ كيف جرأ اللسان على هذا القول ٠

ــ ماذا قال ؟ ٠٠ تقول ماذا قال ؟ ٠٠

قال كثيرا ، أهم ما فيه أنك كنت تستقبلها عريانا ما يسترك ثوب ٠٠ رافعا ذراعيك ، منتظرا أن تأتيك وتطير بك الى البعيد لتحط فى بئر الساقية القديمة ٠

ــ نعم كذاب ٠

ومن يصدق هذا المعتوه ، ولكنه لسـان يا حاج ٠٠ وهل يصدق أحد أنك تخاوى الجن ٠٠ هو اللسـان ٠٠ نعم ٠ لم يقل ذلك سواه ٠٠ والأمر طال ٠٠ ولا أدرى لم تصبر عليه ! ٠٠

ــ نعم تؤذيه يا حاج ٠٠ وهل يستحق أمثال هؤلاء الا الايذاء ٠

سامحنى يا حاج ٠٠ فما سمعنا أنك آذيت أحـدا ، كيف والناس يأتون اليك طمعا فى البركة وشفاء الصدور ولكنه والله ركب رأسه وتمادى فى الغى ٠

لا تقل كيف يا حاج ٠٠ ولا تطالبنى بالمزيد ومعك الأعيان ٠

نعم أنت أمنتني ٠٠ ولكن كيف يلهق بي أن أعيد ما يردده اللسان على المقاهي في الأسواق ٠

يقول ٠٠ يقول كثيرا يا حاج ٠٠ لعنه الله ٠

هل يصدق أحد ما يقوله ٠٠ من أن عندك ثعابين مستأنسة تطويهـــا وتفردها كالحاوى وترشقها فى الجحور والشقوق ، ثم تدعوها فتأتى ، تتلوى وتنفث بالسحر ، وتبرك على فخذيك وتحيط برقبتك ٠٠ من يصدق هذا ؟

ـ أصدقه !؟ ٠

حاشا لله ٠٠ ومن يصدق هذا الأفاق ٠

اسمح لى يا حاج أن أخطئك وأمام الأعيان ، ان الولد يسىء اليك وان تركته حبط عملك ، وقل زوارك ، وشح رزقنا ٠

ـ ما دخلى يا حاج ! ٠٠ تقول ما دخلى !!

اننا نعيش من فضلك ، فالأمر يستدعى المعاونة ، ونحن نقوم بها ، ندل الناس عليك ونهتم بالمطايا ، أثناء حضـــور أصـحابها المجلس ، ونبعث بالنساء يبعن الزبد والجبن وسعف النخيل ، وبذور الكتان وعلف الخيل والحمير ، وزبل الحمام وريش البط ، والكحل المسحوق ٠٠ الأمر اذن يا حاج لا يخلو من مال وعطاء ٠٠ وهبات ٠٠ ومن يدرى يا حاج فقد تتم البركة وتحلو بنت من بنات البلد فى عين أحد الأعيان ، فيكون الفرح وتتم السعادة ٠

ـ ولا والله يا حـاج ما جئت من أجـل هذا ٠٠ ولا قصـــدته ولكنه جرى على لسانى ، فنحن لا ندرى يا حاج ، فى مقامك كيف يفلت منا اللســان ، اننـا نفتح أنفسنا أمامك ٠٠ وأنك تكشف ما فيها ، فتترك للنفس راحتها فيما تقول ٠

ـ المقصـــد !!

والله لقد أزلت عن صدرى هما كان قابضا عليه ، ما كنت أعرف كيف أحادثك ٠ !

والآن أرى أننى قادر على عرض الموضوع الذى جئت من أجله ، ونغص على حياتى ٠٠ وكاد أن يهدم الجدار الذى استند عليه ٠

أرجو أن يتسع صدرك يا حاج ولا يضيق بى ٠٠ فالى من نذهب اذا لم نات اليك ٠

ـ ولا والله لا أشرب لك قرفة الا اذا حدثتنى بشأنى ٠٠ فان صدرى يضيق بى ٠٠ لا حيلة لى يا حاج ٠٠ ومن يضمن أن ألقاك بعد ذلك ٠

سأقول ٠٠ بالله لا تغضب يا حاج ٠

ولكن ماذا أقول ٠٠ الأمر مخجل ٠٠ ولكننى سأقول ٠

ـ انما هو المنام ٠

نعم هو المنام ٠٠ الذى استيقظت منه مذعورا ، وأنا أردد ٠٠ اللهم اجعله خيرا ٠٠ منام لا يصح أن يحدث لأمثالنا ، تلهبهم سياط الحاجة ، هو ترف لا يصـــح أن نحلم به ، ولأنه كذلك أرعبنى وأخافنى ٠٠ كنت فى المنـــام عجيبا يا حاج ٠٠ لابد أننى كنت عجيبـا ، والا فكيف لى أن أتنزه فى حديقة برتقال وأجـوس فى مماشيها وأتمسح فى أزهارها ، وأتحسس حباتها وتحت جناحى امرأة حلوة ، بيضاء كاللبن الحليب ٠

هل أنا على وشك أن أخاوى يا حاج ؟ ٠

ـ زوجتى !!

تقول زوجتى ٠٠ لا والله لم تكن هى ٠٠ وهذا هو همى ٠٠ كيف تأتينى امرأة فى الحلم غير زوجتى كيف أسمح لنفسى أن أضبط متلبسا فى حالة غرام مستعر مع امرأة غير زوجتى ٠٠ أأكون على وشك أن أخاوى يا حاج ٠

لا يا حاج لم يضبطنى أحد ، ولكننى ضبطت نفسى فى الحلم وأنبتها ، كيف أسمح لنفسى بهذا الترف ، وأتجول فى حديقة برتقال ، وكيف أهوى امرأة غير زوجتى ٠

صحيح يا حاج أن زوجتى نكدية ، وسليطة اللسان ٠ وانقطع الحيض عنها وجف الصدر ، ولكن ذلك لا يعنى أن تفلت منى النفس وتعشق أخرى ولو فى المنام ٠

أتضحك يا حاج ٠

وهل فى قولى ما يضحك ؟ ٠

ان صدرى والله ضيق ٠ من يئول المنام الا أنت ٠

اننى مصغ اليك يا حاج ٠

ـ اقترب ؟ وهل هناك أعظم بركة من اقترابى منك ٠٠ فالتصق بك ٠٠ ذاك عين المنى ٠

ـ وكبدها أيضا ٠ !

نعم وكبدها أيضا وقشتها ٠٠ لا حرمك الله من البسمة ، وجعل أيامك كلها ضحكا ٠

أنا مصغ ٠٠ مصغ بكل ما فى ٠

ـ نعم حديقة برتقال ٠

لن أرفع صوتى ٠٠ أنا أهمس اليك ٠٠ أذنى فى أذنك ٠٠ لن يسمع أحد ٠

نعم حديقة برتقال !

وهل فى هذا شىء ؟ ٠

ـ حاقدون يا حاج ! وهل على مثلى يحقد أحد ، اننا نحفر بأصابعنا لنخرج لقمة العيش نسـد بها أفواه العيال وندخل بها ألسنتهم المدلاة ٠

ـ معاذ الله يا حاج ٠ أنى لى أن أعترض ٠٠ من أنا لأعترض ٠

اذا كان هذا تفسير المنام فهو حقيقة ٠٠ لا يخلو أحد من حاقدين ٠٠ الحقد قديم يا حاج ، منذ حقد ابليس على آدم ٠ وقابيل على هابيل ٠٠ و ٠

ـ أنا مصغ يا حاج ٠

وهل يثرثر أحد فى مجلسك وأنت قائده وصاحب جلسته ٠٠ أذنى على اتساعها ٠

ـ يا لطيف ٠٠ ذاك والله ما كان ينقصنى ٠

البنت التى جاءتنى فى المنـام حقيقة ٠٠ وأطاردهـا فى الحقيقة ٠٠ أيمكن أن يحدث ذلك دون أن أدرى ٠٠ اننى والله على وشك أن أخاوى !

لا تضغط بأصابعك على كتفى ، كفانى عيناك تنغرسـان فى أعماقى ٠٠ اننى أحس بهما يكشفان ما بداخلى من تلاطم واحتدام ٠

ـ غرام ٠٠ تقول غرام يا حاج على ٠٠ ولكن ٠

لا أعترض ٠٠ كيف يعترض مثل على مثلك ٠

كيــف يكون الغرام غرما ٠٠ والحب عما ، والقلب ينزف دمــا ٠

لا يا حاج ٠٠ لقد وافتك السجعة كما يســجع الحمام على أبراجه العالية ٠

حماك الله من كل ســوء ٠٠ دعنى أنفض ما على صـــدرى أمامك ٠٠ لا تحرمنى متعة أن استفسر عن كل شيء ٠٠ فمن يضمن لى اللقاء بك مرة أخرى ٠

ـ صادق يا حاج ٠٠ فالنفس فى المنام تأتى بما تعجز عنه فى الواقع ٠

ـ الى أين تذهب بى عيناى ! أهذا سؤال ٠٠ انها والله دائما مســافرة ٠٠ الا فى لحظات تواجدى مع زوجتى ٠٠ فهى هامدة جامدة ٠

امرأتى يا حاج جفت والعين كما يقولون مدرج الهوى ٠

وسفحه أيضا ٠٠ صـــحيح ما تقول ٠٠ فمادام هناك مدرج فهناك سفح ٠

هــوت بى النظرة الى الســـفح ، والله انك تســخر أحيانا يا حاج ٠٠ فهل كنت على القمة حتى أتدحرج الى السفح ٠

لا تقبض على هكذا ٠٠ ماذا تريد يا حاج أن تستخلصـــه منى ٠٠ والله لا ألف ولا أدور وانما أنت تداخلنى بنظراتك ، خفف الوطء قليلا فجسدى لا يقوى على روحك النافذة ، انهـــا تشكنى كالابر ٠

ـ أنا أعشق البنت !! ونظرتى لا تفارقها كلما مرت بالسوق وأعلنت عن بضاعتها ٠

ـ أهى بائعـة الكحل !! والله ذكرتنى يا حاج ٠٠ ان للبنت مشية تميل فيها ولا غصن البان ، ونظرة تسرق الكحل من العين ٠٠ أتراها يا حاج تسرق ما تبيع ! ٠

ـ اتأدب !! وهل أنا خرجت عن الأدب ٠

مجلسك يا حاج مصون لا يجرحه أحد ولا يمكن أن يخدشه ٠

ـ أمعقول يا حاج ٠٠ أنا أحب البنت ، والبنت تحبنى ٠٠ أتراها اذن كانت تتمايل من أجلى ٠٠ انها لئيمة ٠ كانت تضاحكنى تحت أشجار البرتقال وتقطف حباتها المدورة ٠٠ وتعصر زهورها ٠٠ كان وجهها مشربا بصفرة محمرة ٠٠ وكانت عيناها كحيلتين ٠٠ والله ان الوجه وجـه بائعة الكحل ٠٠ كانت تجذبنى وأتمنع ، تضاحكنى وأعبث ٠

ـ تتعرى وأخجل !!

والله ان ذلك حقيقة ٠٠ كانت المحبوبة تتعرى وأخجل ٠
ولكن كيف عرفت ذلك يا حاج ٠٠ وقد جاءنى فى المنام ولم ينكشف أحد على منامى سواى ٠

ـ هذا حق !

قطع لسان اللسان ٠٠ والله انه فيض من فيوضات الرب ٠٠ أنت مبرأ من العيوب وموصول ٠٠ وأنا محب ! ٠

أنا محب !! ربما ٠٠ الأمر واضح يا حاج ٠٠ لقد كشفتنى ٠

كلى لك ٠٠ أيمكن أن يتحقق ذلك ٠٠ وأضع يدى على جسم طرى بعدما مللت جفاف أم العيال ٠٠ ولكن كيف يا حاج والجدار الذى استند اليه سيهوى ! ٠

ـ ومن يعرف !

هل تحل بركتك ويصبح الأمر سرا لا يعرفه أحد ٠

ـ بسهولة ويسر !!

والله لو طلبت عينى ما بخلت ٠

ـ سأراها ! تقول اننى سأرها ٠ رأى العين ٠٠ اذن آن الأوان يا حاج أن أشرب القرفة الحراقة التى تدير الرءوس ٠

انتظر يا حـاج ٠٠ شربت ما فيه الكفـاية ٠٠ دعنى أرى يا حـاج ٠

اننى كملدوغ ٠٠ انها هى ٠٠ التى تحمل طبق الفاكهة ٠٠ البرتقال سيد الفاكهـة ٠٠ نفس القد المشوق الذى يميل كغصن البـان ، نفس الضـحكة فى العين ٠٠ والكحل على الأهداب ٠٠ يا ساتر المفضوحين استرنا ولا تفضحنا ، اننى لأرى الجسـد كله مفرودا أمامى لا تخطئه العين ولا يستره ثوب ٠٠ هذا فوق الطاقة ٠٠ انه المنام نفسه يا حاج ٠٠ ولكننى عاتب يا حاج ٠٠ كيف تفضح منامى على رءوس الأشهاد ٠٠ ان عيون الأعيان فى مجلسك يلتهمون الصدر والبطن والفخذ ٠

ـ لا تضحك يا حاج ٠٠ ان الأمر لا يحتمل ٠٠ اننى أكاد أجن ٠٠ المنام حرمة لى ٠

ـ أتقول لا يراهـا أحد سواى ٠٠ أصـدق ٠٠ أصـدق يا حاج ٠٠ حاشـا لله ٠٠ كيف على ذهنى ذلك ٠٠ أنت البركة كلها ٠٠ والفيض كله ٠

نعم اننى أصدق ٠٠ أنا فقط من يراها ٠٠ لقد أسديت الى خدمة ما تصورتها يوما يا حاج ٠٠ يا خفى الألطاف ٠

أتراها أيضا يا حاج ·· وأيضا أتيت بها خصيصا لى ·

أية خارقة تلك التى حدثت على يديك ·

ـ أريدها ! أتسألنى يا حاج ·· وهل مثلى يرفض ان أردت ·

ـ أنا مصغ يا حاج ·· أذنى تحت لسانك مباشرة وقلبى مفتوح لما تقول ·

ـ أصدق ·· أصدق !

هذا القد الفارع من نصيبى ·· والله ان حدث سأكون عبدا لك ·

ـ نعم ·· نعم ·· معاذ الله ·· ما أروعك يا حاج على ·

اعذرنى ·· فنحن هنا سواسية ·· هذا صحيح ·· لا عبيد ولا أعيان ·

أقبل عذرى · فأنت المعلم الأكبر ، وأنت قائد الجلسة وصاحبها ·· كيف انزلق منى هذا الوصف ·· نعم أنا مثلك ·· رأيتها ·· أنا مثلك يا حاج ·· خلاص يا حاج ·· أنت عبد مثلى تماما ·· بالله يا حاج لا ترغمنى على قولها ثانية ·· خلاص ·· خلاص ·· أنت عبد ·· أنت يا حاج البركة ، أنت مقرب القلوب ، وواصل المقطوع ·· وبئر الهوى · لا ينضب ·· انه بئر الهوى وليس بئر الساقية يا حاج ·· كما يدعى اللسان ·

ـ أنا مصغ يا حاج

كلى لك يا حاج ·· أذنى تحت لسانك ·· نعم ·· نعم ·

وهل هذا مطلب يا حاج ·· انه مطلب تافه ·

دعنى يا حاج ٠٠ لا تجذبنى اليك ٠٠ انى سأنهض اليه ٠٠ وحياة البنت الحلوة ٠٠ لن أشرب القرفة قبل أن أحقق مطلبك ٠

ـ مطلبها هى !! هى تريد ذلك ؟ ٠٠

اذن لن تقوم من مقامك يا حاج قبل أن آتيك بالخبر ٠٠ ولتنتظرنى تلك البنت الحلوة ٠٠ سآتيك يا حاج والقرفة لما تبرد بعـد ٠

والله انه يستحق ٠٠ انه يخوض فى البركة ٠٠ وينتقص من قدر الواصلين ٠٠ ويعكر صفو الأعيان ٠

والله لأقطعن لسان اللسان ٠

أنا ماض يا حاج ٠

وسآتيك بالخبر قبل أن تقوم من مقامك ٠

●

ونشرت بالأهرام يناير ١٩٩٤ ٠

الخدعة

حكت إلجارية للخادم فقالت :

ــ كان يوما عصيبا ·

أسند الخادم مكنسته واستمع اليها ·

انسابت الريح الى الأشجار ــ فى هذا اليوم ــ فتمايلت ، ومسحت برعشتها وجه الورد فاحمر · ثم مشت فى تأن وخلاعة فاهتز بساط الخضرة ، وتموجت مساحة النجيل ، وانحدرت الى المسبح فضحك الماء ، وتكسر الموج · ثم انسلت فى خفية فلامست الساق المفرودة فجفلت ، فخبطت الأميرة الماء بجذل ، وألقت بنفسها وغاصت الى العمق ·

جمعت فى كفيها الماء ورنت الى خيوطه الرفيعة تنسرب من فرجات الأصابع ، داعبها ضوء الشمس فعلت شفتيها بسمة فائرة ولوحت بيدها وخرجت · استنامت فى خدر المنتشى على أريكة مجدولة من وبر ناعم الملمس · نفضت رأسها فتهدل الشعر · وامتدت الأيدى تدعك الجسد ، وتلقط المناشف بقايا الماء ·

وحين انسدل الشعر على كتفيها كخيوط الليل ، تجمع الفتيان المرد ذوو العيون الكحيلة ، والحواجب المزججة ، والطواقى الحمراء الموشاة بالأخضر مذهب الحواف · أحاطوها وصنعوا من أيديهم قاربا مفرود الشراع · وتلوت الأميرة على دقات الطبلة ·· وحين رق العود برقت العين وارتخى الجفن ·

حملها الفتيان الى جناحهـا ، وزخم العطر يدغدغ الحس ، وغيم البخور يقطر رائحة ذكية • لهثت الأنفاس • وانداح العنبر ، على سطح المشروب الساخن • أشـارت بيدها ، فأسدل الستار ، واستبقت الفتيان •

★★★

فرح الأمير وعجز أن يكتم فرحته ، فضحك ضـحكة رائقة خرجت من قلبه وغطت وجهه • كانت الضحكة غريبة لطول عبسة على الجبين كانت تلازمه • أسعده فرح الأميرة ففرح •• ولاحت سعادتها بادية فسعد • وظل موكب الفتيان عالقا بذهنه فتمتم :

ـ ما أروعهم •• لولاهم لظلت الأميرة متأبية ومشاكسة •

نادى على الجارية فجاءت مهرولة وأمسكت بالعود وعزفت • تململ على أريكته فاحتوته بنظرتها وابتسمت •

فى هذا اليوم الذى حركت فيه الريح كل شىء لم يعد الأمير رشيقا كما كان • اكتنز جسمه ، وتهدل صـدره وكثر لهاثه • حدق فى ثمرة الرمان وقد تفتق قشرها ولاح حبها أحمر داميـا فعاودته عبسة مفاجئة • كان حال القصر لا يعجبه • ولم ينس فى خلوته وطربه أن الأيام تعاكسه ، وأن الأميرة تواصل عنادها ، وأن القصر امتلأ بالفتيان والغلمان المرد من كل لون وجنس ، وأن الأميرة توزع وقتها بين الألوان والأجناس • وحط عليه حزن مفاجىء داهمه كالمطرقة •• فى هذا اليوم خلطت الأميرة بالأجناس ودخلت بهم جناحها •• نحى فى قسوة واضحة لحظة الفرح الطارئة فحزنت جاريته واغتمت •

نظر اليها فى همود وقال فى أسى :

ـ ما عاد القصر يريح النفس •

احتضنت الجارية العود وبسطت يدها :
ـ لا تشغل بالك يا أميرى ٠
رنا اليها فى تساؤل :
ـ لم أعد أرى أحدا منهم ٠٠ أين هم ؟
نظرت اليه فى حذر وقالت :
ـ ألم ترهم يا أميرى منذ لحظة ؟
ابتسم الأمير ساخرا وقال :
ـ لم أقصد الأميرة وفتيانها ٠
تنهدت الأميرة فى عمق :
ـ من تقصد يا أميرى ؟
أشار بيده الى المكان :
ـ أخشى أن يكون خدم النظافة قد انضموا اليها أيضا !!
كتمت الجارية ضحكة كادت تزلزلها :
ـ سحرتهم أميرتى ٠
تمتم فى انتشاء :
ـ ما أروعها يا جارية !
لم تقو على ازاحة ضيق أصابها فجاة ، فقالت فى غل :
ـ كانت قبل أن يسحروها يا أميرى ٠
ـ وكيف كان ذلك ٠
ـ احتووها فلم يبق منها شيء ٠
ـ أعرف أنك تخففين عنى ٠

– لا يا أميرى ، اليوم ليس للضحك · فلم تعد أميرتى سوى مصاصة ناشفة ·

– لولا أنك جاريتى لأوسعتك ضربا بالسوط ·

– لولا أنك الأمير الحبيب ما بحت لك ·

حدق فيهـا فى قسوة ، وتهـدل صـدغه ومال كتفه ، نكس رأسه وهمس :

– زدينى يا جارية ·· قولى ما عندك ·

– اعطنى الأمان يا أميرى ·

– أنت آمنة ·· وأنت تعرفين ·

نهضت الجارية · واستقام عودهـا ، وأخذته بين يديهـا وهمست :

– خصيان القصر يا أميرى ·· فحول أقوياء ·

انتفض الأمير ، وسقطت عمامته ، صوب بصره تجاه الجناح واندفع ·

★★★

حكت الجارية للخادم ، أن الأمير ظل فى الجناح زمنا ثم خرج هو والأميرة ·· كانا يتلويان على أيدى الفتيان المرد ·

هز الخادم رأسه ، وواصل كنسه ·· فمنذ أن اختفى الأمير لم تمتد يد لازالة المخلفات · ولم يتنبه وهو يكنس أن عمامة الأمير رأيتها ·· أنا مثلك يا حاج ·· خلاص يا حاج ·· أنت عبد مثلى كانت بين كومة المخلفات فى طريقها الى المحرقة ·

نشرت بالاهرام يونيو ١٩٩٤ ·

البنات والقمر

قصص قصيرة



البنات والقمر



وقف الولد المجذوب على حافة الجسر يرنو الى البيت الواطىء الساكن ·· خلف الأحراش والنخيلات السامقــة · كان ينتظر اللحظة التى يوارب فيها الباب قليلا ، وعينه التى كعين الصقر تنقض على اهتزاز ضئيل يتمشى فى جسد الباب الخشبى · ويصبح سمعه رهيفا حادا وهو يماشى حركة اليد من الداخل وهى تسحب فى خفة نملة سحاب الباب الخلفى · ويظل قلبــه ينغل عليــه ووشوشات صوت محموم تنسرب من شق طولى دقيق بطول نافذة غرفة النوم القبلية ·· تشير اليه أن يدخـــل ، وينفتح الطريق للمنتظـــر ·

يذكر أنه لم يتخلف مرة عن موعده · فالأمر قد استقر بينهما على أن تكون ليلة الثلاثاء هى الموعد · وبدت الدقة فى النظام المتبع طقسا لا يتغير ، ولا يتعدى زمنه · حتى اذا واتته رغبة طارئة ـ فى غير موعدها ـ كان ينضغط ، ويئد زهوة انفعاله · واذا تمرد على الطقس مرة ، فانه يواجه بسكون يشمل المكان وبصمت ثقيل يلف البيت ، وبباب صلد يحجب ما وراءه ، ولا يوحى بثمة حياة · مع أنه يعلم تماما أن الداخل يعبق بالدفء ، وينعم بروائح تتفتح لها المسام ، وببخور ينعقد فى سماء الغرفة كغيمة تطفىء اللظى ·

عود نفسه على أن يصبر على المنيحة الملحمة ، وأن يدرب قواه على التحمل الى أن يحين الموعد ·· ولكنه هذه الليلة لن يتراجع ، فالليلة موعده ، ولن يقبل أن تخدعه فى أمر ثابت ، وكفاه ما يفعله

بنفسه طوال الأسبوع · لن يسمح لها أن تنظم ــ بمفردها ــ أوقات الرغبة حتى لكأنها تقصده قصدا ·· فتختزن ، وتظل تختزن حتى اذا ما جـــاءها ــ وهى ترتب الأمر هكذا ــ ينفك المغلق وتنطرح الأعضاء على مدى الحس ويبدو الأمر كأنه باغتها فجأة ·

والآن ماذا يفعل ؟ أيرجع خائبـــا ؟ أيكون قد طرأ طارىء أعجزها ؟ انها دائما ــ فى موعدها معه ــ تذلل كل صعب ·· فما بالها أوصدت الباب وتجاهلته ·· حتى الرجل بالداخل لم يكن يوما عائقا لهـــا !!

وأصر على الانتظار ، وسيبقى قائمـــا كالعمود ، مرشـــوقا كالسيف ·· لكن الوقت يمضى ·· والليلة موعده ·

فى ليلة الثلاثاء تعود أن يعطى نفسه اجازة يستريح فيها ويستعد ، فلا يذهب الى الغيط ، ولا يلبى طلبا واحدا ، ولا يحمل البرسيم ، ولا ينزح « الترنش » ، ولا يدخل الزريبة ، ولا ينقل الروث والسباخ ، ولا يأتى بالدقيق ، ولا يلتفت لأحد · كان فقط ينطرح على حافة الجسر وينتظر ، وعينه التى كعين الصقر تتحين الفرصة لينقض ·

ما من أحد يسأل عنه الا اذا احتاجه ، ولكنـــه اذا احتـــاج شيئا ناله ، الا هذا الأمر الذى أحياه ، وأشعره بوجوده ·· لم يرد على خياله البسيط حاجة كتلك الحاجة ولا امرأة كتلك المرأة · حدث الأمر كالعاصفة ·· جاءته وسحبته من يده ، وأغلقت الباب ، ودفعتـــه الى « الحموم » ثم أخذته ·· ملأت جيبـــه بالحلوى ، والدخان ، ووضعت على كتفه جلبابا قديما ثم دفعته الى الخارج ·· هكذا مرة واحدة مباغتة دون أن يسمع منها كلمة واحدة سوى :· كل ثلاثاء تأتى ·

ومع أنها لم تذكر اسمه على لسانها الا أنه شعر بالسماء تنفتح ، ولاحت له الأضواء مبهجة ، ولزجة كعرقه الذى لم يجف ، ·· كان واقفا تحت الفعل المدهش ·· وظل طويلا مدهوشا ، ومهتزا ، وسعيدا ·· ولكنه الآن يكاد يستريب ، انتصف الليل ، وانتهى الثلاثاء ، ولم ير ارتعاشة الباب ، ولا التقطت أذنه صـــوتا يشى بانفراج الأزمة · لم يحدث ذلك من قبــل فصــمم على الفعل ·· الليلة موعدنا وستظل ·· ليس المجذوب عبيطا ، سيحصل على حقه ، لن يتنازل عنه ولو لمرة واحدة ·· هكذا كان الأمر منها · وعليه أن يلبى ، ولن تضحك عليه ، ولن تذله ·· فتحت له الطريق ولن تغلقـــه ·

لاح الداخل فى عينيه دافئا ومنصهرا فراح يلف ، ويلبد ، وينتظر ·· التصق بالباب ، تسمع ، تشمم ، كان الصمت سياجا فاهتاج وعاد الى مكانه ··

قفز فى سرعة ، واعتلى حافة الجسر ، وتطلع الى السماء · كان الفضاء مهيبا ، والنجوم لامعات · وفرك عينيه · أمعن النظر وانتبه · كانت غبشة فى عتمة شعر أنثوى تطوى الضوء وتميل على القمر فتضغطه ، وتلفه ·· وتعكر ضوءه · واهتز ·

كان القمر يجاهد الحاح خصلات الشعر الكثيفة ، بدا له كأن حائطا ضخما قد تهاوى على وجهه فحطمه ، وخنقه · ولاحت له العروق النافرة تلفظ ضوءها الأزرق ·· واهتم حزنا وتمتم تكاد الروح تذهب ·· وصاح فى خوف ·· وصاح فى جذل ·· وانطلق ·

☆★★

مرق المجذوب الى « الدوار » ونادى فى حـــدة على حضرة العمدة · هب الخفراء دفعة واحدة ، واغتاظوا من صوته الزاعق فى سكون ليل مطبق ، واقتادوه فى عنف ·

ظل يصيح طالبا العمدة حتى هل مغتاظا ، تكدا فغرس عصاه في صدره وسبه بأمه ·

أشار الولد الى السماء ، والى القمر ، والى العمـــدة ونطق في ألـــم :

ـ انه يمـــوت ·

رد العمدة بغل وهو ينظر الى السماء :

ـ يا ابن المجنونة من الذى مات ؟

نظر الولد الى السماء ، وأشـــار الى القمر ، فأمال العمدة رأسه ثانية وتمعن في القمر ، كان القمر يجاهد حصارا ضاغطا ، فنطق العمدة في دهشة :

ـ القمر مخنوق ·

والتفت الى الخفراء مؤنبا :

ـ كيف لم تلاحظوا ذلك ؟

وجذب جلباب الولد في قبضة عفية وسأل :

ـ متى رأيتـــه ؟

أجاب الولد وهو يضع أصابعه على قبضة العمدة يتحسسها ، يحاول أن يخلص ثوبه منها · انه الثوب الهدية ·

ثم نظر في ترحم :

ـ حين انتصف ليلة الثلاثاء ولم ينفتح الباب ·

سأله العمدة مبهوتا :

ـ أى بـــاب ؟

تنبه الولد وعلق ألما :

ـ باب الســـماء ٠

أخرج العمدة ساعته من جيبه ، كانت الساعة تقترب من الواحـــدة :

ـ الوقت متأخـــر ٠

أسرع الولد المجذوب فى نبرة عطف مؤثرة :

ـ أتتركه يا عمدة يموت أمام عينيك ؟

ضحك العمدة ، فارتخت ملامح الخفراء ٠٠ وقال :

ـ وماذا نفعل يا أهبل يا ابن الهبلة ٠

ـ يأتى عمران بطبلته وننقذ القمر ٠

★★★

راح عمران يطوف بالأزقة ويدعو الناس الى اغاثة القمر ، طلب منهم أن يشاركوه محنته ، وأن يتجمعوا فى مواجهة بنـــات الجنة ، وتطلع الى أعلى ، وطلب منهن أن يشفقن عليه ، ويعطفن ، فهو قمر واحد ، وهن بنـــات كثيرات ، مليحات ، ومرغوبات ، استسمحهن أن يطلقن قيده ، فكفاهن ما أخذنه منه ٠٠ وعلا الصوت محتدا وغاضبا ٠٠ القمر يموت ونحن الضحايا ، اتركنه لوجه الله ٠

واستيقظ النوام ، وتقاطروا ·· وراح الموكب ، يتزايد ، ويتداخل · لم يسعفهم الوقت فلم يشعلوا مصبا فاختلطوا وتدافعوا · ولاحت الرءوس ملتوية فى اتجاه القمر · وصنعت البنات مجموعة ـ كالجوقة ـ تحدو على دقات الطبلة ·· وعمران يتفنن بقطعة الجلد السوداء فى تلوين الصوت ، وتنغيمه ·

وانبرت « خضرة » بصوتها المميز وقادت البنـــات وراحت تشدو فى نبرات صوت مرتعش ··

يا اللا يا بنـــات الجنـة
ســـيبوا القمـــر يتهنى

ومضى الموكب يطوف بالشوارع ، والأزقة ، ويقف عند بيوت الأسر المعروفة ·· وكلما علا الصوت ، وارتفع الشدو ، وصعدت الاستغاثة ، تنفتح الأبواب ، ويزداد العــدد ، ·· وكان الولد المجذوب يطلق عينيه ، ويتفرس فى كل الوجوه الطالعة من أبوابها وسعد قلبه ، وشاكس « خضرة » التى راحت تواصل الشدو ··

★★★

يا اللا يا بنـات الحـور
ســـيبوا القمـــر يدور

كان الولد المجذوب يخترق الجمع كله ، ويتملى الوجوه ، وبدا كما لو كان يعدهم عدا · ولكنه فى لحظة انسلاخه لم يفلت من قبضة مؤذن الجامع الذى جذبه من طوق جلبابه وأنبه على غيابه عن تنظيف « الميضأة » وكنيف الزاوية ، وهدده بأنه لن يعطيه بعد اليوم مالا ، أو طعاما من صدقة الناس اذا لم ينه عمله غدا ··

تطلع اليه الولد وقال فى خبث :
ــ اذا دعوت الليلة لى ٠

شده المؤذن مرة أخرى والولد ينزع يده :
ــ أدعــو لك !

وضحك ، فضحك الولد ٠٠ وتساءل فى دهشة طارئة :
ــ ولكن بما أدعو لك ؟

قال الولد وهو ينسحب مخترقا الموكب :
ــ أن ينصلح الحال وينفتح الباب ٠

تعجب المؤذن من حال الولد المجذوب وذكره بابن سنية العمشاء ٠٠ كان هو الآخر مفلوتا ، لا تكاد تدركه حتى يفلت منك ٠ وتدور أمه على الأبواب تجمع المال على « حسه » ٠ ومع جسده الضخم فقد كان لين القياد ٠ يعمل كل شىء ولا يتقن شيئا ٠٠ ولكنــــه دائما يقوم بتشغيل الساقية كالثور ، وينـــام بجوار الزاوية لا يهش الذباب الذى يتراكم على وجهه ٠

تنهد المؤذن ، وأمال رأسه الى السماء وتمتم :
ــ بلد مجــاذيب ٠

★★★

كان عمران قد طاف بالأزقة ، وأيقظت طبلته النوام ، وأثارت خضرة فى القلوب أسى على قمر الليالى ٠ وزغردت النساء ، وضجت القلوب تشفع بالنبى المصطفى ، أن يفك ضيقه ، ويريح النفوس

فترق بنات الجنة للقمر وينسين بهاءه الطاغى • لكن القمر كان يزداد انضغاطا • ولم يفلت من أيدى البنات ، وقلوبهن المريضة •

وكان الولد المجذوب ينحنى خفية ، ويميل فى خفة ثعلب محاذر ، ويشبك الثياب ، ويعقد الأطراف • لم يكن الأمر صعبا عليه فى ظل التلاصق والزحـــام • كان يحب أن يلعب بقلوب العذارى ، وفورات الشباب •• وكاد يضحك صاخبا والبنت فى اندفاعتها المباغتة تسحب وراءها صبيا يكاد يغفو • وكادت البنت تنكفىء لولا أن تلقاها الصبى وسندها بذراعه • شعرت البنت بقوته على صغره فواجهته ضاحكة • فكا الثياب ، وانسحبا الى طرف الجمع •

نظرت البنت الى الولد وقالت :
ـ أتعرف معنى الذى حدث !

حرك الولد رأسه ونفى معرفته فى صوت خفيض وغاف :
ـ لا •• لا أعرف •

تملكها حياء ، فنظرت الى الســـماء ، كانت بنات الجنة لا يزلن يضغطن على القمر ، ويعصرن بهاءه ، ويجمعنه فى المآقى والقلوب ، وتحت الجلد ، وطى العصب ، وبدا للعين أن القمر يستسلم ويطوى ضوءه ويمضى •

وتمتمت البنت فى خفوت كأنما تهاجس نفسها :
ـ القمر اختار حبيبته •

رمقها الولد وانتظر ، ثم أمال رأسه الى السماء وتأمل للقمر •

اقتربت ، ووضعت كفا صغيرة على الكتف ، ورنت الى العين وهمست :

ـ والبنت واقفت ٠

مسك الولد ذيل جلبابه وأسلم يده للبنت وسأل :

ـ أنت أكبر مني وتفهمين أكثر ٠

ضغطت على أصابعه ، ووشوشته :

ـ لما تنعقد الثياب والقمر مخنوق تكون علامة على زواج ٠

واقتربت ، وترنمت :

ـ تصبح البنت للولد ٠

واقترب وترنم :

ـ ويصبح الولد للبنت ٠

وانطلقا ، كانا يتتبعان الجمع ، ويمعنان النظـــر ، وراحا يبحثان عن البنات والصبيان ٠٠ كانت البنات يملن على الصبيان ويوشوشن في الآذان ويهمسن :

ـ القمر اختـــار حبيبته ٠

★★★

ونجح القمر وصـــمد ، استطاع أن ينفك قليلا ، فتعالـت الصيحات مستبشرة ، وضحكت البنات ، ورقصـت فى الصدور قلوب خافقات ٠٠ ولون عمران ايقاعه ، ومضى الموكب فى دورته

الى الدوار ، ليأخذ التمام ، ويحصل على منحة السلامة ٠٠ فها هو القمر قادر على أن يحتوى بالبهاء كل بهجات القلوب العاصفة ٠

وفى تلك اللحظة ، لحظة انسلاخ القمر ، انسحب المجذوب وانطلق كان قد رأى وجـــه الرجـل فى الزحام فانطلق ٠ طوى المكان ، ووقف أمام البيت ٠٠ كان الباب مواربا ، فمنى نفسه بمتعة خالصة ، وهنأ عقله بما فعل ، فلم يعد شيئا مهملا !! بل انه سعى ليثبت للمليحة أنه اذا احتاج شيئا ناله ، ولو كان هذا الأمر !! وأنه حريص على موعده ، ولا يحب أن يتخلف عنه ، انه أمين ، ولا يريد من أحد أن يجرح أمانته ٠

دفع الولد المجذوب الباب فاندفع ، فسعد قلبـــه وانشرح الصدر وخطا الى الداخل ٠٠ وصل الى سمعه الرهيف همس يشى ببحة ، أرهف السمع فأحس بأن ثمة رعشة مبهجة ، وأن الداخل مملوء ٠٠ وخطا فى توجس مباغت ، وداهم الغرفة التى طالما انعقدت فيها سحابات البخور ٠٠

كان الأهبل بن نفيسة يفرش ملاءته على المليحة الملحمة ٠٠ ويعصر بهجتها ٠

●

البسمة النادرة



أفزعتنى الدماء التى اندفعت كالنافورة ·· وجذبتنى الأحشاء الملتوية ، المهروسة ·· وارتجفت · ولاح لى الأمر كأنه مكيدة ·· بل اننى على يقين بأن شـــيئا ما كان يجذب الرجـل وهو يمضى لقتـل ··

كان يجالس زوجته فى أول المساء ·· فما الذى دهاه لتسييل الدماء فى غبشة الليل الأخيرة ·

أطحت بالملاءة ، والعرق ينضـــد الجبين ويسيل على الوجه والعنق ·· ما كل هذه الشراســة التى بدت عليه ، وهو يقتحم الغرفة ، ويمسك بالسكين ويفصل الرأس ·

لم أكن أعلم أنه يمكن أن يفعل هذا الهول كله بضربة واحدة ·· وهو الذى كان اذا رأى دما يهرب منه الدم ويلتوى عليـــه القلب ·· وكيف أتخلص من هذه العين التى تعلقت بى فى ومضتها الأخيرة ·· كأنما تلوذ بى ، أو تستدعى رحمة غير واردة ··

كان الوميض الأخير يخترقنى ، حادا كالنصل حتى أحسست بجلدى يتشقق ويحترق ·· أحمل فى ذاكرتى هول النظرة ، وأنا أخرج من نومى المزدحم القلق ، المرعب ·

وأنتفض للهول الذى احتوى الجسد ، ورحت أغالب تلك اليقظة المباغتة ، وأنفض عنى رجفة شاملة · أفرد ذراعى وأتمطى ··

أدور برأسى فى سكون الفراغ ، موليا بعيدا حتى لا أعود اليه وأوغل .. مع أن انكفاء الجسد كان يملأ المشهد ، وتتعالى شهقة كأنها الأتون المشتعل .

تلك الشهقة أيقظتنى قبل موعدى المعتاد ..

وليت رأسى تجاه « المنبه » . ورمقت العقرب خلسة ، كأنما أخشى على نفسى من مداهمة المشهد .. كان العصفور الدقيق المتخايل يترنح ويسقط على الخامسة .

أنكمش فى ركن السرير وألعن ما رأيت .

كانت الأحلام تراودنى حسبما أريد ، أصنعها ، وأتوقف عند منحدرات أريدها ، بل أؤجلها فى لحظة توهج ساخنة .. ثم استأنف بعثها من جديد فى أمسيات مقبلة ..

لكنه الليلة داهمنى على غير ارادتى ، ولوى عنقى ، وأغرق عينى فى الدماء . ولو أننى غيرت عادتى بالليل لحق له أن يباغتنى .. لكننى أمضيت ليلتى حسبما تعودت . لم يتبدل الطقس . أجالس زوجتى فى المساء ، وأداعب الأولاد ، وأطمئن على واجبهم المدرسى ، ونتعشى فى زهو من يشعر بالدفء ، والسعادة . ثم أحتسى شايا ساخنا خفيفا تصنعه زوجتى باهتمام مبالغ فيه . تقدمه الى وثغرها الناصع يحاكى لمعان جيدها ومساحة الصدر العارية .

لم أفكر يوما فى أن أربط بين كوب الشاى وبسمتها الرائعة ، الناصعة .. لكننى على كل حال أمنى نفسى بلحظات فرح ، وبهجة انتشاء .. وأنحى بوجدان مهتز ندرة ابتسامها ،

والعبسة المشدودة طوال اليوم ، تتخذ بسمتها الناصعة الموحية فى المساء منزلتها الحسية الخاصة فى ظل زمة الشفتين ، وتوالى الانقباض • وأعلل الأمر بالاعلان عن الوجدان ، وأقبض فى هسهسة شعورية على تلك اللحظة الموقوتة ، وأمنى النفس بدفء مرتقب وهى تقدم لى الكوب فى صحبة البسمة النادرة ••

ويمضى الطقس فى مساره ، كحركة الليل تعسها ، يمتد الزمن ويتواصل •• وقبل أن أنتهى من قراءة الصحيفة وأنهى فى غفوة مسترخية برواز الأهرام الشهير « صدق أو لا تصدق » •• يأخذنى النوم فى دعة الى شطآنه ، أتجول فى أجماته ، وأحراشه ، تلوح الفروع مشرئبة كالرماح نحو الأجمات الريانة فأهتز وأزبد •

تندك الأصابع فى الرأس كالأشـــواك تنغرز فى اللحـم ، ويخترقنى صوتها الآمر الصاخب •• أميزه من بين كل الأصوات ، ولا يتوه منى وهى تتحدث مع الصحاب ، يظـــل لرجعاته لسـعة الجذوة المنطفئة •• ويخلعنى خلعا ، وأبدأ رحلة انسلاخ الوعى تماما كما ينتزع الجلد •

أودع شطآنى وأمطارى وزرعى النابت فى الربوة فى السابعة صباحا •• لكن الساعة الآن الخامسة ••

ما الذى جعل الشراع تعتصفه الريح ويتمزق ويحشرنى فى دفقة هائلة من الموج كالزبد الرابى •• يترقرق فوقه ملامح أعرفها لم تخفها غطشة مظلمة •

أنفض عنى الملامح ، وأدعك الجبهة والصدر ، وألصق الرأس بالجسد الذى أعرفه •• وأميزه من بين كل الأجساد •

ألوى عنقى كاملا حتى آتجنب حمـــاة النظرة ، وارتجـافه الجسد ، والبرزخ الممتلىء ٠

وأغتاظ ، يتملكنى حقد شرير ، ومشروع ٠٠ حين آستيقظت ـ فزعا ـ فى الوقت الذى كنت فيه قابضا عليه وهو يوغل فى برزخ الدم ٠

كان القلـــب يبكى ، أبكانى ـ فى الحقيقـة ـ ما رأيت فبكيت ٠

لم أصدق أننى قادر على التجاوز الا بعد أن شققت لنفسى دربا ضيقا خرجت منه ٠٠ وتنفست بعمق دهليز مجوف ، وطرحت ذراعى على الفراش ٠٠ أتحسس جسدها ، أغمطها على الصبر ٠٠ اذ كيف لامرأة أخـرى غيرها تنام وسط الأعاصير وأثباج البحر ، وتدارى ربوتها بأغصان مشرئبة وأوراق مخملية أجمعها من بين الشطآن ٠٠ ولا تمل ٠

انحطت اليد على خــواء ، لم أجدها بجانبى ٠ لا أدرك ـ غالبـا ـ متى تنام بجانبى ومتى تصحو ٠٠ بل متى تلتصق ، ومتى تفارق ٠٠ لكنها على كل حال تنبىء عن وجودها وتحـرص عليه حين تندك الأصابع فى الرأس والساعة تدق السابعة ٠٠

كانت الملاءة مطوية بأصابع مدربة ، كما لو كانت قد طويت للتو ٠٠ وشعرت بتخلص مفاجىء ، وبعطش يبعث على الرى ٠٠ ونهضت ٠٠

كنت أترنح وأنا أخب فى مشيتى كالوليد ٠٠ أكاد لا أصلب جذعى ٠٠ ولا أتعــرف على الطريق ٠٠ الرأس ثقيلة ، والنــوم

يفك خيوطه عن الجفون فى بطء شديد ، وفى قسوة · والرجل القصير البدين وهو ينحط على الجسد يوغل فيه ، ويفتح المسام للدم ، ويتسرب مع الهواء ، ويذوب من قبضته ·· يواجهه ·· يتصالب أمامه ·

رميت بالذراع ، أبعده ، فارتمى فى الفراغ وكاد يوقعنى ··

كانت الردهة شاحبة الضوء حتى كدت أعشى ·· هل الشحوب مقصود أم هو العادة ·· لا أكاد أجزم ، فما أدرانى ومنامى فى الضوء ويقظتى فى الضوء ·

تريثت قليلا وفى اللحظة التى لاحت فيها الأشباح باهتة ·· لمحته ، يقطع المكان مارقا الى الداخل ، واجهته من الخلف · كان بدينا وقصيرا ·· ارتجفت وأنا مشدود بكلتى قدمى على الحصير الملون · ما الذى أتى به مرة أخرى ·· وعلى من يقع الدور ؟ هل أنجح هذه المرة ؟ وأجعله لا يفلت منى ·

لا يفلت منى · ! وانفتحت عيناى حتى احتوتا المشهد كله ·· الردهة والأثاث والصور المعلقة ، وصورة الوجه الباكى ، ورسمات لأعشاب البحر ·· أنا اذن فى بيتى ، أنا يقظان فى الحقيقة ·

ومع أننى ارتعبت للهول الطارىء الا أننى مكثت برهة طويلة وأنا عاجز عن فعل شىء ·· مدهوشا بالصدمة ، ومخلوع الفؤاد ·· والظنون ترتوى بماء المشاهدة ، وخطوت ، هل كان خطوى بطيئا ·· حتى اننى وأنا أتجه الى الداخل لم أستطع أن أطوله ·· كانت النافذة مفتوحة والحجرة القبلية تفيض برائحة بخور ، وكان آخر ما رأيته منه هذه الأصابع التى يتقى بها حمله واتزانه ·· تسرب كما يتسرب الهواء ··

وكانت المرأة منطرحة على الفراش ‥ أرجـــاؤها منفكة ، ربوتها مغطاة بمحار الخلجان ‥ وكانت تتنفس بعمق من تخـدر وانتشى ، وأخذته سنة من نوم عميق ‥ وارتسم فوق الوجه بسمته النادرة الرائعة .

واندك فى يدى نصل يلمع . كان لبسمتها اغراء السحر ‥ وتمنيت أن أقبض فى التو على تلك البسمة النـــادرة والنصل ينصل الجسد ويصنع برزخا من الدم .

●

الرداء



·· منذ أن تركت البيت الكبير ، وأنا مشدود اليها بخيط يشف عن مودة محضة · أهفو الى ثراء ظلها ، ونبض قلبها ، ووردة الهوى فى وجنتيها · أرتجف حين أتذكر ضربات الجد ، وصفعاته المدوية ، أستعيد حضنها الوثير ، وصدرها الرحب وهى تزمنى ، وتحمينى من سطوة الجد · أتوق للارتواء من زمانها الموفور وأتمنى لو أعود ·

·· ألوذ بها من جدى الذى زرع الخوف فى قلوبنا · كانت تتجلى كالشجرة الباسقة ، ريانة الطرف ، مترعة الثمر ، فأزهو بنفسى ، وأوقن – فى فرحة غامرة – أننى أصبحت ورقة فى غصنها الريان ·

★★★

فى مســاء ليلة قمرية هلت علينا – بصــحبة جدى – أثار جمالها الرائق غيرة الحريم فرحن يبحثن عن معايب كامنة · عاملها الاخوة والأعمام بجفاء بين ، بينما وقعت أسير الرحمة التى تفيض بها · لم تكن صغيرة ، ولم تكن كبيرة · احتفظت ببهاء الشباب وسرعان ما تمكنت وأينعت · وراحت ترطب الجفــاف ، وتروى القلوب العطشى ، وتخفف من غلواء جدى وقساوته ·

★★★

ذات يوم دخلت على جــدى غرفته العلوية لأعوده من وعكة ألمت به ، فلمحت – على غير المألوف – انكسارة تسكن وجهه ·

حرك عمامته البيضاء بين يديه ٠٠ وأشار الى ٠٠ وقفت ساكنا ٠ رمقنى خلسة ، وابتسم بسمة شحيحة ، فتندمت ٠٠ مد كفه الضخمة ولامس كتفى فامتننت ، كان جدى يهتم بى كأنما يدخرنى لأمر أجهله :

ـ لا تخف على ٠

٠٠أسرعت قائلا :

ـ لك الحياة الطويلة ٠

سافرت عيناه مع ضوء هارب وتمتم :

ـ لكل بداية نهاية ٠

اختلست اليه النظر ، ولزمت الصمت ٠٠ ساكنا ٠

ـ عليك ـ يا ولدى ـ أن تستعد ٠

انحنيت وتساءلت :

ـ لأى شىء ٠ !

ـ سأخبرك فى حينه ٠٠ فقط استعد ٠

وأومأ برأسه ٠٠ فانسحبت مودعا ٠

٠٠ فى ليلة عيد الأضحى ألح جدى فى أصرار ـ لم نتعوده منه ـ على أن الأوان قد حان ، وعلى أن أخلع ثوبى وأرتدى الرداء ٠٠ كانت عيون الاخوة والأعمام ترصد سحنته المريدة ٠ لم أقو على النظر اليه ، فانزويت ورنوت الى السماء ٠ شدنى تراكم النجوم ، وشحة الضوء ، وحنين مبهر للمرأة الجميلة ٠ لكزنى جدى بطرف

عصاه يستحثنى ، فأبان صمتى عن رفض واضح ٠٠ وبدت ملامحى كأنما تعتذر ، وتطلب العفو ٠٠

صرخ جدى صرخة مدوية ، هرول الاخوة والأعمام ٠٠ وبقيت المرأة الجميلة ! كيف دخلت ؟ لا أدرى ٠٠ لكن وجهها المضيء تبدى مع الصراخ فشعرت بأمان حقيقى ٠ خيرنى جدى بين الموت والرداء ، فاخترت أن أبتعد ، حدق فى وجهى ، واحتد ٠٠

ـ لا تتعجل !

واستمعت منه الى تهديد بالطرد ينتهى بنبذ أخف منه الموت ٠

ـ أتعصى لى أمرا ؟

ـ أنا لست مؤهلا له ٠٠

ـ سيصنعك الرداء ٠٠ وعلى عينى ٠

ـ دعنى أمضى ٠٠ ولا تضغط على ٠

ـ ستمضى ، كما مضى أبوك ٠

ورفع يده الضخمة وهوى بها على صدغى فترنحت ٠

أسرعت المرأة الجميلة ، واحتضنتنى ، وأخذتنى بعيدا ، وطيبت خاطرى وخففت عنى ٠ ارتجفت ـ غضبا ـ فهدهدتنى حتى سكنت بين ذراعيها كالوليد ٠٠ ربتت على رأسى فى حنو متدفق ٠ رأيت أن أنفك من ذراعيها فزمتنى ٠٠ مشت أصابعها ـ فى رهافة ـ على جلد رقبتى وانسلت حتى نتوء الظهر وزملتنى ٠٠ غشيتنى السكينة ٠٠

رفعت رأسى أنظر اليها ممتنا ، فشملنى ـ من عينيها ـ نور متألق يفيض برحمة بادية ، فعدت ألبد فى حضنها الدافىء ٠٠

ومددت ذراعي أحيطها ، ‎٠٠‏ كنت أخاف أن تضيع مني ‎٠٠‏ فشددت عليهـــا ‎٠‏

وحين أفقت من سكينتي وجدته أمامنا ‎٠٠‏ وجهه كلحاء شجرة ناشفة ‎٠٠‏ اجتاحني الهول ، هوى القلب وتشقق الجدار خلفي ، وأحسست بنظراته المسنونة تخترقني فلبدت في حضنها ‎٠‏

‎٠٠‏ لم تستطع جدتي لأبي أن تقاومه طويلا فماتت مقهـورة منه ‎٠٠‏ اخترقها كثيرا ‎٠٠‏ جاء لها بنساء كثيرات ‎٠٠‏ ولم يكن يفرط فيها أبدا ‎٠‏ لكن موقفه مع ابنه الوسيط أسرع بحتفها ‎٠٠‏ أصر أبي ـ المتعلم الوحيد في البيت الكبير ـ أن يخرج الى المدينـة ، ويترك البيت ‎٠٠‏ ويسعى الى مكان فسيح يجد فيه خلاصا من قبضة الجد ، وعسفه الشديد ‎٠‏ كان الأعمام يتولون أمور البيت ‎٠٠‏ الكبير يشرف على الأرض ويرهق الفـلاحين المستأجرين ، وراح البـاقي يتابعون حالات الأتباع ومهمات الأمن ، وتنفيذ أوامر الجد ‎٠٠‏ وظل أبي حريصا على هدفه ‎٠٠‏ أن يتعلم ‎٠٠‏ ويهجر البيت ‎٠٠‏

آثر جدي أبي ‎٠٠‏ حين آنس فيه قدرة على التأثير وصيد القلوب ‎٠٠‏ وألقى بالأمر ‎٠‏

ـ لا تبرح البيت ‎٠٠‏ اني أدخرك لأمر جلل ‎٠٠‏

فر أبي من أمامه فسحبته جدتي ، وزملته ، كما تزملني المرأة الجميلة ، حذرته أن يرفض ، وخوفته من عواقب العصيان وحرمانه من رؤيتي ‎٠‏ وفعلها أبي ‎٠٠‏

في صبيحة يوم خريفي علم الجد بفرار أبي ‎٠‏ أرسل وراءه نفرا يتتبعون أثره ‎٠٠‏ ثم يئس ‎٠٠‏ تنبهت جدتي لأبي ـ فيما بعد ـ

أن جدى كثيرا ما يتأملنى مثلما كان يفعل مع أبى · وأنه ربما يوقعنى فى تجربة ما ·· وحذرتنى من مواجهته أو التمرد عليه ·

ـ هرب أبوك وترك لى حسرة فى القلب ·

ـ لم ينفع أبى علمه الذى حصله ·

ـ من يفاعته وهو يرنو الى بعيد ··

اخذتنى جدتى بين يديهـــا ، وبدا وجههـا المغضن خميلة مختلطة ، قربتنى اليهـــا فاحسست أننى أجـوس بين أخـاديد الخميلة ·· وتعجبت كيف عاشت جدتى كل هذا الزمان ، وهى محاطة بالم دائم · !

ـ لا تعجل بموتى ·

هذا الألم الدائم لم يأت من النسوة اللائى احتللن الفراش ، وانما جاء من توقعهـا بمصيبة ما ، كل يوم يمر على خير ، تلتزم غرفتها وتبتهل الى الله شاكرة ممتنة ·· وها هو أبى قد رسخ الألم ، وحقق الهاجس ·· وكنت ألاحظ على جدتى ـ منذ أن قدمت المرأة الجميلة ـ قلقا يشى بخوف يكاد يحتويها ·· لم تكن تقابلها ، ولو صدفة ، الا تمعنت فيها ، وتملت ملامحها ، وغاصت فى عينيها ، لا يفوتها هذا القوام المشدود ، ولا الصدر الرحب الذى تتميز به المرأة الجميلة ، ولا لهفة الجد عليها ·· تضغط جدتى على يدى :

ـ لا تغتر بتوددها اليك ·

واضحك ، وأمسح رأس جدتى ، وأقبلها ··

ـ قلبها أبيض كالحليب ·· أنت تغارين يا جدتى ·

وتهتز ، وتنهرنى ، وألمح رعشة خفيفة على الشفتين ، ونظرة ساهمة :

– كبرنا على ذلك ..

وتسيل عيناهـا ، وأسرع اليهـا .. أهدهدها ، وتتمتم فى ارتجـاف :

– أنت تذكرها بأبيك .. وأنا أخشى عليك .

★★★

ها أنذا بين يدى المرأة الجميلة .. أتقى بها نظرات الجد . لم يعد لى غيرهـا تهتم بى ، وتأنس لى . ملأت فراغ جدتى بعد رحيلها ، فالتصقت بها ، لم أعرف من النساء سوى جدتى ، والمرأة الجميلة .. كان البيت الكبير يمتلىء بزوجات الأعمـــام والبنات الصغار ، .. وكنت أشعر بوحدة قاتلة وسط هذا الزحام .. لم يكن غيرها – جدتى لأبى – تدخلنى قلبهـا وتغلق عليه .. حتى جاءت المرأة الجميلة فزاحمتها .. أتقى بها نظرات الجد ، وعنفه الذى لا يكف .

لم أنس نظرته الحادة التى صوبها الى المرأة الجميلة وأنا بين يديها ، ألوذ بصدرها الرحب الدافىء .. وأنا أتوقع منه غدرا وشيكا .. تذكرت جدتى وهى تحذرنى من تمردى عليه ، ومواجهته ، فلبدت فى صدر المرأة الجميلة وأحطتها بكلى ، وهى ترتمى على حتى تكاد تدخلنى اليها ..

بصق جدى ، فلامس الرذاذ وجهى . مدت كفهـا النـاعم ومسحته .. كنت أدفع يدها ، حتى يرى جدى أنى أدفع يدها حتى لا تلامسنى وتمسح الرذاذ .. صرخ جدى ، صرخة شبت لها :

– أخرج من البيت ولا تعد اليه .

واتجه الى المرأة الجميلة التى لم ينطبق لها جفن :
ـ أما أنت ·· فلى معك شأن آخر ·

كوم جدى ذيل جلبابه وتخطانا ، أدار رأسه وسبنا :
ـ ماذا أبقيتم للكلاب !

لملمت المرأة الجميلة وشاحها وتمتمت :
ـ جدك كلب كبير ··

أدركت أن بلاهة غطت وجهى ، ودهشة عريضة · بحجم الجد تقف بيننا فأسرعت قائلة :
ـ لا تندهش ·· كأنك لا تعلم !

·· عادت فلملمت وشاحها وتمتمت :
ـ رآنى فوقعت فى قلبه ·
ـ قلت فى تودد :
ـ جدى يحب النساء ·

زغدتنى فى كتفى :
ـ ولوهلة لمحت غلا يطل من العينين ، وتعجبت أن تعرف المرأة الجميلة ، الغل كما عرفته جدتى ، وزوجات أعمامى ··
ـ جدتى يطمع فيما عند الغير ·

كان يجب ـ فى تلك اللحظة ـ أن أتريث قليـــلا ، لكننى أسرعت قائلا :
ـ هل أخذك من أحد ؟ حبيب ، أو ··

لزمت الصمت فتابعت :

ــ دون ارادة منك ٠

ــ اذا أراد فلا ارادة لأحد ٠

ــ ألم يعترض أهلك ؟

لوحت بيدها كأنما تهش ذبابا يطن ، وامتعض وجهها حتى كدت أحصى تجاعيده ٠

ــ انهم يباركونه ٠

ــ وحبيبك ٠٠ ألم يفعل شيئا ؟

زفرت ، فشعرت بنفسها ساخنا ، وظلت حسرة عميقة أرعشت وجهها وأرعبتنى ٠٠ لم أرها يوما فى مثل هذا الحزن ٠٠ جسدها المشدود ينحنى ، وتلوح طياته كأخاديد معتمة ٠٠ أين البسمة الرائعة ، ورحابة الصدر ودفئه ، ولمسة الرحمة فى كفها !! ما الذى جعلها فجأة تكاد تنكفىء على نفسها ، وتتسرب الى داخلها ، وتهيم !! وتنتفض المرأة الجميلة ، فأشعر بألم يعتصرنى ، وأرتعب من أن تحترق الخميلة ، ما هذا ٠٠ الذى ينغصها فلا تقوى عليه !!

رششت عليها عطرا تحبه ، رذاذ رذاذ الليمون ، برقت عيناها وحدقت فى ٠٠ همست متوددا :

ــ أكنت تحبينه الى هذه الدرجة ؟

تضع وجهى بين كفيها وتتملانى ٠٠ أغضب لضعفها فأحتد ٠٠

ــ من يفرط فيك لا يستحقك ٠

تمهلنى قليلا ، حتى أهدأ ٠ وتضحك ضحكة رائعة ، وأتعجب من المرأة التى تظل عالقة بحب من لا يستحق ، وأكاد أنهرها ٠٠

ـ تضحكين ٠٠ كأنما الأمر لا يعنيك ٠٠

وارتعشت شفتاها :

ـ ليته بقى ولم يفر الى المدينة ٠٠
ـ انه يتسم بالخسة والدناءة ٠

طيبت خاطرى ، وفردت وشاحها وطيرته فى الهواء ٠٠ راح الوشاح يتلوى حتى حط على رأسى وغيب ناظرى ، وكانت تميل على فى رهافة حس نادر ٠٠ وتطويه بين يديها ، وتتمعن فى وجهى وتداعب أنفى ، تتكىء على فخذها فيتجسم الجسد ، ينفتح الفم دهشة من هذا التكوين الذى يحتوينى لينا ودافئا ٠٠ لم أستمتع يوما بدفء مثله ٠٠ لم تحضننى امرأة كما تفعل المرأة الجميلة ، ولا أمى نفسها ، لأنها ماتت فى ولادتى ٠٠ كان حضن جدتى لأبى باردا ، والجسد الناشف يؤلم ضلوعى فأهرب وأتململ ٠٠ هذا الثراء الذى أعيشــه نادر وشــحيح ، لبدت حتى لامس الجلد ، الجلد ٠٠ سمعتها تردد فى همسيس صوتى لا يبين « كأنك هو » ٠٠ فانتفضت ، تشقق الجلد عن الجلد وصحت فى غضب :

ـ لا تشبهينى به ٠٠ انه خئون ٠

كجدتى ـ قبل أن تموت ـ تكفكف دمعة الغضب وتقول :

ـ لا تسبه ٠٠ فهو أيضا لم يكن يريد ٠٠
ـ انه يستحق ٠

وأهتز من الجذور ، وبعلو صوتى ، وأتصور أن لى حقا عليها فأقول مؤنبا :

ـ كيف تدافعين عنه ٠٠ بعد ما تخلى عنك ٠٠

– لم يكن أمامه الا الفرار ٠٠ أو الموت ٠

– الموت من أجلك حياة ٠

لا تقس عليه ٠٠

تحتجز نفسها بعيدا ، تطول المسافة بيني وبينها ، ترفع رأسها في علو وملامح الوجه تتصالب وتشتد ، تنفرج الشفتان في بطء ، ويخرج الكلام كالأسنة ٠٠

– كيف لم تفهم حتى هذه اللحظة أنه أبوك ٠٠

انغرست قدماى فى الأرض كأنما شدتا بالمسامير ٠٠ يتخلى عنى الوعى ، وأشعر بدمى يسير بطيئا فى الأوردة ، وعينى تكاد ترى على مساحة الأفق أبى الذى يتسحب فى غبشة الفجر ، لا ليصلى ، وانما ليفر هاربا الى المدينة ويترك وراءه تلك المرأة الجميلة ، ويدعنى – فى ضعف أليم – لجدتى وحضنها الناشف ٠٠ وجدى وجبروته الذى لا يقاوم الا بالموت ٠

رنوت اليها ٠٠ شدت عينى فظللت أرنو اليها ٠٠ كيف للمرأة الجميلة أن تعرش على البيت ، وتصنع الخميلة ، وتتغنى بحبيب غادر ٠٠ وتتسبب فى طردى من البيت الكبير ٠٠ كيف لها أن تصنع ذلك كله ٠٠ ولا تزال تحتفظ برداء قديم وبرودة لا تتعكر ٠٠ وبنظرة ملأى بالحنان !!

وأرنو اليهـا فى عتب المحب ، ويأس المريد ، وتتصـــالب أعضائى ، وأهوى تحت قدميها ، أروح فى نشيج طويل ، يتخلى عنى حيائى ٠٠ فأسب جدى ، وجدتى وأعمامى ، والمرأة الجميلة والناس جميعا ٠٠ وأذهب فى غياب متقطع وألمحها – فى فترات الصحو – تجلس بجانبى ، تلازمنى ، تدلك جسدى المغطى بوشاحها الوردى الذى تسترنى به ٠

العُروج



أتلصص كي أراهـا في حلقة الذكر منشرحة الصدر فاردة الذراعين ، ترفرف بشالها ·· فتأخذ العيون وتقبض عليها · كان الجسد فائرا ، وعباءة الحرير تشير الى تكوين متناسق · سقط الوشاح الأبيض المطرز بالخرز الملون فلاح الشعر أسود فاحما · وتأرجحت خصلة متأبية وتبدى الوجه أبيض كالقشدة ·

يصلني ـ خلف الرجال ـ صوتها منغما وهادلا فتتعالى أصوات كالحشرجة ، تأخذ معها دفء الحنايا ، وتروح تتمايل في خفة ، وتتكيء على القلوب ، والمنشـد يواصـل انشاده في توقيع يأخذ باللب ·· ويطيـل ويلون ويعيـد ·· « أتحرقني بالنـار يا غاية المنى » ·· وتبتهل الجموع ، وتردد والمآقي تترقرق ·· « أنت ·· يا غاية المنى » ·

ويخترق النداء الزاعق ·· « مدد ·· مدد يا عطشى » ·· سكون العيون اللامعة ·

وأتلفت مرتجفا كاد الصـوت أن يوقف قلبي ·· وأراها كعصفور يلتقط الندى ويهش بجناح مرتعش ·· تنحني ، وتمرق ، تلمس الرءوس وتبتسم ، ترنو الى المنشد فيتملى ، ويتأنى ، ويتهيأ ويقول : « كن لي يا مضيء القلب صاحبا ··· » ·

ويتداخل الايقاع في هوس النفوس ·· وينطق شيخ يتكيء على عصاه ·· وعينه معلقة « اسقينا من غيمك الملىء » ·

وتمد يدهـــا ، وتفرد الكف ، وتلمس الرأس ، وتعب في صدرها غيمة من البخور المحترق وتصدح ‥ « أرونا يا ماسك الغيم وواهب النعم » ٠

وأراها من وراء حلقة الذكر فأدرك أن نارا تصطلى بداخلها ، وأحس برجفات الأجساد من حولى ، وبالعيون الوسنى ‥ ويشتد الذكر ‥ والمنشد يردد ‥ العبـــارة ويجزئهـــا ، ويترنم ‥ « يا واهب النعم » ‥

وفى الرجفة الأخيرة تختلط الأبدان ‥ وتنحنى عليهم ‥ ويتطاير الزبد ، وتحتوى رعشات القلوب ، وتترنح ‥ وكما لو كان الأمر مقصودا ‥ تمتد الأكف في لهفة حتى أنني مددت يدى دون وعى فاشتبكت بهم ‥

كان الجسد يستسلم للأيدى التى أخذته في رفق وحنـــان حتى أجلسته على الحشية المزينة بالحواشى الخضراء ‥ فى صدر البهو ٠

وحطت عينى عليها ‥ حين انحسر طرف العباءة الفضفاضة عن ساقين مبرومتين ولامعتين ‥ حتى كدت أشهق ‥ وامتدت يد الشيخ في حدب طاغ وأسدل العباءة كاملة فحكمت الجســد وقيدته ٠

★★★

كنت مغرما بارتياد حلقات الذكر ٠ تعلم أمى ذلك منذ كانت تصطحبنى معها فى سهرات الزار يوم أن كان والدى عصيا عليها ٠ وحين علمت بوجود العطشى فى البلد خافت على وتوجست ٠ ولاحظت غيابى كثيرا فى ليالى الذكر فاغتم قلبها ٠

لم أتخلف عن حلقة ذكر تكون فيه العطشى سـيدة المكان وقمره • وتقدمت خطوة ، فلم أعد أرضى بالصفوف الأخيرة ، بل زاحمت وارتكزت في قلب الصف الأول • لم تفلح مدافعات الرجال فى أثنائى • واقتربت ءرأيتها عن قرب •

تألق صوت المنشد ورجع ، ووقعت الأقدام فى لمسات رهيفة ، واهتزت سمرات الحصير الملون • وهلت « العطشى » كبدر يتبدى ، وتمايلت فى خفة غصن حركتـه نسـمة رخية •• ورمقتنى •• فاختلجت • وقعت عينى في قلب العين ، فانتفض القلب واتقد •• لم أقو على منع عينى فاصطحبتها معهـا •• وانتفضت ، ودارت ، وحجلت ، ولهث الجسد ونضوت عنى جلد خوفى حين جذبتنى الى صحن البهو ، ومرتع الحلبة •

تشتبك أصابعى وأدور • كانت تقودنى فى حركة مرسومة وئيدة اللمس •• ثم اشتعل الدبيب فأسرعنا • وأنا أدور فى مدارها خطفت عينى بريقا موءودا ، وانحسار رعشة فى الشفاة •• وتجذبنى فى قوة كأنما تئد نظرتى •• ونسقط وننكفىء ••

أجدنى محاصرا بأجساد ساخنة •• كانت العطشى تنهد على وتدك جسدى دكا ، وترتعش ، وتغيب •• وكانت الأيدى تتخاطفنى ، تكاد تمزقنى ، وتمزع ثوبى •• لقد اقتربت ، واستنشقت العبق ، وانتسبت الى الطريق •• ولم تفارق العيون بدن العطشى ، وما كفت الألسنة عن الهمهمة •• رما توقفت عن الذهول •• وغشيتنا خفة ساكنة أحبكت رهافتها فخلعت الأبدان من أدرانها المعتمة •• ويلم الرجال أنفسهم وينصرفون •• وأتلكأ • ما الذى جعلنى أبطىء فى الرحيل ؟ والليل جمع عتمته وأسلمها لغبشة ضوئية قادمة •• وأمى ــ حتما ــ يعضها قلبها وتحلف ــ فى اذعان ــ أن الليلة أخر الليالى •• وكل ليلة تحلف •

ما الذى جعلنى أنزوى حتى صرت آخر الرجال ؟ ٠٠ وحين لم يكن مفر ، وأربت خطوتى فاستبقتنى آمرة :

ــ انتظر ٠

وفاض داخلى بالفرح ، وشدنى حبل موصـــول لا يرى ٠٠ واسترخت أعصابى تنتظر الاشارة ٠ ونهضت ؛ وأسدلت سترها وطوقتنى بوشاحها وجذبتنى فابتسمت ٠ شدتنى فضحكت ، ثم أفلتت الوشاح وتنهدت ٠٠ « يا ماسك الغيم » ٠

عجزت عن التصرف فوقفت ، وخجلت ٠ غطتنى السعادة ٠٠ غشانى الفرح ٠٠ ما الذى يحدث لى ؟ هل ارتقيت درجة ، وصعدت عارجا الى القلب ، وانتظرت ٠

أخشى أن أبادر فأخطىء ٠٠ ولكنها ــ فى هلة مشرقة ــ أقبلت على ، وضربت صدرى بكفين مخضبين وقالت فى جذل :

ــ المرء مع من يحب ٠

وتضاحكت فأشرق ليل البهو وهمست :

ــ لا تنسنى ٠

وتبتسم ، وتحبك الوشـــاح على الرأس ، ويختفى شعرها الفاحم الأثيث ٠٠ وتقبض على الوجه عبسة وضيئة ، وتدفعنى الى الباب فى همس كالترنم :

ــ دعنى أستعد للفجر ٠

★★★

لم تفارقنى رجفة تشملنى حتى وصلت · كانت أمى تقف خلف الباب تنتظرنى · أحست بى ففتحت الباب قبل أن أدقه ·· كانت أسنانى تصطك فزملتنى ، وسحبتنى الى الداخل · طرحتنى على اللحاف ومسدتنى · استعاذت من الشيطان وقرأت فى تمتمة سريعة الصمدية والمعوذتين ، ورقتنى باسم الله الأعظم من كل عين رأتنى ولم تسم على النبى ·

لم تكن أمى تثق فى المرأة ·· اذ كيف تكون صالحة تقية وهى ترتاد حلقات الذكر وتندس بين الرجال ، وتخوض فى أمور غريبة · وتصيح أمى وهى تدعك جسدى فى غضب :

ـ عاقبها الله بالبلاء والمحن كما عاقبتنى

وأهمس فى خفوت :

ـ انها لا تعرفك ·

وتدس يدها فى صدرى وتدعك :

ـ خير لها أن تتزوج بدلا من خطفها الرجال واحتكاكهم بها ·

وأصيد فى عينى أمى تهويمة وأقول :

ـ حلقة الذكر كحلقة الزار ·

تتحسر أمى على أيام زمان ، حين كان الزار خالصا للنساء ، ولا تقيمه الا كودية محترمة ·

كانت أمى تعشق الزار وتسعى اليه ولو كان فى بلدة مجاورة ·· لا أذكر أنها تخلت عن عادتها الا بعد طلقتها الثانية · خشيت طلاقا بائنا فحبست رغبتها بين ضلوعها واستسلمت لأبى الذى مات بحسرته ـ كما تقول جدتى لأبى ـ من أمى التى لا تفترق كثيرا عن كيس القطن ·

وضعت فوق شفتى بسمة واهنة وقلت :
- ليتك ترينها ٠
ردت فى سخرية مباغتة :
- وماذا فيها غير طمعها فيما لا تملك !

تطلعت الى وجه أمى الضامر وقلت :
- وجه كالبدر ٠
اصطدت رعشة على الوجه وهى تدير رأسها :
- قبح الله وجهها ٠
وأسرعت فى صوت حاد وهى تطوح بيدها غضبا :
- كيف ترتاد مجالس الرجال ، وتشرب القرفة المصنوعة من الخشب الخالص والزنجبيل الحراق ٠
ومشت أمى بأصابعها على صدرها وتمتمت فى خجل مرصود :
- كان أبوك يحبه فى ليالى الشتاء !

★★★

حين سألت عنها قالوا تجالس القمر ٠ أعرف أنهـــا تفارق الأتباع وتختلى أواسط كل شهر عربى ٠ تنفرد فلا تسمح لأحـد بصحبتها ٠ أخبرونى أننى يمكن أن أراها عن بعد ٠ ولكن على أن أحذر وألا أقترب الا اذا سمحت ٠ أمالوا رءوسهم وهم يهمسون :
- اختارتك أنت ٠

حملت التحذير معى ووعيته وأنا أمضى الى الطرف الجنوبى للمقابر ٠ خضت فى نبـات الحلفا ، ووقفت بعيدا فوق قمة مقبرة

حجرية . كان القمر يتهادى ويتبغدد ويسن ضوءه ويخترق ، وكان الجسد يتلقى وينفتح .

رأيتها كالمهرة .. وتعجبت .. كيف لها كل هذه الوفرة فى الجهد ؟ .. كانت تطوف بالقبور وتضع أذنها عند المداخل وتبتهل : الرحمة .. وظلت تلاصق قبرا منزويا تحت أكمة من أشـــجار الصبار .. وتبكى .. تتخفف من دثارها الليلى الخفيف ، وتستبقى الدمع فى العين ، وتقترب .. تنشــق الشــفاة عن آهــة يفيض صهدها :

ــ « تحدثوا بصبابتى بين الورى » . وأقعت باكية ..

بدا لى أنها تنبش بأصابعها فتحة المقبرة .. وتعول .. كانت المقبرة خاصة بعائلتى .. دفن فيها أبى وجدى وأخى الصغير . ما الذى جعلها تقف أمام المقبرة ، وتطول وقفتها ، وتتحدث هامسة ، وتتناجى فى ابتهال يتشح بالحزن ويبتل بماء العين .

راح القمر فى نوبته يلقى ضــوءه وكان مسيل الدمع الحار يعكس الضوء ويكشف الألم ..

واقتربت .. وأصغيت .. لملمت فى سمعى حديثا عجبا .

أرهقها النشيج ، فجلست مقعية ، وفردت ذراعيها واتكأت .. وصاحت :

ــ فضحتنى .. ثم مضيت .

لم أتوقف عند الكــلام .. فكثيرا ما كانت تتحدث بكــلام مختلط .. ولا تزال نبرة صوتهــا الحزين ــ الليلة الفائتة ــ ترن فى مسمعى .. « أخذتنى بحبك .. وهجرتنى بوصلك » .. ولا يزال

توقيع المنشد عالقا وموصولا ٠٠ ولكنها اللحظة تختلف ٠٠ كانت تتحدث ، وتحتد ، كأنما كانت فى مواجهة حقيقية مع شخص بعينه ٠ وأنا على أطراف أصابعى أتسحب ، تلتقط الأذن أصداء القلب ، وأتعجب ساكنا ٠

طرحت « العطشى » نفسها فى الفراغ ، ودارت حول نفسها وهدجت :

– فى ليلة التمام فعلت بى ما فعلت ٠

فكت غدائرها ، وأطبقت على صدرها فارتج مكتنزا :

– وعدتنى ٠٠ لكنك أخلفت ٠٠ أخذت روحى وجسمى ٠٠ وتخليت ٠٠ ولجت ، ودخلت ، وما أبقيت ٠

وخبطت بقدمها فارتج القبر ، ولاح الساق مشدودا :

– أكان يجب أن تموت ليلتها ٠

وحبت اليه واقتربت ٠ أسندت رأسها على حافة المدخل واستكانت ، نثرت جسدها كالمهرة النافرة فتجسدت أملاكها . ثم انحنت ، لامس الشعر نبات الحلفاء الناجم ، ولاح فى عينى ظهرها المنحنى جسرا بلون المرمر ، وشهقت ، ولم أقو على الوقوف فانهد جسمى وسقطت ٠٠ تكومت أعضائى وقلبى لا يكف عن وجيبه الصاخب حتى كاد يفضحنى ٠ والكون كله تقاطر اليها وانتظر ، وأنا أرى الشهد يترقرق ويفيض ٠ وراح السكون يفرش ملاءته وينتظر ٠ وكفت الجنادب الملحة عن صريرها الليلى ٠

٠٠ غافلنى صوتها حزينا ، مغبشا ، ومتهدجا وبدت كما لو كانت تستجدى :

– تعجلت الرحيل ولم تنتظر ٠

دارت حول نفسها وتلفعت بالضوء وبكت ٠ ظلت تبكى حتى بكيت ، وكنت قبل أن تبكى أبكى ٠ وتألمت ٠ كيف يطيق هذا الجسد الناعم حملا ثقيلا كهذا الحمل ٠٠ وتخلت عن سكونها ، ورمحت ، وصعدت ، ورقصت ، تطلعت الى السماء ، وانتظرت ٠ فردت جدائلها بين أصابعها وتطلعت اليه ٠٠

ـ لبست الوشـاح وسلكت الطريق ٠٠ فضحنى ٠٠ كان يجب أن أفعل ما أفعل ٠٠ تواطات معه ٠٠ حين أرسلت ضوءك سقطنا ٠

انتفضت وصرخت ، ولوحت بيدها الى وجه القمر المنتظر :

ـ تواطات معه ٠٠ وفضحتنى ٠

حجلت فى ايقاع متراخ ثم انزوت فى حنية مرتفعة ٠٠ ولاحت تلمع فى الضوء ، ينعكس النور على جلدها ، ويفيض الجسم بنور يشع فرحا ٠ واغتسلت بضوء القمر ٠٠ كانت تجمع الضوء فى كفيها وتدلك الجسد ، وكانت المسـام تتفتح وترتعش ٠٠ وتتلقفه وتمتصه فى لهفة ٠٠ وتبتهج ٠٠ ثم راحت فى غنوة طويلة ٠

٠٠٠٠ ومع أننى مضيت اليها فى خفة ، الا أننى غضضت بصرى اغفاء حقيقيا ، وطرحت عليها عباءتها ٠

★★★

أصبح الأمر طقسا مرعيا ، فى ليلة التمام حين يحتد القمر ناضجا تتعرى عروس الليل كحورية خرجت من محارها المعتم ٠ ولم يعد الموقف غريبا على ٠

كانت تطلب منى أن أنضى عنها أشـياءها لتستقبل القمر ٠ وكنت أغمض العين مستسلما لمداعبات تفيض بالبهجة ٠٠ وكانت

تغنى فى بحة (حبك الآن بغيتى) وقبل أن تبدأ طقسها تطل فى وجهى وتهمس :

ـ كيف عدت ؟

وتمعن النظر ، وتظل تحضن وجهى . ثم تضمنى الى صدرها ، وتسحبنى بيدها حتى تقف أمام شجر الصبار ويتهدج صوتها :

ـ أحمد الله أنك عدت .

وترمى بالوشاح فى خفقة من الفرح ، وتتناجى :

ـ الآن سترتنى .

وأنتشي سعادة ، فلقد أصبحت سترا لها ، هذا الذى من أجله سهر الرجال الليالى الطوال وجهزوا الرحال .

★★★

شقيت أمى باخلاصى ، وطال الخلاف :

ـ من يزرع الأرض وأنت تقضى وقتك وراءها من بيت لبيت .

ـ اننى سترها .

ـ فضح الله سرها ، وهتك سترها .

ـ لا تغضبى .. انه القلب يا أمى .. وما عدت أحكمه .

ـ أوجع الله قلبها .. كما أوجعتنى مرتين .

ـ كيف تعاودين العطشى ..

ـ لن أتركك تضيع من يدى سأذهب الى الشيخ ليعمل لك حجابا .

ـ وماذا يفعل الحجاب حين ينكشف الحجاب .

وارتبط مقامي بين صحبة الطريق بأنني رديفها ·· ووسادة رأسها وباعث بهجتها ·

★★★

دققت الباب في وهن · كيف سمعت أمي ما لا يسمع ؟ ·· كم تمنت أن أعود لأروي الأرض العطشى ، وأبذر الحب في الشقوق الجافة ، وأطعم البطون الجائعة ·· وتصيح : نحن في حاجة اليك ·· ولكنها أيضا في حاجة الى ·· ما أن تحرك المزلاج حتى تكومت ·· صرخت أمي فهب اخوتي النائمون وخالي المقيم ·· حملني خالي ، ومضوا بي الى الحجرة الخلفية · دثروني بالبطاطين والأحرمة ، واصطليت بالنار ، وشربت سمنا ساخنا ·

قبعت أمي بجواري ، يقبض الحزن ملامحها وتبتهل :

ـ لتكن الليلة آخر عهده بها ·

وراحت أمي تجفف العرق · وكان يصلني حديثها متقطعا :

ـ تركتك كمصاصة القصب ·

راح النوم يطل على العين في تقطع ·· واشتبك قلبي معها ·

كنت ارتجف وأنا أرى الضوء يتجسد ، درجة فدرجة ·· لاحت الخيوط موصولة ·· وبدا القمر كأنما يرسل ـ في قوة ـ درجات سلمه ·· نهضت منومة بعد همود من رقصة طويلة متعبة · رمقتني ووقفت · يتعجلها الخيط المتجسد ، وادعوها كي نتم طقسنا ·· وألقت محبتها ، وغطى هواها بصرا زائغا ·· وصرخت ـ لا تتركيني ـ واهتز الخيط ـ الضوء ـ الدرجة ·· والتفتت الى ، لمت غدائرها ، وتوشحت ·· كانت تمضي اليه ·· وصرخت حتى ارتج الكون ، وارتعشت تلال العشب ·· (خذيني معك) ·

وجاءنى صـــوتها يضـــوى ويتلألأ (تحدثوا بصبابتى بين الورى) ..

ألقت أمى بجسدها كله على فنبهتنى .. وتعوذت . نادت على خالى أن يفتح المصـحف ويقرأ ســـورة « الجن » ، ويتبعها « بياسين » .. الولد سيضيع منـا .. اشهل واقرأ .. وحين بدا خالى يقرأ .. أخذنى النوم متقطعا .

كانت تخلع نفسهـا وتعرج ، وتميل برأسها وترمقنى .. كانت تعلم أننى أنتظر .. لكنها وضعت قدمها على ســلم القمر وخطت فى عروجها خطوة واثقة .. وابتسمت .. ظلت بسمتها عالقة بالضوء كأنما تعتذر .. وحين خطت ثانية .. باغتنى القمر وطوى سلمه .

●

انتزاعُ الوَشْم

- ١ -

أفاق من راحة مختلسة حين راح النمل يتحسس وجهه ،
آلمه أن النمل الذى صنع له جدائله لم يعد يطاوعه هذه الأيام ،
وأنه كثيرا ما يلبد فوق الجلد كأنما يذكره بعزلته التى طالت ،
ولصوته بنخلته الأثيرة التى سحبت منه عمرا وقلبا ، وأن أنسه
بالنجوم والقمر لا يوصد بابا للعودة ولا يحجب الغد الآتى . مسح
وجهه ودلف برأسه بين السعف الكثيف وأطل . لاحق الهواء ،
والشمس ، والعصافير ، والأجنحة ، وقضبان القطار .

شدت عينيه امرأة منطرحة على الظهر أحاطتها النسـاء فى
عويل كالندب ، ومضى الرجال يتلقون منهـا أشـكالا كالمسوخ
يدسونهـا فى التراب . كانت الغربان تقفز ، والحدآت تتربص
لحظة مباغتة . ارتعب ولم يصدق ما يرى . طوح برأسه ، ودعك
عينيه ، وحدق فى امعـان . كان جسد المرأة يتمدد ويملأ المكان
ويؤكد وجوده ، وكان الرجال يتوارون أحيانا .. ولم تكف الغربان
عن تحفزها وترقبها .

فى لمحة عين خاطفة لمحه . من أتى به ؟ . كيف عرف الطريق ،
ومن دله عليه ؟ .

كان الحاوى يعتلى تلا قريبا من جسـد المرأة . كشف عن
ساقيه ، ومد ذراعيه فى الفراغ . لاحت اليمنى قابضة على حجر

أملس ، والأخرى تتحسس بيضة كالالق · تحرك الكفان ، وتلاعبت الأصابع ، وتصاحب الحجر والبيضة ·· تلامسا ، تفارقا ، تمازجا ··

وانخلعت النفوس من همها وتردد صوته زاعقا :

ـ جاءكم المخلص فانتهزوا الفرصة استطال فى وقفته حتى بدا طويلا مبروما كالحبل وقال فى حدة :

ـ هرولوا الى ·· فانتم على موعد مع القدر

ظلت النفوس مكتومة بهمها فواصل صياحه وأرسل الحجر بين أصابعه :

ـ الحل وحده لدى ·· تدفع قرشا فيأخذك البساط الى الغد وتغفو مليما فتصبح كعنترة ·

رمى بصره على الجمع ، وأخرج من صدره زفيرا ممطوطا فلاح مدكوكا كالوتد · لاحقته العيون فترنم صادحا :

ـ أنا الحاوى ·· والحاوى أنا ··

نسى الجميع جسد المرأة فتقدمت الحدآت واختطفت الأحشاء والعيون · وظل الحاوى يردد :

ـ انطلقوا واركبوا البساط ·· وخيل اليه أن العيون الهامدة باحت بما فى القلوب فهبط نازلا فى ثقة ومشى بين الناس يردد :

ـ من يريد عنترة بمليم ·· من يشترى « الهلالى » بنكلة ·

ظل الناس على ما هم فيه ، ساكتين ، مندهشين ، مهمومين بجسد المرأة ·· زعق فيهم صائحا :

— تنبهوا ٠٠ هؤلاء لم يعد لهم سـعر ٠٠ نحن فى زمن الألوان ٠٠ فلا تتركوا الزمن يتخطاكم ٠٠ انفتحوا ٠٠ يرحمكم الله ٠٠

تحرك فى زهو ، واقترب من الجسد فجفلت الحدأة وتربص الغراب ٠٠ قفز على الجسد الهامد سبع قفزات ٠٠ وكان الحجر والبيضة يشاركانه قفزه المتئد الرزين ٠

فى القفزة الأولى قال :

— أمثال عنترة يجلبون الهم ويورثون الحسرة الدائمة ٠

وفى الثانية ردد فى حزن :

— انظروا ما حدث للمرأة واحكموا ٠

فى الثالثة ترنم :

— البساط الملون يجلب الحظ ٠

وفى الرابعة زها قائلا :

— أنا وعد القدر وبشارته ورجله المنذور لكم ٠

وفى الخامسة ابتسم حياء :

— افتحوا القلوب وتلقوا الوعد ٠

فى السادسة قفز قفزة عالية واستوى بجانب رأس المرأة ٠ كسا وجهه بحزن مدروس وتبدى فى عيون الناس مهموما ومحزونا ٠ شعر بأن عليه أن يبقى فى الأحداث هذا الشـعور فطرز حديثه بوشاح الرحمة ٠٠

ـ استروها ستركم الله فى الدنيا والآخرة ·

وفى القفزة السابعة مد يده وغاص بها فى جوف المرأة وتمتم :

ـ املأوا الفراغ ، وسدوا منافذ الدم ، وتمسكوا بالأمل ··

وقبل أن يتلاشى صدى عبارته الأخيرة كان قد عاد الى حركاته المدهشة · لم تستطع العيون أن تحدد فى حركة الذراعين موضع الحجر والبيضة ·· تبادل كلاهما الموقع والشكل ·· وظلت العيون مسلوبة · وظل يقفز بين الناس مرددا :

ـ من يرد اليمنى يصطف على اليمين ومن يطمع فى اليسرى يقف عند الأطراف هناك ··

كان الناس لا يزالون على دهشتهم ·· تركوا الجسد قليلا ·· ولم يتقدموا ·· واتت الغربان فرصة نادرة فانقضت تنقر القلب ·

أرعبه صـوت الحاوى وهو يزين الغد بلون الأفق الجميل وكفه اليمنى تلوح بقوة قابضة على البيضة ·· ونجسم على بطن الذراع وشم مرسوم بدقة فتذكر أنه كثيرا ما شاهد الحاوى كلما امتد به الطريق واختلط بالناس ·· كان لونه شـــارة عليه ، ثم أصبح راية يتخذها الأتباع دليلا · ولكنه وصل اليه ·· هذا الحاوى الذى لا يستعصى عليه شىء ·· وصل اليه فى عزلته منذ أن دس مضغة القلب أسفل النخلة وارتضاها مقاما ··

طفر الغيظ فى العروق ، واحتواه الألم ، وتدفق من شريانه صهد ساخن يحرقه وهو يـراه ·· يخدر الناس ، ثم يراه منزرعا يطوق عليه الأفق ، ويسد عليه الدروب ، ويخدش سكون العزلة · هتف ـ من وراء السعف ـ زاعقا بكل ما فيه ·· (سأقتلك يوما

بكلمة منى) • جـاب الصـوت الآفاق فاهتزت النخلة وتدلـت العراجين ، وفاز القلب •• فسقط وارتطم بالأرض •

وأخذه هاجس أن يكون الأوان قد حان ليواجه الأسود على سدرته ، ويثأر من الأتباع الحيتان الذين نفوه الى البرية البعيدة حيث الأحراش وسعف النخيل •• ترى أجاء الوقت ليقطع العزلة ويمشى بين الناس يذكرهم بالحق الذى ضاع ، والثأر الذى طال !! لم يعد أمامه بعد أن ظهر له الحاوى فى مقامه البعيد الا أن يخلع الجلباب ويعود الى الناس يذكرهم بالحلم الذى وئد ، والفسـاد الذى استشرى ، والبراءة المغتالة ، والمرأة التى راحت •• والبنت التى ضاعت •• و •• و •• وأدرك أن الأوان قد حان وأن الزيارة قد وجبت لصاحب المقام الرفيع •

- ٢ -

واتته الخفة فانطلق الى البيت العالى • كان المدخل غارقا فى غبشة رمادية • جابهته رائحة عطنة مخلوطة بدخان العود • صعد السلم واتجه يمينا ثم دلفَ الى البهو الواسع • رآه جالسا على بساط أخضر ، ومتكئا على وسادة زرقاء • أيقن أنه المطلوب ، وأنه الموعود باللقاء • أشار اليه فمضى • وقف فأومأ اليه أن يجلس ، فجلس قاعدا • دارت فناجين القرفة الحارقة وفاجأه قائلا :

– أتيت قبل الموعد •

أسرع فى ارتباك لم تخطئه عين الرجل :

– أكان يجب أن أتأخر !

– كل شيء بأوان •

قرر أن يغادر المكان بعد أن يحتسى القرفة · بعد رشـــفة واحدة شعر بارتعاشات صـــوت يتسرب الى مسمعه ·· لا تنس داخلك ·· تلفت فلم يجد أحدا بجواره · احتار خائفا أن يكون الصوت وصل الى غيره ·· أدار رأسه ، وأطال رقبته ·· فجاءه الصوت ودودا على غير توقع :

ـ لم تنضج الثمرة بعد ·

بدا له أن ملامحه تشى بما فى داخله :

ـ كيف تعطيك الثمرة حلاوتها قبل نضجها !

قرب اليه وعاء البخور وطير الدخان نحوه :

ـ ألا تعلم أن فى النضج النهاية !

تبسم فانعقد الدخان ، وذابت الروائح ، وانتبه الجمع ·

ـ استشر داخلك ·

تراقص دخان العود وانعقد كالغيم مخفيا وجهه للحظة :

ـ تلك دائرة مكتملة ·· كالموجة تموت عند الشاطىء ·

تريث الرجل المهيب قليلا فوقفت عيناه فوق شفتيه :

ـ انه لا يكف عن الحركة ، ولا يقف عند حد ، طالت فترته وأنت المقصود لذلك ·

أراد أن يحدد المعنى ويستكشف الطريق ولكنه أشاح بوجهه واحتسى قرفته وطير الدخان · نهض من مجلسه حائرا · لعله يدرك المقصود · ولكن متى ·· وكيف ·· انسحب وهو يحدث نفسه

بانه لم ينل شيئا ذا بال . وأن العودة محكومة برضاه وقصده . واجه الغبشة من جديد ، وقبل أن تطأ قدماه سلم الخروج فوجىء بيد تسحبه . وانفتح البـاب عن بهو ضيق يضوى بالثريات . ورآه يتصدر البهو . أدهشه أن يتواجد فى مكانين معا . وتساءل ما الذى جعله يرفضنى ويطلبنى ؟

وابتسم له الرجل المهيب . أشعلت البسمة النار فى جسده . واقترب . ظن أنه يمكن أن يحتضنه ، أو يقبله ، أو يتملى منه ويملأ العين .. فتقدم .. فامتدت اليد التى قادته وأبقت فاصلا بينه وبين الرجل المهيب بمقدار قامة انسان .

رمقه فى خلسة وقال فى تهدج :
ـ تـــكلم .

تلفت يمينا وشمالا ونظر الى السقف وقال :
خذ بيدى .

أشار الى تابع ، فحمل المبخرة ودار فى البهو :
ـ هل أثر فيك فقد الحبيب ؟

خرج من داخله تنهيدة حارقة :
ـ تأثير يفوق الحـد .

أزاح كم جلبابه فبدا ذراعه أملس ناعما :
ـ حدثنى بالأمر .

أفاض فى حديثه حتى كادت الأعضاء تتساقط ألما .. وعجز عن دفع البكاء فبكى .

استند الى المقعد وطوى فخذه وقال فى تمهل :

اغتصبوها دهسوا البطن ·· وانتهكوا المحرم ·· وراحت المضغة الصغيرة ·

امتلأ البهو بالأصوات ، فرفع رأسه فهاله أن يرى الأضواء مجسمة بشكل الطيور ·· وأجنحة العصافير الوليدة تعزف أنغاما تهز القلوب ·· وأعاده الى نفسه الصوت الرخيم والذى بدا كأنه موجة رخية تتهادى مع رفرفة الطيور ·

ــ أغرب الغرباء ·· من كان غريبا فى قومه ·

ومشت الأصابع على اللحية ، وترقرقت العين بنظر حاد وقال فى همس مقتدر :

ــ لا مفر من الهجوم · كثرت الأقنعة وآن كشفها ·

وارتكن الشيخ المهيب على وسادته الزرقاء ، ومد ساقيه ، وأشار اليه أن يقترب ·

ومد يده ، وأبقى يده فى حضانة اليد الرخية ·· وشعر بضغطة ، وضغطتين ·· وجاءه صوته حادا :

ــ هاجم ، فأنت المنذور للأمر الجلل ، أثأر لعرضك أولا ··

وابتسم له ·· كانت البسمة مسكرة ونافذة :

ــ أنت قادر على اسقاطه ·

أسرع فى وجل حقيقى :

ــ بمفردى ·

فأسرع الشيخ فى حسم :

ـ لا تنس أننا نحرسك دون أن تدرى ·

ـ كيف يتم الأمر ؟

ـ ضع الشارة أولا ·· ثم ترصده ·· واقتحم ·

ـ كلى اســتعداد ·

أشار الى اليد حتى أدخلته وقال :

ـ خــذه ·

قاده الى مكان ضيق ·· ومعتم ونطق فى حدة :

ـ مد ذراعــك ·

كان الصوت مقذوفا بحدة ، وبدت السحنة على شحة الضوء مقبضة ، والشفة مزمومة ، والعين تبرق كأنما تدفع غلا يرزح على النفس · لم يقف أمام الأمر كثيرا ، ولم يتردد ، فكثيرا ما امتدت الأذرع وانطوت ، وهو الآن فى موقف التأهيل ·· يكشف عن ذراع قوية يتلقى عليها شارة النجاة ·· وردد فى رقابة راجفة ! الأيسر ! ، وجاءه الأمر :

ـ الأيمن ·

وبدأت الابر تنغرز فى بطن الذراع ·· وكانت العين تقيس درجــة التحمل ·· مالت خطوط الوشم فى اللدن والدرجــة حتى استقرت على الأسود المزرق · وتبدى فى النهاية فارسا وجوادا ، وعصفورة ·· ذكرته العصفورة برفيف الأجنحة فى البهو ·

لاح السيف مثلومــا ، قاوم الجلد شفرة السيف وكف عن النزف ·

وتمعن فى الوشم قبل أن ينطلق ·· وصاح فى دهشة :
ـ سبحان من يحيى الموات ·

- ٣ -

مضى الى محطة القطار · وسـوف ينطلق منهـا عابرا كل المحطات · سيطوف كل الأرجاء يترصده حيثما كان · وسيمشى بين الناس محدثا وكاشفا عن طبائع التحول والتقمص · سيجتاز الجلد الى القلب ويهز الكوامن الساكنة · وسيلتف حوله ويدميه · وسيسقط سقطة مروعة يتحدث عنها الناس طويلا ·· ويتفرق دمه بلا أمل فى دية أو تعويض · وتمهل قليلا وهو يخطو خطوته الأولى وابتسم هامسا ·· « انهم يحيطوننى بعيونهم ·· » ·

شاهد التمثـال الضـخم قريبا من المدخل ، كان الجميع يسحبون عيونهم · عليه اتقاء لحركة السير المتصادم · وبدا له على ضخامته ضئيلا ساهم النظرة ، متهدل الأكتاف ، تنطلق ملامحه بتبرم واضح · هاجسه حنين الى القديم حين كان الملك ملكا ! · ورنا الى الهيكل الضخم وشاركه ضيقه فهو وان كان حجرا الا أنه فرعـون ·

اقترب منه ، سعى حثيثـا الى أن يضـع يده على كتفه فوضعها · ساخت اليد فى الحجر فتراجع مبهوتا · حدق فيه فوجده كمن يفتح جفنيه بعد اغفاءة ، لمح ارتعاشة فى الشفتين فوضع الأذن لصق الشفة وخرج الصوت يئز كدحرجة الحصى · قلب الأصوات وفك طلسمها ·· واتاه المعنى فتساءل مندهشا ·· أكان ينتظره حقا ؟ · وحدث نفسه فى صوت حاد ·· طال البلاء كل شىء حتى الحجر ·

وانطوت له الدرجات . وعبارة الشيخ تخترق مسمعه ..
« امسح البركله وترصده .. » .

كان القطار ساكنا ، فأسرع وحشر نفسه بين المتدافعين .
تعلق بعامود الحديد وضمن أن القطار لن يتحرك بدونه وأن الرحلة
باتت واجبة . مرق الى الداخل وألقى بنفسه على المقعد . وضع
« الخرج » على فخذيه فقد يمتلىء يوما ، فالوقت وقت البسط ،
ومن لا يملأ خرجه هذه الأيام فلن يملأ أبد . وارتفق النافذة ، وأطل
على المكان .. كانت اللافتات تدعو الى العطاء .. طاف ببصره على
الجدران وأعمدة النور وتجلت مصر الأصالة والتاريخ . فى لافتة
غاية فى البهاء ولاحت لافتة مسـيجة بالأخضر والأسود تدعو الى
البذل من أجل الوفرة . وتعبت عيناه فكف عن التحديق وأسراب
الذباب تعف على المكان .

وتناهى اليه صوت يعرفه ، استدار بجسده كله غير مصدق
.. كأنما يعفيه من عنـاء المطاردة ، كان يعتلى مقعده ويصيح
بالركاب أن يتنبهوا ويدركوا طبيعة العلاقة بين الحجر والبيضة ..
ها هو يختار مكانا لم يتوقعه ، وفرض عليه المواجهة .

كان الأسود يعتلى المقعد ويواجه الناس ، ولاح فى فضاء
المكان تشكيلات محيرة لحجر يطارد بيضة . كان الركاب يرفعون
أذرعتهم فى دهشة المستمتع ، وبدا كما لو كان لاعبا مجيدا لفن
تحريك العرائس . التقط العيون وجمع الأحداق فصاحوا : عاش
الأسود . وصرخ البعض فى حدة . هو الحاوى بذاته .. وطالبوه
بالمزيد .. فالرحلة ممتدة ، والطريق طويل .. ونسيان التعب
مطلوب والتسلية أمر واجب ..

رأى انشغالهم بالأسود فأطل من نافذة القطار ، لمح الموج يتهادى بالقرب من شاطىء اليم فتعجب أن يظل متموجا ولم يخرج بعد عن مساره ، وأنه مستسلم لا يقوى على الهدير وأن موجه لم يرو عطش القـــلوب وينفض العروق ٠٠ فكر أن يواجه الأسود بشىء يحاكيه فمادام لا يكف عن التلون فعليه أن يغير طرائقه وأن يواجه الحيل بالمخادعة ٠ وتداعت الأشـــياء فى ذهنه ، وتذكر جدائل النمل ، واستدعى ذاكرته وما وعت ٠٠ وفتح المداخل والمخارج ٠٠ لم تفته حركة الركاب وهم يدعكون الأذرع والسيقان ويحتاطون فى دعك الظهور والبطون ٠

وكان البعض من النســـوة ينظرن يمينا وشمالا ثم يدعكن الأفخاذ خفية ، على حين طوح البعض بالشيلان الرقيقة ومسحن الأعناق والآباط ٠٠ وتبدى الألم على ملامح الصغار وبكى الصغار منهم ٠٠ وكانوا جميعا كالمسحورين يفعلون ذلك وعيونهم على جراب الرجل وما حوى ٠

ومل لعبته جمع نمله وأحكم جدائله وغاص فى مقعده وأحس أنه بعيد عن هؤلاء المســـحورين الذين باعوا ألسنتهم فى المديح والتهليل ، وتساءل لم لا يدركون الأمر ؟ ومتى يضعون من على العيون الغشاوة ؟ وكيف يطول القلب فى مركزه ؟ ٠٠ أخرجه التهليل من شروده فرآه يضيف حركة جديدة يستلب بها العيون ، ظهر متطاولا يطوح بقيود من حديد ٠ وضـــع القيد حول معصميه ونادى فتاة سمراء جميلة متهدلة الشعر حتى الأكتاف ٠ حين تقدمت لاح الجسد ثريا يتفق عن ملابس ملتصقة ومشدودة ٠ تفرس فى الوجه مليا ، وخيل اليه أن العين تشبه العين ، وحدة الأنف واحدة ، ولابد أنها أخذت منه خفة اليد وخداع البشر ٠ غطى رأسها بمنديل محلى بترتر أحمر وحواف سوداء وزعق صائحا : ركزوا العيون ٠ تفرس فى الوجوه فوجدهم يهلون له ٠٠ مســـكت الفتاة بالمفتاح

وصكت القيد فى قوة · أغلقت القيود ولوحت بالمفتاح · دار على الركاب ·· مرددا : مطلوب منى أن أتحرر من القيد ·· فرش أصابعه المحتقنة بفعل حبسة القيد وقال : سأحرركم معى أيضا ·· صفقوا ان أردتم ولـــكن تنبهوا ·· قفز وانحنى وتكوم وتحررت يداه · نطق واحد فى غيظ : أعطته الفتاة المفتاح · نزعت الفتاة المنديل فتهدل الشعر ، تقدمت فتبدى الجسد ملتصقا بالثوب ، مدت يدها فى ثنية الصدر وأخرجت المفتاح ، نظروا الى الموقف وهللوا جميعا ·

باغتـــه المشهد فتســاءل : لم يلجـأ الى المراوغة وقد اعتلى السدرة ؟ وتوجس فى الأمر · فلم يعد اليقين محددا هذه الأيام · اختلطت الوجوه · ومشى البعض بوجوه البعض الآخر · أراد أن يتيقن من هذا الوجه المطبوع باللون الأسود والذى يتجلى له كلما تواجد مع الناس ، ويزاحمه فى خلوته ، ويخترق حنينه الخاص ·· وهذه الفتاة التى تأخذ من سحنته الحدة ، والمراوغة ·· من تكون ! ونهض من مقعده تجاهه ·· وقبل أن يمضى اليه جاءته دفعة قوية أوقعته ، ارتطم بالسيقان ، والأقدام ، وأدهشه أن يدا لم تمتد اليه وأنه فى موقفه بعيد لا يدرى به أحد مع أنه فى دائرة الرؤية · وشعر بسكون يشمل المكان حتى صوت القطار يكاد ينعدم ، تمتم وهو يخلص نفسه من التواءات الأرجل : لا فائدة ، كلما جئته هرب ·· وراعه أن يرى وجوه الركاب قد احتواها السكون فجأة ، وتهدلت ملامحها واسترخت ، وكأنها لم تكن للحظة غارقة فى الدهشـــة والضحك · توقع حركة ما منهم ، أو حتى مجرد عتاب لاحتكاكه بالأجساد والأعضاء ، الا أنهم لبدوا فى مقاعدهم وبدوا كما لو كانوا يتوقعون شيئا غريبا جديدا يسليهم فى سفرتهم ·· ولاح الأمر ينبىء باستلاب الارادة ·

ومضى الى مقعده عاجزا عن فهم الأمر حائرا عن الأفعال التى لا تخلو من قصد أو اغواء ، أو تواطؤ · تمتم متعجبا : كيف لم تواته

« العيون التى تحرسه » لمؤازرته للفتك به ! • ولم يخلو القطار وهو يقصد محطات البركله من العين ، والخنجر !! و •• وتوقف القطار فجأة • كانت الوقفة بمثابة اصطدام هائل ، أعقبته « فرقعة » مدوية • انفلتت الأعصاب والحناجر والملامح وتدافعت الأجساد نحو الأبواب والنوافذ • ظل قابعا فى مقعده ، ينتظر لحظة تواتيه ، فلعل احدى العيون تكون هنا فى مكان ما •• أو ربما تكون وراء الهزة نفسها • كانت الأبواب موصدة ، والقطار يئن وعربة الكارو بحمارها قد تطايرت أشلاء دقيقة ، وصاحبها يبكى من شدة النازلة التى ألمت به •• وغشيت المكـــان علامات من الحمد والطمأنينة فما الذى يمكن أن يحدث للقطـــار من أجل عربة كارو ! وعادت الأرواح المسروقة من أبدانهم ، وتمشت الأصابع والأكف والأيادى •• وسرت حركة الهمهمة والقطار يستعيد مشواره وينطلق •

وكانت طفلة منفلتة من حضن الأم تعافر فى حركة دءوب أن تطل من النافذة ، وأن تهبط الى أسفل ، وأن تشاكس الأصابع الممتدة ، وأن تضحك ، وتعبس •• وصادت عينه عينيها البريئتين ، وغاص قلبه وارتجف ••

كان فى لحظة الصفاء يستند الى حضنها الدافىء ويطل فى العين الرضية ، وكانت تعرف من النظرة أنه يحب أن يبوح •• وكانت تحب أن تسمع البوح ، وتسعد به •• كانت تشعر أنه يحادث داخلها وهو يضع أذنه يتسمع النبض ، ويتابع الحركة ويفرش بأصابعه متتبعا الحركة ، وهى تتلقى الخبطة ، ولمســـة الأصابع فى نشوة تحتويها ••

. ويطل من عينيه وهج الحب ويقول : أريدها بنتا •• تأخذ منك العين والشعر والقلب والحكمة وتســـافر عيناها فى البعيد وتقول : أريده ولدا ، تعطيه الجسارة ، وتطعمه الحب ، والطهارة

٠٠ ويضحكان ، وينظران فجأة فى مواجهة مشـــمولة بالحب ، وينطقان معا : لا تحلم ٠٠ لا تحلمى ٠٠ وما الذى يقف أمام الحلم ! ٠٠ كان عاجزا عن الاجابة ، فكل ما يراه ويحدث ، يولد الحقد ويذهب بالحب بعيدا ، ويؤكد أن الغرس الجديد لا يكون فى تربة عفنة ، ومدنسة ٠ وهذه الطفلة التى يراها أمامه ٠٠ كيف تمضى بها الأيام ! تقلص قلبه ، وعضه الخوف وتداعت فى القلب نفسه آلام الفراق والموت ٠٠ فامتدت يده اليها ٠٠ وسحبها فى هشاشة تسيل من عينيه ، وأبصرته الأم فاختطفت الطفلة ودفســـتها فى حجرها وعقدت ذراعيها ٠٠ مع أن عينيه فى هذه اللحظة كان يسيل منهما أمان مبلول بدمع سخين ٠

كانت البنت لحما طريا ، لم يفرح بها ، ولم تفرح به ٠

هذا التزصد للزوجة مقصـــود ٠ كانوا يعرفون كل شىء ، الحمل ، والترقب ، والعناد ٠ يذكر أنه لم يهن أمامهم ، ولم يلن ٠ هذا الاغراء بالمركز ، والمال والشاطىء وأبوة هادئة لمولود جديد ٠٠ لم يستطع أن يهز موقفه ٠ كان يود لها أن تولد فيدثرها بالطهر ويرضعها لبن الأم النقى ، البهى ، المدخر ٠ فما فائدة أن تحيا هى ويموت الآخرون ؟ ٠٠ لم ينس يوما أن موقعه ــ ان ضل ــ نافذة لفساد كبير ٠٠ فطوى صفحة الاغراء ، والتهديد وانتظر اخضرار الأمل وانبثاق الفجر ٠٠ فجره الذى يحمل صيحة البداية ، وبسمة الغد ٠٠ وغده الذى يتمنى أن يرق فيطول غيره ٠٠

ولكن البنت جاءت ولم يفرح بها ٠٠ كانت لحما طريا ٠٠ زعقت مرة واحدة ثم استكانت ٠٠ حين جرى بالأم الى المستشفى ، كان كل شىء قد انتهى ٠٠ عجز الطب أن يوقف الضغط ، ويمنع الرأس ، وانزلق اللحم المدمم ٠٠ وظل جسد الأم يرتجف ٠٠ ويتقلص تحت المخدر وبعده ٠٠ لم يهتم بالتحقيق ٠٠ فلن يعيدوا

اليه ابنته ، ولن يتعرفوا على هذا الذى دفعها بغل مقصود ــ فى بضعة الأيام القليلة الباقية ــ على سلم لمبنى شـــاهق وســـط العاصـــمة ٠

كانت البنت لحما طريا ، يميل الى الزرقة ، وكان القلب ينبض نبضته الأخيرة ٠٠ والفم الصغير الواهن الدقيق يزيح رغوة البطن ٠٠ وينطبق ٠

أخذها فى حضنه ، ألصقها جلده ، وعدا هربا ، وتبدت الجهات كالسدود ٠٠ ولم يبق الا اليم ٠٠ كانت الأصوات تحيط به من كل جانب ، تئز وهو قابض على مضغته ، وبدا الأمر كأنه الحصار ٠٠ سنقتلك ٠ تلك البداية ٠٠ سنطولك حيثما ذهبت ٠ انتبه ٠٠ نحن نحرك الحياة ، ونصنعها ٠٠ ولم يبق الا اليم ٠٠ وغاص وطفا ٠٠ وانطوى الماء ٠٠

جاء حملها متأخرا ، قال الأطباء : ليس ثمة عيب ٠٠ لكن الجسد غير مهيأ لتحمل الأمر ٠ كأن الحب لا يكفى فى تهيئة الفعل ، وكأن شيئا مســـتترا خلف الخلايا كان يبث اشارات غامضة أن ينقبض الرحم ويمنع اللقاح ٠ ولم يمل حبها ، كانت ذراعه الذى يتكىء عليها ٠٠ وفى عينيها الجميلتين الوسيعتين الهدباوين بنهما الأخضر المعقود يستحم ، ويتدثر ، وينتشى وينطلق ، ويعاند ٠

كانت تأخذه فى الحضن ، وتخلع عنه ثوبه ، وتخفف من نشوته ، وتنظر الى البعيد ٠٠ (حين تفتح أبواب جهنم ، ستكون أول الداخلين ٠ قد يتركونك تقول ٠ ولكن لن يتركوك تفعل ٠ وأخشى أن تموت مرتين ، مر بى ، ومرة بك ٠٠) ٠

كيف لم يلحظ وقتها أن الجسد بحس داخلى غير مرئى يتفهم جيدا الموقف ، ويؤزرها فلا تحمل ٠٠ وكيف هزه قولها فى حدة

عاقلة (دعنا نمضى ونترك البر كله) ٠٠ ويحيطها بأنفاسه ، بقلبه ومشاعره ٠٠ هذه البنت العاقلة ، التى درست واستوعبت ٠٠ كيف أحبت وخافت ورفض الجسد !! ولكن العصى قد بات ذلولا ٠٠ فى لحظة مفلوتة من رقابة الداخل حملت ٠٠ فغرد العصفور ورتل الحمام ونجم الزنبق من غصون مسترخية ٠

ولكن البنت فى حضنه ، أمله الذى ذوى ، لصق جلده ٠٠ يخوض بها الموج الذى انطوى له ٠

حين وصل الشاطىء لاهثا ، كان اللحم الطرى قد ضرب فيه السواد ولمع الأديم ٠٠ وبدا الكون غافيا كأنما لا يبالى بأحد فكوم قبضته وسددها الى الكون كله ٠ حفر قبرا من ثلاثة أشبار ، وأسلمها الى جذع النخلة ٠ وذاب الجســـد فى الجذور والعرق والســـاق ٠

٠٠ أطل من نافذة القطار فلاح الأفق ملفعا بالأحمر المصفر ٠٠ لا يذكر أنه ارتاح للأحمر ٠٠ يظل يتداخل أمام العين فى أرجوانية مرعوشـــة يبدأ باضـــمحلال الأصفر حتى يتيقن الأحمر ويمضى الى السواد ٠٠ حمرة قاتمة تذكرك بطين الأرض المحروق ٠

والقطار يندفع ويصدم الفراغ ، ويهب الهواء كالموج وتلوح كالغيم عصفورة ملســـاء كاللحم الطرى ، فمد الذراع ، فرفرف الجناح ، ونقر المنقار ، وحطت على الذراع ٠٠ كانت رقة مرعوشة تسيل من عينيها ٠ التقطها فى رهافة ، اقترب المنقار من شفتيه الغليظتين فأحس به كلمسة الوليد فارتجف ٠

ذكرته باليمامة الوديعة التى اتخذت من النخلة عشا ٠ اكتست الجيرة معها برداء ٠ رهيف من حنـــان الأب ٠ لم يتوان عن بث

التراتيل • حتى اذا دعاها خيط النـور لبت نداءه فى اتجاه ضوء الشمس الوليد • وظل ينتظر عودتها • مهد لها العش ، وجهز الطعام ، كان يحادث نفسه بأن غذاءها من جمار النخلة يعطيه الحق فى العتاب والزجر أيضا •• فهى تتغذى من عصارة البنت ، من لحمه هو •• لكنها تعودت أن تتأخر ، وحين عادت وقفت فى حياء •• ثم طارت وحطت • طال العنق ودارت ثم توارت •• وهو الذى ينفضه قلبه ان تأخرت •• يرمقها من بعيد •• كانت لا تريده أن يرى فرأى • كان فرخ اليمام يتسلل خفية ، فأدرك أن الفجر موعد الهجر • قام الليل طوله يعيد التراتيل فلعلها تعى شيئا من أحزان القلب ، فليس كمثلها يمامة اقتاتت من لحم الجسد •• ولكنها ولت •• وفرت •• وتأكد أن الفجر موعد الهجر •• فسال الدمع سخينا ••

هو الموعود بالأسى والحزن ، المنذور للفراق والهول •

وهى الموعودة بالغرم والفقد ، ولعها باليمـــام والعصـــافير والكناريا لم يشفع لها ، رقة العين واكتمال البهاء سعيا بها الى الهجر •• حتى الفقد الأكبر ـ البنت ـ داســـوه وبدا كالوطء المتهن • ومع أنهم طووا الآلام الا أن الهاجس المتربص ظل كالغيم لا يمســـك ••

لم يطل غيابه عنها هذه المرة ، فسفرته الأخيرة الى الشمال حرص على ألا تطول • حمل معه الثوب المزين بالأخضر الهادىء واللون الوردى •• فتح الباب وانتظر ، كانت تشم رائحة عودته فتهل ضحكتها وتورق فيسرع ويخبئها فى القلب ويسترها من العيون • يأخذها فى صدره ويضغط ، وتذوب فى حضنه وتستمهله •• فالليل طويل •

الليل طويل طويل ٠٠ والصمت يمتد ويطول ٠٠ ويتجسم كالجدران الصلدة ٠٠ ظل يطوف بالأركان ، يتشمم الأماكن ٠٠ كل حنية تزخر بلمساتها الوضيئة ٠٠ الستائر المسدلة تضوى برائحة الياسمين ٠٠ لكن الصمت يدب ٠٠ وهلتها تتباطأ ٠

ولمحها ٠٠ أطاع الهول به ٠٠ حين لمحها ٠٠ كانت تتساقط عضوا عضوا ٠٠ نظرت اليه فى انكسار فأخرسه الخوف ، هدر شلاله فغطاها ، أنامها ودثرها ، أفرد ساقيها ٠٠ وأسبل العينين وبكى ٠ سرسوب الدم على الفخذ يعلن عن ألم لا ينتهى ٠٠ وضعت كفها على بطنها وتألمت ٠٠ وراحت فى نشيج كالولولة ٠

اقترب منها فى حذر : من ؟ ٠ وتغوص به الأرض وتميد ، تذبحه النظرة ، كأنما تعلق فى رقبته اتهاما ٠٠ ألم أقل لك ! ٠ وينطق خـــوفا : هو ! وتنشرخ العين ٠ متى ؟ وتتلوى العنق فى موات ٠ كيف ؟ ٠ وتسقط العين فى حمرة الوجه ٠٠ ويتهاوى فى الذلة ٠٠

تراءى له الشبح منتصبا ٠٠ ترى من سيأتى عليه الدور ومن يقوى على التحدى !! وخيل اليه أن الصوت المعتم يجلجل فى أذنه ٠٠ ستحيا مغتالا طوال عمرك ٠٠

٠٠ وطال المساء وما رأى مساء بهذا الطول وكل هذا الألم ٠ وكبل العجز جهده وجاء الفجر ٠ ومع أول خيط الضوء سافرت روحها الى البعيد ٠ دثرها ، ووسدها ، ومضى الى اليم ، كان يجرى ، وكانوا يجرون ٠ كان يتلفت الى الخلف ، وكانوا يتقدمون اليه ٠ راحت المسكينة وتركت مضغة القلب ٠٠ مولود الموت ٠٠ رمح بها ٠٠ حتى هى كانوا يريدونها ٠ يحرمونه منها ٠٠ ينزعونها ٠٠

يقطعون الوصل ، ويفصلون الامتداد ٠٠ وكان يجرى ، وكانوا يرددون (وقع) ٠ وكانوا يستميلون ، ويهددون ، ويقتلون ٠

ويسلخ من داخله صوتا ملتصقا ساخنا ٠٠ ويرفض ٠٠ كيف يوافق على الموت ٠٠ الموت بالأسمنت كالموت بالبودرة ٠٠ كالموت بالحرب ، كالموت بالقول ٠٠ كالموت بالصمت ٠٠ كالموت بالموت ٠٠ كالموت ٠٠ (ـ موتك على يدى ـ لست الاله ـ أنت تعلم أننى قادر ـ كل نفس ذائقة الموت ـ ستخرج مطرودا ـ ليست البلد ارثالكم ـ أنت الآن مطارد ـ ولكنك لن تهزمنى) ٠

كان الاعياء يسد أمامه منافذ الطريق ، ورأى نفسه يردد ٠٠ أكان يجب أن أوافق ! أكانوا يتركونها حتى تلد البنت ؟! ورأى نفسه يردد ٠٠ ولكن الفساد يجلب الموت ٠ من يدرى ماذا كان يمكن أن يفعل بها الفساد لو عاشت ؟! ٠ وجاء صوت عميق رهيف يكاد يخرق القلب ! الموت يكمن فى الطريق ٠ أراد أن يتجلد فتجلد ٠٠ وهاجسه القلب فى خفقة مباغتة ٠٠ أغاب عنك أنه كاسر القـــلوب ٠

٠٠ زفر فى عمق حتى كاد الجسد يرتج ارتجاجا ، وردد فى رتابة مهموسة :

ـ أكان يجب أن أوافق ٠٠

ونهض من مقعده ، وعصفورته بين كفيه ، وصاح فى حدة :

ـ أكان يجب أن أوافق ٠

لم تطل ـ كثيرا ـ نظرات الركاب ، ولم تستمر ضحكات النسوة خلف أكفهن ، ولم تتركه عيون الصغار ٠

·· أصابه هم طارىء ألا يدرك هؤلاء مقدار تضحيته ، وعمق آلامه ·· وتذكر أنثاه الحبيبة · فارتجف ، ولبد في مكانه حزينا ، منكمشا ، كأنما يريد أن يتداخل · وتهند فبدا الهواء ملونا ، بصهد الـدم ·

انسلخ عن المكان ، والعيون ، وهدير القطـــار وربت على عصفورته ، فهى وحدها التى تذكره بالأحباء · لم يعبأ بالنظرات المتوجســـة ، ولم تؤثـر فيه رقرقة الدموع فى عيون العجائز ، ولا جمود الرجال ·· اقترب من العصفورة ورتل عليها آيات من أزمنة الهجر والعجز والتلون ·· وذكرها باليمامة ، ووعدها ــ ان لم تهجر ــ ألا يفارق ·

وطارت العصفورة ، وحطت · وانطلقت الأصوات راجفة : كيف لعصفورة زغباء أن تطير ! ومن هو ذلك الذى يلبد فى مقعده باكيا يلاعب الهواء ، ويناجى العصفورة ؟ ·· أى مخلوق هو ؟ ·· أولى هو ·· أم حاو جديد ؟

واتجهت العيون اليه ·· وكان يتابع عصفورته وهى تتقافز من مقعد لآخر وتحط فوق السيقان ، وتطيرها الأيدى ·· وتنزلق فى خفة ، فتنقر اللحى ، وأثواب النساء ، وصدور الفتيات ، وعيون الفتيان ·· وبدا لوهلة خاطفة كومضة البرق بقعة سوداء عند القلب كهيئة الخاتم وبملامح الأسود ·

وتمتد الأيادى الى العصـــفورة ·· تمتد فى غل من تعرى وافتضح ·· واندست الأصابع فى الأحشاء ، وبدا المشهد كأنه لامرأة مبقورة البطن · ويهب من مقعده ، طالوها قبل أن يصل اليها ·· بقروا البطن ، وترصد الغراب لحظة انشغال واحدة ·· أخذه السفر ولم يحم أحباءه ·· وخلع ثوبه وغطى الجسد وجلس بجانبها يبكى تلك التى أعطت وما بخلت ، وحذرت وما وعى ·

رآه فى بهو العربة لابسا درعه ، فتذكر عنترة بن زبيبة وهو يلبس لأمته ، ويمتطى جواده الأبجر ، وفجأة رآه يخب فى ثوب أبيض فضفاض • لم يدهشه أن يتشكل الوجه ، ويتغاير الرداء • وكيف يتصالح العنف والوداعة ؟ •• وتأكد أن الوجه واحد والجسد واحد •• وفز من مكانه صائحا :

ـ لا تتحـــرك ••

واقتحم البهو والفراغ والأجساد ، وتطارحا ، وتماسكا ، كاد أن يهوى به لولا الناس الذين تقدموا •• أحاطوا به وصاحوا فى صوت مرعوش « يحيا العبسى » •• هاله ما سمع فزعق كالنفير :

ـ الأسود صاحب الدرع هو الحاوى ماسك الحجر ، هو الذى دس يده فى جوف المرأة ، هو قاتل حبة القلب ، وخاتم القلوب بخـاتمه •

طغت صيحاتهم على المكان ، وغطت العيون والأفئدة ، وحجبت صوت القطار • وانتزع جسده ، وقفز قفزة هائلة ، فطال ذراع الأسود وشق الرداء • لاح الوشم سافرا على بطن الذراع ، حمحم الجواد من شغطة الفارس ، وكان طائرا كالعصـــفور يرف على الكتف • أصابه الذهول فجاءته دفعة قوية أعادته الى مقعده •

•• أحس بالوحدة ، وكشف عن ذراعه • كان الوشم الأخضر فارسا وجوادا وعصفورة • مد يده وقبض على الفارس • تقلص الوشم تحت أصابعه • كاد الفارس أن يهرب فأحكم عليه قبضته ، حاول الجناح أن يطير بالعصفور فغاص به فى الجلد ، وكلما تدافعت أرجل الجواد ساخت به الى اللحم •• وتقلص الوشم تحت الأصابع ، وصاح فى صوت كالبكاء :

ـ ليس منى هذا الذراع ٠٠

وتساءل فى هوس مجنون :

ـ كيف رسموك فوق ذراعى ؟

وكان الوشم لايزال ، فمد ذراعه بطوله ٠٠ خلعه فى قوة قاسية ، فسال الدم ولون المكان ٠٠ فتح النافذة ، ورمى بذراعه فى البحر ٠

●

غارة القمر

جاء المولد فى موعده فامتلات الرحبـــة الواســعة بالجموع المحبة ، وتداخلت الرغبات وسهرت القلوب على ايقاع الأضـــواء المنسكبة ٠ وعلى حزام الأفق البعيد لاحت عينان يطل منهما نور شاحب يفيض بالدمع ٠ كانت الأم تبكى وهى فى طى الأفق هذا النبذ الذى طالها والنسيان الذى هد كيانها كله ٠ وكان الرائى يراها قابضة على جوفها ، تعافر وهى تنزع كبدها النيئة وتنهش ٠٠ وتصرخ ٠٠ ولدى ٠٠ ولدى ٠٠ وكان البدوى قائما فى مولده ٠

تعالت أصوات المنشدين ، اختلطت وتلاشت ٠ وبزغ صوت كالأنين يساعد من دف قديم ، يزاحم الضوء ، ويعتلى الهواء عله يفقأ هاتين العينين ويخرق الأذنين اللتين رفضتا أن تسمع رجاء الرجل ، وبكاء الولد ٠

٠٠ وسحبت أصــوات الربابة مداخــل الأســماع وسافرت العيون مع أضواء النيون وتسللت الى الخيام تلتقط حركة المنشدات وتبقى عليها ٠ وطاف السيد بالأتباع ، فتداخلوا ، وبدت الأغلال تجذب الرقاب وتثقل الصدور ٠

وأخذت المنشدات يطرحن الآهات ويبحن بالغــرام فقبضن على القلوب وقامت حلقات الرقص فاشتبكت الأجساد واسترخت الأعصــاب وتلوت حبــال « النارجيلة » فى المقاهى والأخبية ، ومد القمار يده الى الجيوب ، والقلوب ، والنقود ٠٠ وتمدد ٠

وكان كما هو ·· لايتحرك · ولا يفارق مكانه ·· وما اهتز لما يرى ·· قبع فى ركن بعيد يرنو وينتظر ·· أرسل أيوب سمعه الى خضرة التى لبست الحرير ونادت على الصبر ·

***

حين أقبل تداخل الطوار وأفسح المكان ، واندك هو واقفا كأنه ملصوق بأديم الأرض · حرك رأسه فتمايلت حبال الطربوش القديم المدفوس باحكام ، وعكست النظارة السوداء الأضواء ، وبدا عموده الفقرى – فى انحناءة نحو الصبى – ناتئا كدرجات سلم صخرى ، تهدم وأصابه البلى · أخذته تنهيدة عميقة هزته وذكرته بامرأته وهى تتقافز على ظهره وترتاح على درجاته المنزلقة · وهبت ريح شتوية فرفع ياقة جلبابه الصوف وحمى قفاه من قرصـــات البرد · كان الصبى يلاصقه ويقف منتظرا ·· وكانت عينه تمتلىء بالقذى الذى يتساقط ، وكان الحذاء يسمح لأصابع القدم أن تتحرر من ضغطة الجلد وعفونته ·

ودارت عينا الصبى تطوفان بالمكان ، ففى ليلة الختام يسهر الشباب ، وتحجل النساء بسيقان ممتلئة ، وتتعالى خبطات الخلخال من خيمة الأضـــواء ، ويصك مسمعه ·· خضرة ، وســـكينة ، والحاجة ، وطه ·· وراوغته الأذن فتسمعت صدى الصبر يغنى فى الموال ·· فأدار فى بغتة ·· رأسه كله فرأت عيناه أيوب يبكى ، فسقطت دمعتان عصيتان على اصبع قدمه النافر من جلد الحذاء · ولاح الناس – ككل ليلة – يتصايحون ويتدافعون وكأن يدا خفية تدفعهم الى « أنغام » النيون ·

والرجل فى حنية الطوار المسموح بها يعالج أوتار كمنجته ويصنع العجب · وبلغ الصخب خلجات الأوتار ، واحتوى ايقاع

الدف فى يد الصبى · وجاءه صـــوت هارب كالحكمة : من يرق سمعه فى جوقة الصخب · فأمال الرجل عنقه وبدا كالمنتظـــر · أرخى الصبى دفه وحدق فى الناس · ضغط على نفسه وكظم غيظا يزلزله وهو يراهم يلوون رءوســـــهم كلمــا مروا بهما كأنهما صرصاران · والرجل بجانبه لا يرى شيئا · كان ساكنا كالحزن القار فى القلوب ·· وتمتم فى حدة :

ـ يستمتعون بكتلة اللحم وهى تتحرك تطولها الأيادى ·· وتنفتح القلوب ·· ويطوى النيون الأهداب والأقدام والألسنة ·

خبط بقدمه الأرض فاهتزت ولانت :

ـ الدف فى يدى يشجى الأصم ·· لكن القلوب موصدة ·

لم تخطىء أذن الرجل حزن النغم الذى وصلها فامتـــدت الأصابع تلعب على الوتر ·· وناوش بحساسيته تجاعيد الزمن ·· لكن صكة الدف بفعل الغل ، أكلت حزن الأنين وأغرت الطوار أن يتمدد ·· فتمدد فى بلادة ·

★★★

خلع الصبى عينيه من قسوة ما يرى · كان الزحـــام شديدا أمام الخيام ، والمزامير ترتل ، والأنغام المهوســـة المنفلتة تخادعه وتخترق مسامعه ·· ويظل كما هو وحيدا متفردا لا يهتم به أحد ولا يتوقف أمامه واحد ممن يتزاحمون لرؤية المغنية والراقصـــة الفارعة ·· وغرق الرجل فى الصمت ·· وكانت الأضواء تمســـك بالفراشات وتحرق الأجنحة ، وأيــوب فى ركنه البعيد يجاهد · وخـــرج الصوت حـــادا ، قذفه مرة واحدة واستكان ·· « أيوب يتعلم منا الصبر » ·· وظل جسده يرتعش فاختلج الرجـــل وأمال

رأسه ، ومد يده ، وتحسست الأصابع الرأس ، والشعر والأذن ·· وتوسدت الكتف ·· قاس المسافة بين القلب والقلب وفرح :

ـ والله ·· كبرت يا عكروت ·

وصمت لحظـــة ·· كان القلب يفيض بألم حقيقى غطى على سعادته بالولد ·· ثم تمتم :

ـ مالك !

لم يجب الولد ·· فما أهمية أن يقول لرجل لا يرى ·· وقبض على يده وجلس ، اتكأ الرجل على الكتف وجلس ·

احتضن الكمنجة ، وفر صوت هارب من لمســـة طارئة · وبدا الجسدان كأنما يتداخلان ·· واستكان الليل فى غبشة الضوء ، وهجرت خيوط القمر مراياها وحطت على خدود السماء ، وهب الهواء الخريفى يمسح الوجوه وينعش القلوب ·· واختلطت الســـحن وتمكنت الضوضاء من المكان ، وخيمت عتمة مفاجئة فلاح القمر واهنا ·· وجأر الميدان واستغاث ·· وأطال الرجل وجهه ، وقرب فمه ، وهمس فى أذن الولد ·· وراح الوالد يشد جلبابه ، ويدفس الدف فى حجره ·· ويطلق عينيه ·

··· كانت البنت الصغيرة تدفع أمها دفعا ، وكانت عيناها مصوبتين نحو الرجل والولد ، وأخذتها انحناءة الرقبة واهتزاز حبال الطربوش المدكوك فى الرأس ، والنظارة المعتمة ، وحركة الثوب الضاغطة على الفخذين ، واستسلام الدف لضربات الولد الصغير · ثار شجنها البرىء وشدت يد الأم واتجهت نحوهما · نبهت أمها الى الولد الصغير ، وحذائه المفتوح ، وثيابه البالية ·· ورددت :

ـ الجو بارد ·· يا ماما ·· والولد بردان ·

لم تقف المرأة طويلا ، أخرجت من كيسها عملة صغيرة وأعطتها للبنت · وأخذت البنت الورقة المالية الصغيرة ووقفت أمام الولد ومدت يدا واهنة ·· لم يفت الولد حركة اليد المرتجفة فأطال اليها النظر ، رمشت بعينيها ومشى حياء مندهش على الوجه ·

اقتربت ومدت يدها الى آخرها ·· وظل هو يحدق فيها · كانت عيناه واسعتين قرأت فيهما أمواجا مختزنة ·· وحين التفتت الى أمها واسحبتها من يدها بقوة ورمت بالعملة فى حجر الولد ·· تطلعت الى الأم وقالت كالمستجدية :

ـ ماما ·· الولد يبكى ·

ولما لم تجد اهتماما من الأم تحشرج الصوت حتى باح بالألم :

ـ كان يجب أن نعطيهم أكثر ·

لوت الأم رأسها ونفضت شالها وقبضت على يـد البنت فى شـدة وقالت :

ـ نحن لا نصلح الكون يا حبيبتى ·

وسحبت البنت كفها غاضبة :

ـ لكنهم غلابة يا ماما ·

ونهرتها الأم أن تفعل ذلك ، فالزحام شديد وقد تضـيع فيحدث لها مكروه ·

خافت البنت فاستكانت ولبدت فى حضن الأم ، والتصقت بالجسد · ربتت الأم على ابنتها ، وتوقفت لحظـة ثم قالـت ببـطء :

ـ من أدرانا ـ يا حبيبتى ـ أنهما يستحقان العطف ·

وقفت البنت فجأة وفتحت عينيها :

– من يستحق اذن يا ماما ٠

– كثرت الحيل ٠٠ فلم نعد نعرف من يستحق ٠

ورمشت البنت ، وتعثرت ، والتصقت بالأم ، وقالـــت في رجفـــة :

– هما مهذبان ٠٠ أرى معهما كمنجة ٠

وعادت الأم تحكم قبضتها على البنت ٠٠ وحطت عينا البنت على الولد ، وكلما واتتها فرصة حركت رأسها في التفاتة سريعة حتى غيبها زحام المولد ٠٠ ووعى الولد تماما هذه اللفتات الحانية من البنت ، وأمضه أن يرى الأم تقبض على كف الصغيرة بلهفة من يحب بقوة ٠

★★★

زفر الرجل زفرة ممطوطة تفيض بالهـــم ونهض ماسكا بيد الولد ٠ والولد صغير على الهم ولكنه يجب أن يشعر أن الأمر جد . وأن الحياة تحتاج الى صبر ومجالدة ٠٠ لم يفته أبدا وشوشات الهواء التى سكنت الفراغ بين الولد وصوت البنت الطرى ٠٠

٠٠ ودخل ساكتا فى قلبه ما قاله عن أيوب ٠٠ هو لا يرى ولكن الكون مغموس فى قلبه ٠

يدرك أن الولد يحتاج الى الوليف بعد أن تركته أمه ٠٠ وهو سيواجه الأيام بدونهما معا وعليه أن يصـــمد ، وأن يحب يومه وغده ، ويؤمن بأن القلوب ليست كلها جامدة ولا العيون مريضة ٠٠

وأقام عود الولد ، وحرك صاجات الدف ومشى بالعصا على الوتر ٠٠ كان يحكي عن المحبوب الذى هرب وأخذ السكينه معه ٠ وهجا الفقر الذى وأد الحلم وكسر بقلب الولد ، وناشد القمر ألا يستسلم لبنات الحوز ، كما استسلم ، وأرسل للقلب المخبوء وراء الغيم عتابا ، ما كان أجداه لو أزاح الغيم وانطلق ٠٠ لكنه يجمع مأساته ويعلقها فى رقبة البدوى ٠٠ وأنت يا بدوى المراد ٠٠

٠٠ وتمدد الطوار واهتز وأفسح المكان ٠٠ وبدا فى خفقة الضوء أن النغم هارب ، والقول مطوى ، والصدى لا يتعدى الوتر ٠٠ ووشى وجودهما بعزلة من يعيش فى الخلاء ٠ والولد هو الذى يرى ، فالناس لا يقفون لدف ولا يحبون أن يسمعوا من أعمى ٠٠ حتى النسوة لم يعد يؤثر فيهن ولد ممزق الثياب ٠ واخترقت عيناه المئذنة ٠

وشد الرجل جسده فجأة وأرهف سمعه ، كانت حزمة من الأصوات تأتيه مختلطة وتشى ببهجة ٠ ظن أن الحظ موات فتحسس كتف الولد وضغط بأصابعه ٠ وثرثر الشباب فى ضجة ٠ اقترح واحد بصوت عال أن يستمعوا للرجل وصبيه ٠٠ فهبوا صائحين :

– من يبيع الهوانم برجل ناشف ٠

وعجز وهج النيون الفضى أن يكشف مخايل الوجوه ، فاخترق فى قسوة سكينة الرجل وخدره بأطياف أيام ولت ٠ وتمددت الخيالات فى مساحة الأذن واختلطت الأصوات ، ولاحت الضحكات مصكوكة وانفلتت الجماعة هنا وهناك ٠٠ واستند الرجل الى الجدار والتصق الولد به ، كانا كأنما نحتا منه ٠

لم تستمر طويلا نبضة القلب المواتية · وكمن وراء القنـــاع الساكن قلب يغلى ، ولاحت الوجوه ــ فى عينيه ــ كعناقيد نبات البـــرك ··

ومع نسمات الليل كانت هجمة من العطور تاذن بالحلول ·

رفلت النسوة فى ملابس مخملية وفاحت رائحـــة أجساد مستحمة ، وتثنت القدود حتى بدون كبجعات ظامئـات لزخـــات المطر · وانسابت الضحكات رهيفة ، حيية ، وجريئة وستر الظلام المسكون بالضوء الشحيح ليل الخريف ، وهبت روائح أنثوية ، ففتح الرجل أنفه على اتساعه وانحنى يلكز الولد ·

ــ الآن نستطيع العشـاء ·· فليست النساء كالرجـال ·

ولكن الولد لم ينطق · فالأمر بات أمامه واضـــحا كالجدار الصلد · لم يمر بزمن يعاكسه كهذا الزمن ، والليلة هى الختام ، والأب يعقد الرزق عليهـــا ويخطط · ولاذ بالصمت · وهو يلوذ به ، اذ لا فائدة من الكلام اذا كانت الحالة سيئة · وتنبه الرجل فحكى له عن الأيـــام القادمة التى تفتح أبوابهـــا ولا تبخـل فضـــحك حزنا :

ــ حسبتهن أعطينك شيئا ·

وازدادت ضحكته ، وقال مبتسما :

ــ أشممت عطرا نسويا مثلى !

وابتسم الولد وخبط الدف على فخذه فاهتزت الصاجات :

ــ تعودن الكرم فى ليلة الختام ·

دغدغ الولد شفتيه وتمتم :

ـ حجلن ، ووقفن ثم مضين ·

وهاجس النفس متمتما فى حزن :

ـ كمــا مضـــت ·

وعضت الهمسة الكاوية قلبه فوقف ·

★★★

كان الصوت كالريح يعوى ·· بدوى ·· ونقـــر الصـــوت القلوب ولم يدخـــل · ولاحت ذؤابة المئذنة فى عينيه كشواشى الشجرة حين لا يحركها ريح ·· واقفـة ، ساكنـة ، متعالية ·· وحدث الولد نفسه ماذا لو دخل الجامع وفتح صندوق النذور ·· وكبش منه حفنة ·· أيغضب منه البدوى ! · ويا بدوى ·· متى تدخلنى أغوار قلبك ! · وفاض حنان مكتهل على صغره ، وتبدى فى الأفق المعتم وجه له عينان مرتهن على أهدابهما الغيـــم ·· وجه لا ينســـاه ··

·· كان الوجه يزاحمه ويباغته ، وكانت أمه تحرك وجهها وتضحك ·· وكان أبوه يدعوها بجنية البحر ·· جاءت الجنية ·· راحت الجنية ·· قلبها تلون بالخضرة فأحبت النغم والجميـــل ، واستعذبت النغمة الشاردة ، وتلذذت بوشوشة الريح · وأعجبها الرجل ·· الأعمى أعجب أمى فأخذته وجاءت بى منه · وحين أدرك شاهد عجبا ·· الجســـم ريان ، والأعمى ناشف ممصوص ، لكن نغماته شـــاردة ·

وكان يحلو له أن يجلس محتضنا كمنجته ورافعــا يــده عاليا كأنما سيأتى بعبقرى النغــم • وتختلس الأم النظرات ، وتزيح أهدابها وتتنهد وهى تربط منديلهــا الزهرى •• وتتحنى تلاطف الولد •• وترمى بيديها فى كسل وتمد ساقيها •• والساق ممتلئة ومبرومة والثوب ينسحب ويتعرى •• والعين ساهمــة وتنطرح العيون على الخببىء وتمضى ، والأعمى يخرج لفافة يفتحها ويأخذ منها قطعة سوداء يستحلبها — عرف فيما بعد انها فص أفيون •• ومع كوب الشاى الأسود يردد فى بسمة ثرية (ليلة بيضا •• يا بيضا) •• ووجهها الذى يحمر ما عاد يحمر ، والوهج الذى رآه ما عاد يراه •• فحين طال العهد قليلا تجردت من الروح وسعت الى الخارج •• كان الخارج يناديها وتلبى النــداء •• ولم تدرك أن الولد بدأ يعى وهو يرى الوجوه •• حذرته أن ينطق حرفا واحدا •• وحمل وجه الأعمى وقتها عذابا وقلقا دائمين • فى مساء ليلة الجمعة قبل الغياب •• سأله أبوه :

— هل أمك بخير ؟

وتشنجت أصابع الولد وأسرع قائلا :

— نعم بخير •

— أكاد لا أحس بها يا ولدى ••

عجز عن معرفة ما حدث لها •• لم تكن هى التى يعرفها . من لبدت فى حضنه وشهقت كهديل الحمام •• ود أن يسألها يوما عن الجسد الذى فارقه ، لكنه خشى أن تغاضــبه • فصــمت ، واستسلم • كان غضبها يطول ، والولد يتعذب • تجاهل العطور ، ورنين الأساور ، والجلد الأملس الناعم •• واستسلم •• أدرك أنها فلتت ، تركت الأطراف وذهبت الى العمق • لا يستطيع أن

ينسى كيف كان جسدها يهمهم بخيالات الظمأ .. واستسلم .. من أجل الولد .. لكن الأم ضمت أشواقها ولمت شهواتها ورحلت .. والولد لم يعد يقاوم مخايلة الوجه له .. انعقاد الدمع فى العين .. وارتباطه بالأب .. لا ينسى لحظات الفرح التى غمرت أباه ، ولا رنة الصوت الممتن للأم وهو يحتسى كوب الشاى ويتحلب الفص فى فمه .. سأله الولد والأم حاضرة ، تضرب على الدف :

ـ ما الذى أعجبها فيك يا أبى ؟

ويضحك الرجل مزهوا :

ـ أبوك رجل يا ولد .. وسل أمك !

وكان ما كان .. لم تعد الرجولة قادرة على استبقاء الحب .. الحب .. هذا الوجه الذى يخاتله ويظهر له داعيا إياه أن يتبعه .. يود لو يغوص فيه بسكين ، يشطره نصفين نصفا له ، ونصفا لوالده .. وقتها لن يبقى شىء منه للآخرين .

كان ينسحق وهو يراها تسدل الستارة وتختفى .. أطعمته جيدا ، وألبسته الجديد .. وآخر عهده بها رفض أن يأكل من التفاح الأحمر المدمم ، كانت هى اللحظة التى أدار ظهره فيهـــا وبكى .. ورفض أن يمضى معها .. فضل أن يظل فى المكان الواطىء بروائحه النتنة ، وناسه الأجلاف .. ونغمات الأعمى الشاردة .

★★★

ودق الولد الأرض بقوة .. فالى متى يظل واقفا على حاشية البشر .. مولد هذا العام ثقيــل الوطء ومتواطىء .. كاد الحذاء ينخلع بفعل الغــل ، فانبسطت الأرض ولانت .. وتموجت ..

اهتز الأعمى ، وتباعد الطوار ، ولاح كالغيم المنثور أشباح تمد بك بالدفوف وتغنى ‥ « يا محنى ديل العصفورة » · انحنت الجدوع ، وضوت المباخر بذؤابـــات بيضـــــاء ثم هرولوا ‥ فهب أيوب يحمى جسده ·

وارتجف الولد رجفة طوحت بالأعمى ، فهناك خلف حنية لفها الظلام وسترها ، كانت تلبد ، تتقدم خطوة وتنسحب · يطل الوجه وينتفض الجسد وينقبض ، وتأكد منه لحظة انسكاب ضوء شارد ·

بلع بهلوان النار ناره فى خفة ، وطلب من الناس أن يصفقوا ، زاحمتهم وصفقت ، ولزمت الحنية ، رفع وجهه الى السماء يلتمس العون ، وتصـــاعد من الفم عمود اللهب مرق كالشهاب ، واختلط الزئير بالدخان ‥ ولمحها فتخفت ‥ كان الرائى يراها تضــــع يدها فى جوفها وتنزع كبدها و تبكى ‥ ولدى ‥ وظلت الرجفه تنفضه فطوقه الرجل بذراعيه ‥ ولبد مستكينا فى حضنه ‥ وتجسد فى خياله حركة البنت وهى تمضى مسرعة مدفوعة بحب الأم وخوفها عليها ‥ مع أنه ‥ هذا الولد الصغير مفتوح الحذاء ‥ رفض أن يمضى معها وفضل أن يبقى مع الأعمى ·

جاءته مرة متلصصة ‥ انتظرته خلف البيت ‥ وتقدمت متلهفة ‥ وما أن مرق خارجا حتى قبضت عليه ، بهت الولد وفتح عينيه وابتسم ثم استكان فى حضنها ونطق فى لهفة :

ـ سيفرح أبى بعودتك ·

احتضنته ، وأبقته فى صدرها وتفرست فيه وبكت :

ـ ألا يطعمك الأعمى !

مدت يديها ، وفردت ذراعيها ، وأقبلت على رأسه ٠٠ تقبله ٠٠

ـ رجعت لآخذك معى ٠

ويتسحب الولد من الحضن ويقول :

ـ الى أين ؟

وتبتسم وتطوح بذراعيها عاليا :

ـ الى آخر الدنيا ٠

طأطأ رأسه ، ثم أسال عينيه على وجه الأم وقال :

ـ وأبى ٠

ـ ستتركه وتأتى معى ٠٠ معى ٠٠ الحياة أحسن ٠

وسحب عينيه فى ذلة :

ـ ولكنه أعمى ٠

واقبلت عليه مبتسمة :

ـ سيدبر نفسه ، وسيجد واحدة ترأف بحاله ٠

ثبت عينيه على وجهها وقال :

ـ حدثنى أبى ٠٠ أنه ليس مثلك واحدة ٠

أخرجت قالبا عريضا من الشيكولاته وراحت تحادثه :

ـ معى ستخرج الى الدنيا ، وتعيش ، ستنام على قطن ، وتلبس أحسن لبس ، وتأكل وتشرب وتتعلم ٠

فلتت من عينيه دمعات وقبلها محتدا :

ــ ولكنه أعمى يا أمى .. أعمى يا أمى .

وجاءه الصوت من الداخل ضعيفا وملهوفا :

ــ أتحادث نفسك يا ولدى .. أم معك أحد ؟

ونطت قائمة ومسكت الولد فى قوة وطلبت أن يمضى معها ، وألا يتفوه بكلمة .. ولكنه رفض .. وحين مالت عليه تقبله أدار رأسه كله فمرقت مولية وهى تسبه :

ــ فى داهيه أنت وأبوك ..

كانت الفراشات تنطلق نحو أضـــواء النيون وتلتف حول المئذنة كالعمامة ، وكان الوجه يخايله منذ أن لمحه فى خفقة نـــار الحاوى ، ووقفت أنامل الرجل على تخوم العين وقال :

ــ ادخر دمعك الغالى وابتســـم وهو يعلم أن ولده يعـــلم أنه يتقطع :

ــ كانت أمك تدخر ما يفيض عنا .

ــ ليتها ما فعلت .

ــ لعل ما أخذته يسترها ..

لم يترك الولد مكانه ، ولم يستسلم لحنين الأب ، وعب من نسمات الهواء البارد ونبه والده أن عليهما أن يبهرا حتى لا يضطرا الى التكفف ، وانشق قلب الأعمى فرحا ونسجت الأنامل ألحانا منمنمة وانساب النغم كموجة قمرية .. وتوطد القمر ، وتدلت خيوطه ، ودحرت غبشة الليــل .. وأرسلت بنات الحور جدائلها

وازينت · وهطلت كزخات المطر عبارات المديح فاقترب الرجل من الولد والوجه سرى فيه الدفء وانتشى :

ـ الليلة ناكل أيها الولد ·

وانحنى القمر يرسـل نـوره ، وراح ينفذ كالألق وينتشر كالريح ، كان يقوم بغارة من البهاء والبهجة ، وفى حومة القمر ، دار الناس فى انتشاء وارتدت العطايا بوشاح القمر الأبهى ·· واتكأ الولد على الوالد ، وقبض من غبار الغارة حفنة من الضـوء وطيرها فى الأعالى ·· وكان الرائى يرى فى خفقة الضوء شـبح امرأة تضع يدها فى جوفها وتنزع كبدها وتصيح ·· ولدى ·· ولدى ·· وظل القمر يرسل ضوءه ··

●

قيام الجسد



ضحكت فارتعشت نجوم السماء وفاضت بالفـرح • وباح الجسد بزهوة البهجة فاهتز • شدت قامتها فلاح التكوين منحوتا فى ظل ضوء شحيح ، واقتربت وهمست « أحبك » • خطت فماثلت مهرة أصيلة ، فردت ذراعيها على المدى وعبت ضوء النجوم وغنت :

ـ هذا أوان الحب •• استدارت ، وتطلعت الى الأفق البعيد فى صمته المناوش وقالت :

ـ الكون يشهد لى •• وكان كما هو •• ساهما ، يتأمل فى سكون ، ويندهش فى صمت ظل يلازمه ، ولم ينجح النجـــم الزاهى ، أو الخطوة الموقعة أن يصطاده •• وكان حجرا صلدا وقع على فتحة الحس عنده فلم يشارك • أزاح نفسه عنها ولبـــد ســـاكنا ••

تناهى صوت طائر الليل يرتل فى انتشـــاء فقبض على قلبها وتمتمت :

ـ انه يبـــارك الحب ••

وتعلقت عيناها بملامح الوجه العصى الهامد • كان قد وضع رأسه بين كفيه واستسلم لنظرة بعيدة ساهمة • لامست الرأس ، وانتظرت • تمنت أن يرنو اليها ، ويطل على خفايا النجوم فى غبشة الليـــالى •

فرك جبهته بأصابعه ، وأدرك أن صمته طال حتى كاد يسمع نبضات قلب مهرته يفز من صـــدرها وأن غضـبها سيتحول الى حمحمة ، ويدفع بأنفاسها الى وجهه الباهت الذى ظــل فى همودة باردا لا يريح القلب الذى يدفئه ·· أمال رأســه قليلا وهجس فى خفوت :

ــ أيتلاءم الحب والحزن ؟!

ومشى الازدراء على ملامحه فتغضن الوجه وتحددت ســمات معتمة على ثنيات جبهته العريضــة :

ــ قضى الانكسار على الحب ونهش القلب ·

وعضها القلب فالتوت ، واحتدت ، وواجهته :

ــ أنتم مغرمون باليأس ·

نتر ذراعه كأنما يعارك شبحا وصرخ محتدا :

ــ أين تعيشين ·· انها الهزيمة ؟ ·

وقف الدم فى الرأس واندفعت فى غضــبة من غضباتهــا المشهودة :

ــ وهل يمحوها الندب كالنسوان ؟

أساء المعنى اليه فمد يده وقبض على كفها فى قسوة ، فاهتز القوام ، لكنها شعرت برعشة احتوت أصابعه فلاذت بالنجوم ·· أبهجها أن النجوم لا تفارق ضوءها ، وأهمه أنها لا تيأس فأرخى يده وسقطت فى همــود · وخايلهــا طيف زمان ولى فهمست مشــجعة :

ــ لو استسلمنا فقدنا الحب وضعنا ·

وأرهف العين فشاغلته النجوم فاغتم وأدار ظهره ، ونهض استقبل الليل بعمقه ومضى ، تركها لقلقها فتوجهت الى السماء واشـــتكت :

ـ متى يفهم أن الحب حياة ٠

★★★

أخذه الطريق المترب ، فأطلق بصره على الطين والحفـــر ، والوجوه ٠ الكالحة والسحن المتبلدة ٠ اعتلى حنيـــة عاليـة ودار خلفها ثم هبط فى مدق ضيق واستدار الى زقاق ثم دلف الى اليمين ودفع الباب ٠ ألفى العجوز فى مهابتـه مشغولا بالتـلاوة فجلس مشوش النفس واختلطت مشاعره وتعجب كيف للرجل أن يمارس طقوسه وكأن شيئا لم يحدث ٠٠ وأمال عنقه ورنا فزاحمته نظرة مباغتة فاختلج الجسد كله ٠

فاجأه العجوز حين قال :

ـ اليأس لا يأتى بحل ٠٠

جرفه القول فاحتد وحدثه عن العيون المنكسرة ، وعن الموتى تحت الرمال ، وعن القبور التى ضاقت بموتاها ، وعن الأحيـــاء الموتى ، وعن قمع العسس ، وعن الهزيمـة التى وأدت الروح ، وعن الذين سحبوا أرتالا للموت ولم يخجلوا ٠٠ وعن البنات اللاتى ينتظرن من لا يأتى ، وعن حبيبته التى اتهمته فى حبـــه ، وعن الذين يبررون ، وعن النجوم التى لا تكف عن الضوء ٠٠

ودفع اصبعه فى الفراغ وصرخ :

ـ خدعونا يا جدى العجوز فسقطنا ٠٠

اهتزت المسبحة فى يد العجوز ولكنــه ســارع قائلا كأنه يضاحـــكه :

ــ لكن النجوم لا تكف عن الضوء ٠

حدق فيه ، ارتعد الجسد وبدا كأنه ينطرح وخرج صـــوته مهروســـا :

ــ ومن يرى يا جـــدى ؟

ربت بكفه الدافئة على الكتف المرتعد وتمتم :

ــ أصحاب العيون الصحيحة ٠

ــ وأيــن هم ؟

كان الوجه يلتوى ، وبدا على الملامح كأنما يتحدى الرجـــل أن يجيب ، أين يجد العين السليمة وســط خراب شامل وقلوب مريضة ٠٠ وظلمة عاتية ٠ هل يجود الزمان بزرقاء يمامة جديدة ، تستخلص الجوهر من تحت حمأة الموت والطين ٠

فاجأه العجوز صائحا ، مبتسما ومجيبا :

ــ أنتم الزرقــاء ٠

بهت ، وانتفض ، ونهض ، ومضى ٠٠ لكنـــه قبل أن يغيب خلف الباب أدار رأســـه فى بطء فلمح العجوز يبتســـم ويردد فى بطء :

ــ البلد كالنجم لا تكف عن ولادة الرجال ٠

★★★

شاعت الخضرة فى الحقول ولاحت فى عينه الذؤابات العالية التى كانت خضراء قد طالها سواد أغطش لونها • حدث نفسه فى صوت عال بأن القتـــامة لم تكتف بالقلوب بل غيرت من طبائع الأشياء • وعلى مدى الرؤية انحنت الأبدان تعزق الأرض وراحت الأيدى تجمع الأعشـــاب وجذور النجيل التى تشعبت •• حجل غراب ثم طار الى أعالى شجرة الجميز •• استقبلته الأغربة بصخب حاد وانزوت العصافير الى أعشاشها ، وواصلت الأبدان انحناءها •

أحس بأن المكان ضيق ، وأن القلب معصور ، وأنه لا فائدة من يومه ، ولا أمل فى غده ، أطلق صـــوتا كالنعيب فجاءه الولد وفرش له النجيل وجلس • استند الى جذع شجرة كافور عتيقة ، وقطف فرعا صغيرا وراح يتشمم رائحتها • فرك الأوراق الخضراء فى كفيه ، ومشى عطر فواح داهمه على غير توقع فتعجب أن تظل محتفظة بعطرها ولم تفرط فيه • وأطلق عينيه ، ما الذى جعلنـــا لا نستبقى عبق الرائحة العتيق ، ووهج الروح الوضىء ! •

كانت السحب فى السماء تنفكك وتتهادى ، ثم تذوب • أخذت الحركة عينيه وقبضت عليهما • ومع أن المرأة وقفت أمامه تكاد تسد عليه الأفق الا أنه لم يتنبه لها ، ولم يدرك وقفتها • لكنها صادت فى عينيه حيرة وتوهانا شديدا ، وبدا لهـــا الوجه سحنة باهتة مرتجفة • خطفت حصاة ورمتها ، فرفرف عصـــفور وحط بعيدا ، وتنبه للحركة • وتنبه للمرأة فاعتدل •

لم تفته نحافة الجسد ، وحفاء القدم ، ووضــــاءة الوجه ، وتمزع الثوب عند الكتف ، وبريق فى العين ، ورجفة على الشفاه •• ورنا اليها وازداد هما ، وردد فى خفوت •• الفقراء لا مولى لهم •• واصطكت أسنانه فى كزة قوية ، وخرج الصوت مجروشا :

ـ فعلها ومات وترك لنا أن نثأر ٠٠ ونظر اليها فى تمعن ثم أدار رأسه ٠

حيته ووضعت حملها ، ثم دفست يدها فى صدرها وأخرجت خطابا مطويا ومبلولا وقالت فى نبرة صوت كأنه الترجيع :

ـ انه من الولد ٠

تناول الخطاب وظل ممسكا به ٠ وأدرك اللهفة فى ارتعاشـة الشفة والتماس العين :

ـ غاب طويلا ، وقلبى يأكلنى عليه ٠

فض الخطاب وقرأ ٠٠ وباحت الملامح بفرح الأم وهو يقرأ ٠٠ تجاهلت وقفاته ، ونظراته ، ومصمصة شفاهه وتابعت ٠٠ حركت رأسها مع الكلمة وسافرت عينها مع الحرف ، ورجعت شـفتاها نبرات الكلام ، واهتز الجسد حتى كادت تنطرح فرحـا وخوفا وهو يسرد عليها ما يحكيه الولد ٠ وتقلصت الملامح وسال الدمع :

ـ ربنا يحميه هو واخواته ٠

ولما رفع رأسه اليها روعته لمعة فى العين تخترق رقرقة الدمع فأسرع قائلا :

ـ ألا تخافين عليه ؟

تركت ليدها أن تتحسس موضع القلب ، ولعينيها أن تتطلع الى السماء كأنما تبتهل الى الله ، كانت معه ، ذائبـة فيه ، راجية أمنه ، متضرعة أن يكشف الغمة ٠

لم يدرك حالها فتابع فى بلادة :

ـ قد يموت فى الحرب ٠

ارتجفت ، وأسرعت قائلة :

ـ أتمنى أن يعيش ·

ـ أنت لا تعرفين معنى الحرب ·

شدت قامتها ، فلاح جسدها على نحافته مشدودا ومدكوكا حتى كادت تحجب النظر ·· ولوحت بشالها وقالت مزهوة :

ـ أعرف أنه يحارب العدو ·

كور عينيه ، وحدق في المرأة :

ـ ما كان يجب عليك أن توافقيه ·

وضعت يدها على لحم الكتف :

ـ وكيف نعيش ان ضنت الأم بولدها ·

ـ قد يضيع منك ·

سددت البصر ، وتقلص القلب وغض فرحها فاختطفت الخطاب · ووقفت أمامه منتصبة وصامتة ، أذهلها أن يرتجف ، ويحتار ، ويدارى وجهه منها :

ـ قلبى يحدثنى أنه لن يضيع ·

وسددت اليه الكلام الذى باغتـــه وهى تضع الخطـاب فى صدرها ، وتدفع بحملها على رأسها وتمضى كأنمـــا تسد الأفق بجرمها النحيف ، وقلبها الممتلىء ··

ـ كان يجب أن تكون معه ·· فأنت من عمره ·

·· وظلت عيناه تلاحقانها ، وتصطدم بمواطىء القدم ·

★★★

•• أمي الحبيبة :

أكتب اليك على أمل أن أعود وحول رقبتى اكليل من الورد •• حبل يعنى •• لا تضحكى منى ، هكذا يقول زملائى المتعلمون • وهل أنا أقل منهم حبا للأم •• يقولون ان كل أم تنتظـــر ولدها وفى يده وردة •• قد لا تصدقين أننى قمت بعمل ضخم وكبير •• حين قال الضابط : يجب تدمير الموقع • أى موقع ؟ اندفعنا كلنا فى صيحة واحدة • أشـــار الى تبة عالية خلفها جرف منحدر ، ودونها مساحات من الرمال الناعمة •• كان المكان بعيدا ، وكان يجب التعامل معه من الخلف ••

تذكرين يا أمى الحبيبة وصفك لى بنطاط الحيط •• أصعد النخل العالى وأجمع البلح •• لا تفلت منى بلحة •• دربنى أبى على الصعود •• بطن القدم يلتصق كمن يتكىء •• القدم على الجريد فى وضع استقرار •• ترفع اليدان الحبل لتشد الجذع الى أعلى •• يتحرك الجسد كأنه شيئا لا يشعر به ••

تلك كانت صنعة أبى •• وهل تذكرين وصفك لى وأنا طالع نازل •• عامـــل زى الدودة •• وتقدمـت يا أمى وأصررت •• أنا ابن أبى •• وتحركت على سطح الرمال •• أتجاوز النتوءات حتى وصلت •• كيف انفجر المكان •• لا أدرى •• كيف ألقيت القنبلة بهذه الدقة •• لا أدرى •• وحين أفقت وجدتنى بين زملائى يهنئوننى •• وأضحك فى عبى •• طلوع النخلة عمل عظيم !

واكتشفت أنك لست وحدك من وصفنى بالدودة •• ففى نوبة راحة نادرة قال لى القائد :

— كنت تتحرك كأنك دودة •

ستأتى بالنجمة ·· بالله يامه ما تضـــحكى فى عبك ·· ستتفرجين عليهـــا وتفرحين ·· فليس كل متعلم أو غنى معـــه واحدة مثلهـــا ·

والســــلام ··

★★★

لاحت الدار من بعيد مقبطنة كشـاهد القبر · احتواها ليل غاطس الظلمة ، ودق الباب · كشف منشور الضوء الشحيح وجوها متعبة ، وملامح متبلدة · مرق الى الداخل وتجاهل العيون ، ورفض كوز البيرة وجلس ·· وانعقدت سحب الدخان كالغيوم المعتمة · ناوله واحد من الجماعة جريدة مطوية · مد يده وقرأ · كان المقال يتحدث عن تواصــــل دورات التاريخ وتجاوزها لنكســـات عابـــرة ·

لا يدرى كيف رأى وجه الأم بعرض الصفحة كلها ، وهى تنزع منه الخطاب ، وتضع يدها على كتفها العارى ، وتنظر فى حدة ·· ارتجف فتمتم هاجسا :

ــ من يستر لحمها ؟ ··

كانت الآذان الغافيــــة قد التقطت الصوت فمالت الرءوس متطلعة ·· فز واقفا وقال :

ــ من يستر لحمها ؟

انفلتت ضحكات زاعقـة ، وخرج صوت يذكره بأن حبيبته شريفة ، وعليه أن يطمئن ويسعى الى الزواج بعد زوال الغمة ·

علق واحد فى سخرية وقال :
ـ اســتعد لصبر طويل ٠

وشده بقوة فارتطم وجلس :
ـ أنت مستور معنـــا ٠

وانسحب الى داخله واكتأب ٠

أطاح أحد الشاربين بزجاجته وصرخ :
ـ ليس من حل سوى الهدم ٠

تناهى الى الأسماع صوت ينبعث من الراديو يحمل شجونا فتمتم فى حزن :
ـ أيتلاءم المغنى والهزيمة ؟

وارتجف حين زعق واحد بجواره وخبط الجدار :
ـ أنه سبب الهزيمة ٠

ضغط زميل قديم غابة الجوزة وأطلق دخانا كثيفا ثم علق فى بطء :
نحن نحارب بالغباء ٠

ولاذ بالصمت ٠٠ وراح يسائل نفســه : كيف يقوى على مواجهتهم ٠٠ هل يستطيع أن يذكر لهم ما قالته الأم ، وكيف أشعرته بتفاهته ٠٠ هل يتقبلون هذا الوصف عليهم ٠٠ ونطق فى سكون ، وفى خفوت كأنما يخشى أن يسمعه أحد :
ـ انه الضـياع ٠

اعتدل أحدهم بعد ضجعة طويلة وقال :

ـ هل هناك أمل ؟ .

وتطوح الجسد المنكفىء وهو يردد فى اختلاط من لا يبين .

ـ نخر السوس العروق والحل .. أن ..

وانطرح ثانية لم يكمل .. تدلت رأسه ، وتدلت جفونه .

★★★

اختلطت فى عينه الأشياء ، وساعد ما ست على أن تنشطر النفس .. تمنى أن يتحرر من هذا الضعف ، وأن يكسر قيده ، وينهى تبعيته .. وشغله كيف ينسلخ عن جماعته بلا آلام كثيرة !! وكيف ينهى فى حركة واحدة ضياع سنوات ممتدة !! لقد عجزت النفس أن تتحمل مكابدة جديدة .. وخصاما قد يطول مع محبوبته .. لا يستقيم الحب مع الضعف .. الحب قوة .. ولكن الضائعين كثيرون .. وعزت عليه نفسه ، فتناجى فى حزن .. من يأخذ بيده ، ويضعه على أول الطريق .. فلا يستسلم ، ولا تضيع منه حبيبته ، ولا تغضب الأم .. من يخطو به هذه الخطوة . بل من يقدم الحل .. ويبشر بالأمل ..

لم يكن يدرى أنه وصل الى العجوز ، وأنه يتحدث بحرية كأن أحدا لا يراه .. حتى اخترقه الحديث حادا كسكين .. لم تكن حالته خافية عليه .. وكان يحبه .

ـ لا تتحدث عن الحل وأنت ضائع .

كانت أصابع العجوز تتسلل فى بطء الى لحيته الكثيفة ، وكانت عيناه تحطان عليه وتخترقانه . حاول الفرار فأوقفه وقال له فى وداعة :

– لم لا تعمل شيئا مفيدا ٠

رنا اليه ، فشاهد السكون يمشى على الوجه المبتل ٠٠ انتظر :

– نحن نحتاج الى حماية ٠٠ انضم الى الجماعة واحرسنا معهم ٠٠ مرافق البلد مستهدفة ٠٠ فافعل شيئا ٠

شدته قطرات الماء كحبات اللؤلؤ عالقة على أطراف شعره الكثيف فأخذه المعنى ٠٠ وانتظر :

– الولد طالع النخل يحارب ٠٠ وأمه تدور على الناس ليقرأوا لها الخطاب ٠٠ ألا تقوم بعمل ما ٠٠ وأنت المتعلم ٠٠

شعر بأن ضعفه يتجسد هولا كاملا أمامه ، فاقترب من العجوز حتى كاد يتداخل فيه ٠

وربت العجوز على الكتف ، ومشت أصابعه على ذؤابات الشعر وقال فى تودد :

– لن تستريح وأنت مشطور النفس ٠٠ اذهب يا بنى واعمل شيئا مفيدا للناس ، وأخرج حبك وتباه به ٠٠ وأثبت أنك قوى مع حزنك المشروع ٠

ودفعه وهو يردد :

– لا تجعل يأسك يقتلك ٠

★★★

اقترب من المكان فرأى الساتر أمام المدخل يحجب الرؤية ، ويقف خلفه شاب قوى يرصد ويدقق ٠٠ تطلع اليه ودخل ٠ سجل اسمه ، وعنوانه ، وأبدى رغبته ، ومجال عمله ٠٠ حددوا له ساحة العمل ٠٠ وحمل تبعاته ٠

هاله الشباب يتدافعون ليحصلوا على شرف عمل ما ‥ وبدا الامر كما لو كانت روح خفية مزاحمة تدفع الشباب الى أن يفعلوا شيئا ‥ لعلهم ينيرون ضوءا شحيحا فى مساحة عريضة معتمة ٠

شد جذعه ، ومسك تصريحه ، وتلقى التعاليم ، وحمل الدعاء بالبشارة ٠

وقبل أن يدير ظهره ، تبدى له وجه الأم بمساحة الرؤية كلها ‥ فتعلقت عيناه بالأمل الذى يطل من عينيها المحدقتين ‥ وبدت كأنها لا تصدق ‥ داخله شعور طاغ بأنه تأخر كثيرا منذ أن حادثه العجوز بأن يلتحق بفرق الحراسة ‥ وتمتم فى شجن حقيقى :

ـ الوقت شحيح لمن طال غيابه ٠

كانت روحه العائدة تدفعه فاندفع ٠

واستقبله الهواء رطبا ومنعشا ‥ شعر بجلد الخوف الذى قيده طويلا وأسلمه لبلادة ممتدة ‥ ينسلخ شيئا فشيئا ‥ وصاح كمن وجد ضالته :

ـ عاجز من لا يحب ٠

ورمح فى الشارع فجرت وراءه العيون وصدحت الأفواه :

ـ اضبطوه انه أحب ٠

وتألم لزمان افتقد الحب ولوى القلوب ، وقهر النفوس ‥ وأحبط الآمال ‥ ولكنه الآن يمضى نحو هدفه ، فات زمن العتاب والعذاب ، وجاء أوان البعث :

ـ من لا يحب يهزم ٠

صكت مسامعه العبارة فاستدار ·· استقبلته الوجوه فى بشاشة فاختلج حبا ·· ولاح الكون فى عينيه منفسحا ورائقا · ناوشه القمر ضاحكا فضحك ·· وكان النجـــم لا يزال ينبىء عن ثغر باسم ويحكى ·· وكانت حبيبته تسـمع له ·· وتفرح ·· وتنتظر ··

····وتســلل الفجر الوليــد فى بطء وجلال ·

●

المتاهة



فجأة لم أجده . كان يمسك بيدى فى قوة ، كأنما يخشى أن أفلتـــه .

يده ترتجف ، وملامح وجهه ترتعب ، وعيناه تشيان بخوف ذاهل .... قبل أن أدركه كان يقف على حنية الطريق ، يدير رأسه ويبكى .. قبض الزحام على الأفئدة فلم يهتم به أحد . أنهكه البكاء فجلس على الطوار يدعك فى عينيـــه ويتلهى بالمارة ثم يعاود البكاء .

كان على أن أتقدم بالرغم من محاذير المدينة ..

أبعدت عن ذهنى كل ما سمعته عن حيل وألاعيب الشطار .. وأقنعت نفسى أن البكاء حقيقى ، وليس حيلة ينخدع بهـا أصحاب القلوب الطيبة .

قطعت الطريق ومضيت اليـه . حين تواجهنا خرقت عيناه قلبى .. وأذهلتنى حيرة تتبدى من العين ترفق الحجـر .. أقعيت أمامه ، أمسح شعره ، ودمعه ، ووجهه .. وأفرد ملامحه .. نظر الى مرة ، ومرة ، وأدار رأســه مرة ومرة .. ثم بكى .. هدهدته فاشتد النحيب . ليست لى خبرة فى معـاملة الأطفال ، لكنهم حين يتألمون يلوون قلبى ويرتـج على الأمر .. أرفع ذراعى ، أفرد أصـــابعى ، أشـــكل ملامح وجهى .. وقد أتنطط حتى أنتزع البسمة .. لكننى فشلت ، ولما تيقن من قلة حيلتى ابتسم فهدأ قلبى .

نفضت عنه الغبار ، وسويت ثوبه ، أخرجت قرصا من النعناع فالتقطه ، نظر اليه مليا ثم بدأ يستحلبه فى لذة وشت بها ملامحه ٠ وجلست بجانبه دون اهتمام بنظرات الناس ويدى على كتفه ، وسألته فى حنو بالغ :

ــ أنت ولد طيب وحلو ٠٠ ما اسمك ؟

حدق فى ، وهز رأسه وصمت ٠٠ كان صمته معلقا بنظرة حزينة ، فاخرجت قرصا آخر من النعناع ٠٠ حركه بين يديه ثم جرشه مرة واحدة والتفت الى ٠٠ احتضنته فى ود حقيقى ٠٠ وقلت :

ــ كل واحد له اسم ، يعرف به نفسه ويعرفه الناس ٠٠

حرك رأسه كأنما يوافقنى فداخلنى فرح ٠٠ أستطيع الآن أن أقدم العون ٠٠ لكنه قبل أن أعاود الكلام مسك لسانه بيده ثم حرك يده ٠٠ كانت الحركة تفى بالمعنى ٠٠ كان الطفل أخرس، فاشتد حزنى وتعقد الموقف ٠ من يهتم به فى المدينة اللاهية ، قاسية القلب !

أحس بضعف تجاه الأطفال ، حرمت من هذا العالم البرىء ، الجميل ، النقى ، مبكرا ٠٠ أخذت منى زوجة الأب عالم الأحلام ، وشغلتنى بالهموم ٠٠ لم يدرك أبى ما يحدث ، ولم يهتم كثيرا ٠٠ لكن كان لى لسان أعبر به أحيانا ٠٠ بل أصبح غاضبا حين يفيض بى الألم ولا أتحمله ٠٠ أما هذا الطفل فكيف يتصرف ؟ ٠٠ أيكون تاه من أمه ؟ ٠٠ أم تكون له زوجة أب زهقت منه وتركته وسط هذه الغابة من العيون التى لا ترى ! ٠٠ ودارت رأسى ٠٠ وجاءنى الزمان البعيد بوجه شرس ليحل محل الأم ٠٠ كم كانت تتوق لابعادى !

واحتضنته ، كأنني أحضن فيه طفولتى الغـــاربة ، ودمعت عيناى ·· رأى الدمع فبكى فاشـــتد ضغطى عليـــه · لاح لى أن قطعة فرت منى وعادت ·· ونهضنا ، أقبض على يده وأنا أتجـه الى محـل البقـالة ·· لابد أنه جائـع ·· سأشترى له لبنا ، وشيكولاته ، ثم أمضى به الى مطعم يطلب فيـه ما يريد ·· ثم يفعل الله بنـا ما يشـاء !

كان يمسك بيدى فى قوة ، ويلاصقنى ، ورعشته تنبض على جلدى ·· ضحكت فى وجهه فبدا وجهه مرعوبا ، أشرت اليـه بأصابعى نحو الفم طحنت أسنانى ، فأدرك المعنى وهدأ الوجه · ظلت عينـاه تحدقان فى ـ تلوذان بى ـ حتى كدت أبكى ·· استجمعت قوتى ونزعت يدى من أصابعـه المتشبثـة وأخرجت النقود ومضيت الى البـائع وعينى عليـه ·· عيناه تتوسـلان ألا أغيب ·· هكذا فهمت ·

كنت ألحظه وأمد يدى ، أضحك له ثم أرمى بالنقود ·

وفى لحظة خاطفه لا تحسب فى الزمان ·· لحظة أن تناولت قطعة الشيكولاته واستدرت ، لحظة أن وقع البصر على مساحة خالية تتلقى قدمى ·· لم أجده ·· الطفل الأخرس غائب ·· غير موجود ·· غاص قلبى وارتعبت ، جريت فى كل اتجـاه ·· أيكون قد ذهب فى تلك اللحظة التى تحسب بحركة استدارة الوجه ! ومضيت الى زاوية الشارع ·· وانتظرت لعله يعود ·· ولما طال انتظارى قررت أن أبحث عنه فاتجهت الى البناية الضخمة التى تقع خلفى ، فهى المكان القريب الذى يمكن أن يختبىء فيه ·· أو يهرب اليـه ·· منذا الذى أخافه أو أخذه فى تلك اللحظـة الخاطفـة !

مضيت الى مدخل البناية ، وقطعت الممر الضيق ··

كانت صورة الطفل لا تفـارقنى ٠٠ عينـاه الواســعتان الحمراوان ، والوجه المستدير المشرب بسمرة ، والشعر المرمى على الجبين فى خشونة ولزوجة ، والغبرة تغطى الوجـه كله ، وتحدد خيط الدموع على خديه ٠

من يدلنى عليه فأغمس قلبى فى نظـرته الواشية باستجداء مغموس بالهم ! ٠٠ فلعلنى أخفف من لوم النظرة ورعبها ! أكان يخصنى بهذا العتب الحذر ٠ ؟ لم وجه الى هذا الحزن الخائف دون خلق الله ؟ أكان يرى أننى قادر على انقاذه ، والتخفيف عنه ثم خاب ظنه فمضى ؟ ٠ انغمس الطفل فى قلبى وانتهى الأمر ٠٠ لاح لى أنه قطعة منى فرت ثم عادت ٠ فلماذا يضن الطفل بتلك العودة ؟ ٠٠

حين دلفت الى الداخل واجهتنى رائحة نفاذة تهب من كل اتجاه ٠ كانت العتمة تلف كل شيء بالرغـم من سطوع شمس آخر النهار ٠ تفرست فى كل شيء وتحسسته أيضا ٠٠ أدركت عينى بعض المرئيات فخطوت فى قاب العتمة ٠

لمحت غرفا متراصـــة كالحـة الأبواب ٠ دققت الأبواب بابا ٠٠ بابا ٠٠ لم يفتح لى أحد ٠٠ حاولت أن أميز صوت طفل وســـط أصـــــوات مختلطة وصلتنى ٠٠ فعجزت ٠٠ اختلطت همهمات النسوة بحشرجة الرجال وعلت على صوت التلفاز ٠٠ قلت : فلأصــعد ٠٠ ربمـا يكون مختبئا فى حنايا السلم ٠٠ وصعدت عدوا ٠٠ تحسست الحوائط ٠٠ ومسحت الردهات ٠٠ لم أر سوى القطط تنبش صفائح الزبالة ٠٠ توقفت فجأة فمدت مخالبها لا مبالية ٠٠ ثمة فتيات يجلسن أمام الأبـــواب ٠ سبب وجودى ذعرا مفاجئـا ٠ تجاورتهن صـاعدا ٠ استدارت واحدة وطوحت « بجيبتها » فلاح الفخذ مبروما وأشارت الى ، لم أعبأ

وصـعدت حتى نهايـة الدرج ·· وانكسر خاطرى ·· وعدت نازلا ··

أثناء حركتى البطيئة أدركت أن ما رأيتـه صاعدا يختلف عما أراه نازلا · لاحت البناية قديمة لدرجة تثير الخيال · انعقدت المفارقة بين المظهر الخارجى وطبيعة الداخل ·· وتعجبت ! · وتشككت أن يكون الطفـل قد لجأ الى البناية مع قربه منها ·· الظلام يقبض على الفـراغ ، والأشـعة النافذة من النوافذ حـادة كالسـكين ·

أمعنت النظـر فى العتمة فاذا بوجـوه تطـل من فتحات الأبواب ، جاحظة العينين ، تتدافـع فى طابور مختلط ناحيـة السلم · داخلنى هاجس أن أكون قد وقعت فريسة لبعض اللئام ، وأن الطفل الذى أرجعنى الى زمن مضى لعبـة فى يدهم · لكننى لا أتصور أن يصل الأمر الى هذا التحجر فى القلب ! ··

رحت أتابع الطابور وأتملى المشى البطىء ··

تحركت ناحية اليمين حتى أتفـادى القوم ·· وأنزل ·· ولوهلة مسروقة من زمن الموقف المشهود ، لمحته بنفس الهيئـة الغامضة التى فر بها ·· غاص قلبى فلقد كان يئن تحت الأقدام ، ورحت فى لهفة اليه ، أستعيده ، فاستعصى على فحركة الأقدام لم تدع لى براحا أنفذ منه اليه ·· سحبوه معهم حتى لم أعـد أرى شيئا منـه ، وبدا لى أن عينيه تتدحرجان ككرتين حمراوين بلون العقيق ·

انتفضت بكلى واقتحمت القوم ، ظللت ملاصقا لهم وهـم يهرعون الى سرداب مظلم وملتو ، فجأة انغلق الباب فاحتجزنى ·

نجحوا فى حبسى لكننى عالجت الباب باســـتماتة حتى خرجـت ورحت أصرخ :

ـ أين الطفل ؟ ..

ودرت على الناس أسألهم :

ـ هل رأيتم طفـــلا صغيرا عينـــاه كحبتى عقيق ؟! .. أنكرنى الرجال ، وأشفقت النســاء .

ظللت أخاطب الناس حتى تعبت . غالبنى احساس بالألم يكوى قدمى .. كان اللسع كالحصى المحمى . دفعت ســـاقى فاذا القــدم عار ومتورم . صحت :

ـ أين الحــذاء ؟ ..

استوقفت رجلا وسألتــه :

ـ أرأيت فى طريقك حذاء أحمر اللون بلون العقيق .. « مقاس أربعين » ؟ .

نتر الرجل نفســه من أمامى ورمح خائفا .. وهو يردد « يا خفى الألطاف ... » سرت على باطن قدمى .. فى اتجــاه البناية التى خرجت منها .. ربما أعثر عليه هنـاك .. لمحت امرأة تتلكأ أمام محـــل الأحذية اللامع وتمعن النظـر .. قلت لعلها رأته .. فهى لا تترك شيئا الا دققت النظر فيه .. ولن يمر عليها هذا الحذاء أحمر اللون دون أن يثير انتباههـــا .. تقدمت حتى كدت ألاصقها وسألتها فى أدب جم :

ـ هل شاهدت فى طريقك حذاء أحمــر اللون بلون العقيق « مقاس أربعين » ؟

تسمرت فجأة وواجهتني ثم مرقت مبتسمة هازئة بعـد أن فحصتني باستخفاف وقالت ساخرة :

ـ « مقاس أربعين » ٠٠ مقاس صغير لا يناسبني ٠

رحت أغـرس عيني في مواطىء الأقدام ٠٠ وانقلـب البحث في الوجوه ٠٠ الى القدم ، اختلط البحث عن الطفل بالبحث عن الحـذاء ٠

كان الشباب والفتيات والأطفـال يمرون أمامي في بهجـة طاغية وصخب عال يحملون بين أيديهم ثيابا جديدة وفسـاتين وأحذية ، وبالونات ، وشموعا رفيعة ٠ كانت الخطوة موقعـة ، والصوت ـ أحيانا ـ منغما ٠ دققت في وجوه الأطفـال فلم أر عينين حمـراوين كالعقيق ٠٠ مـع ذلك مضيت وراءهـم ٠٠ فالأمر يوحي بوليمة أو فرح ٠ كانوا من البهاء والأناقة والثراء مما دفعني الى تتبعهم ٠٠ من يدري ربما أعثر على الطفـل مدعوا مع غيره على طعام يشتهيه !

مرق الجمع البهي الى سرادق جميل ، محـلى بالطنافس ، ومزين بالثريات ، ومفروش بسجاجيد داكنة الحمرة ٠ تراصت أمامه وحوله عربات غالية الثمن تضوى بالنور ٠٠ واقتربت ٠ يقف على المدخل رجل مديد القـامة ، يصـافح الداخلين فردا فردا ٠٠ ابتسم ضـاحكا في وجوه الصغار فانسحبت الشفتان ، وتباعد الفكان ، فبدا فمه حفرة غويطة ٠٠ جاءني التعبير فأدركت أنني لازلت واقعـا تحت تأثير مرثيات البناية المعتمة ٠ وتقدمت حـذرا ٠

سألت أحـد الخدم :

ـ من الرجـل ؟

حدجنى فى دهشة وقال :
– ألست من الحى ؟

أردفت سريعـا :
– أنا غريب ٠

قال فى تؤدة وعجب :
– هو فلان ٠٠ صاحب الحى كله ورئيسه ٠

سألته مندهشا :
– ولم الحفل ٠٠ لله ٠٠
– يحتفل بطهارة ولده ٠٠

ونظر الى مشفقا وقال :
– ادخل فالوليمة ضخمة ٠

اتجهت فورا الى حيث يوجد الأطفال ٠٠ الوجوه طلية ، والخدود وردية وتأكدت أن الطفـــل الأخـــرس لن يعرف طريقه اليهم ٠٠ السحنة مختلفة ، والقلب أيضا ٠٠ قلت أنزل ببصرى الى الأقدام ٠٠ ورحت أطوف ممعنا فى الأحذية ٠ حاصرنى الخدم وطردونى ٠

لبدت خلف حافة المدخل يحجبنى مستطيل معتم ٠٠ وبدأت أدقق النظر فى الأحذية والبلغ ٠٠ ورأيتــه أحمر اللون فى مقاسه المعتدل قابعا خلف حذاء ضخم يتوهج لامعا ٠٠ وأنا أمضى اليه سعيدا ٠٠ امتدت يد ضخمة منعتنى ٠٠ حين قاومت ، اقتادونى بعيدا ورمونى بعنف ٠

* خطأ من الطباعة من الرواية

وقبل أن أرتطم بالأرض لمحته ، هو نفسه الطفـل الذى فر منى وهرب ٠٠ رأيته مشدودا من ساقيه والدم ينزف منه ٠٠ قانيا بلون العقيق ٠٠ صحت ٠٠ الطفل ٠٠ لا تذبحوا الطفل ٠

وأحكموا الحصـار ٠ وارتطمت بالأرض وغامت الدنيـا فى عينى ٠

كانت العتمة تصنع ظلالا قاتمة وأنا أتذكر ما كانوا يرددونه قديما ٠٠ عن الطاحونة التى لا تدور الا على دماء طفل مخطوف من القرى البعيدة ٠٠ لكننا فى عصر الآلات المتوحشـة !! أتحتاج أيضا الى دم الأطفال ؟ ٠٠

قررت أن أعود الى الحفل وأن أصل اليه عبر ممر آخر ٠٠ درت حول السرادق ولففت حـول الدار الأنيقـة الملاصقـة ، واهتديت الى فتحـة دخلت منها ٠٠ كانت تصـل بين الدا والسرادق ٠٠ ثمة ممرات كثيرة وردهات ، أحدهـا سيفضى الى السرادق ، فالأطفـال ، فالأحذيـة ٠٠ وشـعرت بالمسرة بدأت أدور فى الردهات حتى اهتـديت الى ممر ضيق يلاه الحوائط ، قلت فلأنفـذ منه ، تلصصت حتى عثرت على سلم ٠٠ فنزلت ٠٠ حين انتهيت وجدت نفسى فى البناية أحسست بانقباض شديد ٠٠ كانت الحوائط تتساند تخترقها أشعة كحد السكين ٠

فـكرت أن أدق الباب ٠٠ لكننى أحجمت صوت المرأة بالداخل ، كان الشق فى الجدار ولا جسمها الضخم المترهـل ٠٠ بدا لى أنها تقف على عتبة الممر المؤدى الى الرحبة الوا

ونزلت الى الرحبة فى طريقى الى الخارج .. لمحت رجلا يهرول ، يحمل فخذ ضـأن تتصـاعد منه رائحة الشواء .. قلت : الطريق صحيح . واللحم من الوليمة القائمة .

صاح الرجل فى وجهى .. فأفهمته أننى لا أنازعه لحمه ، وانما أبحث عن طفـل أخرس ، لأنه أخـرس فقـد ضل ، ولأنه ضل فقد يقع فى يد من لا يرحم .. ولأنه ...

صـاح الرجل مرة ثانيـة ، واحتضن اللحم بين ذراعيـه وولى هاربا .. صفق الباب وأحكم اغلاقه .

أصابنى الوجع فى جسدى كله ، وانهرت .. وارتعبت ، وتفرست فيما أرى .. كانت القطة السـوداء الضـخمة تقف فوق حفرة فى الوسط .. تستطيل ، وترتجف ، وتتكرر . تضغط وتحزق، ينز العرق وتنفر العروق ، وترتجف ، تومض العينان، وتطل الوجوه ، وتنقبض .. تختفى الوجوه .. وتلد .

أخذتنى الأرض فتمددت منهـارا .. تدور حدقة عينى بين ضة القطة وبين الوجوه المطلة .. وأخذنى هول مفاجىء .. القطة السوداء الضخمة تلد ، ثم ترمى بولدها فى الحفرة لتراب عليه .. كانت تخفيه فى اللحظة التى تختفى فيها .

لمح فى العيون الغضب ونفاد الصبر .

م القطة تدور برأسـها فى حـركة دائرية تمسح س قبل أن تطل الوجوه .

الوجوه تنمرت القطة فعادوا للاختباء .. وقبل حت بين يدى كل منهم فخـذا ، ورأسـا ،

ورجلا ، وذيلا ، ومخلبا ، وأحشاء ٠٠ أدركتنى رعشة متواصلة ٠٠ وابتهلت الى الله أن يطمس عيونهم ، فلا يروننى ٠٠ وباغتتنى وجوده !! ما الذى جعله يقف بينهم ؟ ٠٠ هـذا الرجـل مديد القامة ، الوجيه ، الثرى ، صاحب الحى ٠٠ ما الذى جعله يترك حفله ، ويقف معهم يشير اليهم أن يفعلوا ما فعلوا ٠

وتصورت نفسى بين أيديهم فخـذا ، وقلبـا ، ورئـة ٠٠ واحتوانى خدر بدأ يسرى فى جسـدى ٠٠ وفى اللحظـة التى تفرق بين اليقظة والمنام ، ٠٠ الحضـور والغياب ٠٠ لمحت المرأة المترهلة حارسـة الرحبـة ٠٠ تشير الى الأبواب ٠٠ فانفتحت وامتدت الأيدى الى ٠٠٠٠

كانت عينـاى تحدقان فى الحفرة ٠٠ وأنا أتلاشى شـيئا فشيئا ٠٠ وكانت ملامحه ٠٠ تتخايل ٠٠ وعيناه الحمراوان بلون العقيق تتدحرجان الى قلب الرحبة ٠٠ بئر العتمة المظلم ٠

●

حافَةُ العين

منذ صبيحة اليوم وهما يدبان على الأرصفة قادمين من بعيد ويتسحبان فى بطء وحذر كأنما يريدان أن يتلاصقا ويتداخلا وكان ـ وهما يسيران ـ نقطتين صغيرتين باهتتين تذوبان وسط حشد من العـربات والناس ، والطين ، والماء الراكد ورقد على ملامح البنت خنوع راض بحركة النفس ، ومشوار الطريق ، فالنية أن يقصدا الى السيدة زينب ٠ لم تمنعهما برودة الجو ولا وحل الطريق ، ولا الأسمال البالية ، فالبال مشغول بالرجل الطيب وزوجته الصالحة ومأدبة الثريد بلحمها الدافىء ٠

كانت البنايات العالية ترتفع من كل جانب ، تكاد تضغطهما وهما يمضيان ٠٠ فاختلسا السير على امتداد الرصيف ٠٠ والعجوز الذى يقبض بقوة على يد ابنته لا يستقيم خطوة أمام الهول الذى تبدى لابنته وعيناها تعجزان عن اللحاق بما ترى وتشاهد ٠ وهى نفسها بعودها الطرى لا تقوى عليه ، ولا تصمد أمام المزاحمة ٠٠ كل شىء يخترقها ، وعيناها لا ينطبق لهما جفن ، ولا يستقر لهما « نن » فالعالم أمامها مترع بالأضواء ٠٠ يغطى النور كل شىء ٠٠ العمارات واللافتـات ، والسيارات والناس والوحـل والمطر ٠٠ وكل شىء ٠

شدتها عمارة شاهقة بدت لها كالجبل ، نمدت رأسها نافرة تشاهد الطوابق ، أمالت الرأس طويلا وخطف عينيها ثياب زاهية تتدلى وخفقة الهواء تزيدهـا بهـاء ، فتمنت لو يلفها ثوب جديد

تتباهى به أمام اخوتها رأمها ٠٠ وقتها ستحقق لأمها أمنية أن تكون سنيورة ٠٠ وستظل تردد وهى تنظر ، وتتملى ٠٠ سبحان من صور ٠

تطوح العجوز وكاد ينكفىء ٠ أحكم قبضته على كتفها ، وثبت عصاه فى الأرض وهمس فى حدة :

ـ لا تأخذك الأشياء منى ! ٠٠

ويتسع الطريق فى عينها ويضيق ، ويأخذها انبهار طاغ بكل شىء ٠٠ زجاج المحلات ، وأبواب العربات ، وصـدور الفتيات ، وأقدام النساء ، وضحكة الصغار ، والأحذية اللامعة ٠٠ تتقاطر فى العين مرئيات لا تقوى على الامساك بها ٠٠ ولكنها هذه المرة أمسـكت بها ورقدت عليها ٠ كانت المرأة تهبط سـلم العمارة العالية ، وكانت تؤرجح فى يدها حقيبة سـوداء مزينة بخيوط صفراء كالذهب ٠٠ ولاح الحذاء لامعا والوجه نظيفـا ، والرقبة عارية ، والبطن ممتلئة ٠ والجسد مبروما ، والبالطو مفتوحا ، ظلت تتابعها حتى دخلت السيارة ٠٠ وتلكأت فى سيرها ٠٠ وهى توهم العجوز بأن الحذر واجب ، وتفادى الحفر والطين يقتضى مهارة وحذقا ٠٠ والمرأة تنظر فى مرآة العربة ، وتعيد بعض الشعرات النافرة الى نظامهـا الأنيق ، تضغط شفتيها الحمراوين فى زمة خفيفة ٠٠ ويحتويها المقعد وتستريح فيه ٠٠ وخرج من السيارة صوت ارتاعت له البنت ، ٠٠ ولم يفتها البطن الممتلئة ، ولا حقيبة اليد التى نامت فى المقعد الخلفى ٠ واندهشت وهى ترى المرأة تقود السيارة فى سـهولة ويسر ٠٠ والرجل الجالس فى عربته خلفها يبتسم ٠ غطت الابتسامة ملامح الوجهين معا ٠ ومرقت سيارة الرجل مسرعة فارتجت البنت وخمشت وجهها ، ولوت رأسها بغل فلمحت الرجل يحدق فيها فارتجفت وأسرعت ومال جذعها وكادت تسقط ٠

انكفأ العجوز على ركبتيه ولم تسعفه عصاه ولا كتف البنت ٠ دارت يده فى كل اتجاه ، وشد على ثوبها فلاح عظام الكتف ناتئا ٠ جمعت نفسها وأعطته العصا ووضعت يده على لحم الكتف ، وتمشى على ملامحها ضيق يعصر الوجه وألم يأكل القلب ، وطالها رذاذ الوحل ٠

وقبض العجوز بيده على لحم الكتف وقال غاضبا :

ـ تنبهى للطريق ٠

ناءت البنت تحت قبضته ومضت صـامتة ٠ ووقف العجوز فجأة ، أدارها اليه حتى كاد وجهها يختفى فى بطنه الضامرة ٠ تملاها بعيون أطبقت عليها جفون مرتخية وأصـابعه تلملم مزقة الثوب ٠

ـ لا تنشغلى بما فى الطريق ٠

ـ ولكنك لا ترى ما أراه ٠

أرخى قبضته على الكتف وضرب بعصاه الأرض ٠ مدت البنت يدها ومسحت رشات الطين عن وجهه وقالت فى وهن :

ـ ما أراه لا أقوى عليه ٠

مد ذراعه على طولها وأحاط بالبنت :

ـ ستشاهدين الكثير فاصبرى وتحملى ٠

وامتدت أصابعه تتحسس لحم الكتف وهمس فى رقة :

ـ لا تنسى أننا قد نتأخر ٠

وضحك فى بساطة ٠٠ ولم يفتها صوت الحزن فى ضحكه :
ـ وقد يفوتنا الطعـام ٠

أسرعت خطواته وبدا كأنما يقودها :
ـ الرجل الطيب يقدم طعامه مبكرا وامرأته الصـــالحة قد تتحفنا بثوب قديم يناسبك ٠

والبنت تسحب العجوز وعيناها على الأسفلت المبتل بالطين ٠ تدور الدنيا حولها ، والشارع يضج وعيناها على الأسفلت ٠ تشتد حركة السير وتختلط الأجساد وتعلو الأصوات وتتصادم العربات وعيناها على الأسفلت ٠٠ يتدافع الناس بالرغم من برودة الجو وقتامة الغيوم وزخات المطر ٠٠ وعيناها على مواطىء القدم فالعجوز لا يتحمل سقطة أخرى ٠

يرتسم القلق على الوجه ، ويرشح من العين ، والعين مفتوحة على أدغال البشر ، والعجوز منتصب القـامة فى جفـاف ، يكاد ينقصف لأقل حركة وفجأة تطوح الجسد ، وغاصت عصـــاه فى الحفرة ، وانطرح على الأرض ٠٠ خفت ما خافت منه ٠٠ وتصرخ البنت ، وتقف حبات الدموع على حد الجفن ٠٠ وترتعش البنت وتلبد فى مكانها ترتجف ، وعيناها على أبيها ٠٠ ويسرع المارة وينهضون العجوز ، تأكلهـا العيون ، وتربتها الأكف وتدفعهـا الأيدى ، وينتقل العجوز الى الرصيف ، ويسند جذعه الى حائط بناية كبيرة ، وينهد جالسا بجميع جسمه ، ممسكا عصاه بكلتا يديه ، وتلبد البنت الى جواره وترتجف ٠

قال العجوز كأنما يحادث نفسه :
ـ ما عدت تصلحين ٠

أحس برجفتها فمد يده ولامست أصابعه جلد الوجه . تقلصت الملامح تحت لمساته وأحس بصدمة فأدرك أن البنت تنوء بحمل ثقيل . كان الاحساس بالعجز يحتويها ، والأشياء تضغطها تخطفها منه . ولانت ملامحه وارتجفت جفونه المشدودة ، ولاصقها حتى كاد الوجه يختفى فى البطن الضامرة ..

ـ مالك ..

رفعت رأسها ورأت وجها مندهشا ومتألما :

ـ لم يحدث أن انشغلت عنى كهذا اليوم .

وتمتمت ، وتحركت الشفتان .. وخرج الصوت مرتعشا ومكتوما :

ـ حزينة .. وتائهة .

مسد الشعر ، وتخللت الأصابع خصلات ملبدة :

ـ ابكى اذا أردت .. فقد تستريحين .

ونظرت الى أبيها ، وشدت جسمها ، وزمت عينيها بقوة كأنما تضغط على محابس الدمع وقالت فى وهن :

ـ ضاع الفرح منذ خرجنا من الزقاق .

ـ كثيرا ما خرجنا يا ابنتى .

زفرت البنت فى تهويمة ساكنة :

ـ اليوم مختلف ..

فى الزقاق يمرح الهم .. ولكنها الآن تسير فى طريق يغمره الضوء ، وتقتحمه العيون وتتشاهق فيه البنايات ، وينسد من

الزحام · ليس فيه ماعز ، أو حمير أو زبالة ·· أو نساء يغسلن الملابس أمام العشش ·· ونظرت البنت الى السماء ، ورأت الغيوم والســـواد ودعت الله أن تكف العين ويستقيم الطريق · وقادت أباها ، وتخطت الأرصفة وتنبهت تماما الى المفارق ، ومنت نفسها بفستان قديم ··

وحين رفعت رأسها وجدت الرجل يحدق فيها ويبتسم ·· وعصاه مشرعة كأنها الدليل ·

●

الفيلُ الصّغير

.. خرج الفيل الصغير كعادته كل يوم للتنزه ، فهو يحب أن يتجول فى الغابة ، ويستمتع بأشجارها الخضراء الطويلة ، وبأزهارها الحمراء ، والصفراء ، والبيضاء التى تزين نباتات الغابة .. وكان يحب أن يرى الناس الذين يعيشون على حافة الغابة .

رأى الصغار يلعبون . انهم دائما يضحكون ويمرحون ، وترتفع أصواتهم فى مرح وبراءة . وخيل الى الفيل أن الأشجار كانت تضحك لفرحهم ، فتتراقص الأغصان ، وتغرد الطيور وتتساقط الثمار الناضجة ، فيجرون ويلتقطونها ، ثم يمضون الى النهر ، ويغوصون ويستحمون . وابتسامة حلوة تكسو وجوههم فتضحك لهم الدنيا .

وقف الفيل مدهوشا بفرحهم ، وتخفى خلف شجرة ضخمة ، حتى يراهم عن قرب . وتمنى لو كان واحدا منهم ، اذن لضحكت له الأشجار كما تضحك لهم ، ولجاءت اليه حبات الثمار الطازجة كما تجىء اليهم .. ولكن ...

ولأنه لا يستطيع اللعب معهم انصرف مهموما حزينا .. وظل يحدث نفسه .. أنا عاجز عن أن ألهو مع الصغار ، .. أنا لا أقوى على مجاراتهم .. انهم كالغزلان الصغيرة .. وأنا فيل صغير وضخم .

وفكر الفيـــل بخبث ، وقرر أن يحرمهم من اللعب • كان غاضبا ، وكان ثائرا • وحـين الغضب لا يفـكر العقـل جيدا ، ولا يستقيم الفعل ولا ينبض القلب بحب الغير •

كانت ضحكات الصغار لا تزال تتردد فى سمعه • أطبـق أذنيه وجرى • احتك بالأشجار ، داس بأقدامه الهائلة النباتات الطرية • واندهش لصرخات البنات •• واندهش من نفسه فهو لم يحس بقلبه حجرا صلدا كاليوم •

واندفع الفيــل الى النهر ، وعب ما اســتطاع من مـاء ، واستدار • كان غضبه شديدا • وتسلل اليهم • وتمنى فى لحظة سريعة كالبرق لو كان مثلهم • واندفع فى هياج شـديد • تعجب الصغار وتوقفوا • ظنوا أنه قادم يتودد اليهم ، يلهو معهم •• فتحركوا نحوه •• واندفع الماء من الخرطوم الطويل •• وبلل الوجوه والثياب • دبدب الفيل فى فرح فانسحب الصغار واختفوا •

وظل الفيل كلما خرج ورأى الصــغار يلعبون ، يذهب الى النهر ويملأ خرطومه ، ويفاجىء الصغار ويرش عليهم ما به من ماء • وفى المرات الأخيرة تعمد الفيل أن يمتص الماء الطينى العكر • كان يرى فى ذلك لذة حين تسود الوجوه وتتلطخ الثياب • وقرر الصغار مواجهة الفيل • رأوا فيما يفعله ظلما بهم •• قالوا : كنا نتحمله حين كان الماء رائقا ونظيفا ، أما الآن فلا •• لا ••

وأحس الصــغار بالحزن • انهم لا يريدون ايذاءه ، لكنـه لا يحق لأحد أن يحرمهم حقهم فى اللعب ، والمرح ، وحب الحياة ، حتى ولو كان الفيل نفسه •

فى الصباح ، والندى لا يزال معقودا على الأوراق ، خرجوا وفى أيديهم حبل غليظ ، وفى عيونهم ترقب ، وفى قلبهم حزن •

جاء الفيل والصغار يلعبون ٠٠ كانوا حذرين ٠٠ ومترقبين ٠٠ كان كل واحد منهم يعرف دوره ٠٠ وسرعان ما التف الحبل الغليظ حول الخرطوم ، وسرعان ما انعقدت عقدة محكمة ٠٠ وجذب الصغار الحبل من طرفيه ٠ واهتاج الفيل فجروا واختبأوا ٠٠

حاول الفيل أن يتخلص من الحبل فلم يستطع ٠ شد الحبل بقدميه ، حكه فى الشجرة ، دفسه فى الماء ، لوح به فى الهواء ٠٠ لكنه ظل عاجزا عن الخـلاص ٠ والعقدة تضـغط عليه ، ونابـاه العاجيان الصغيران يحتكان به ويؤلمانه ٠

وغضب الفيل ، وصاح ، وثار ٠

توقفت الأشجار ، وتسمعت الأوراق ، وصـمتت الطيور وخرجت الفراشات تحوم ٠٠ الكل يتوقع الخطر ٠

والصغار ــ بعيدا ــ غلبهم الحزن ٠

لم يتوقعوا أن يتألم الفيل كل هذا الألم ٠ وشعروا بعطف كبير نحوه ، وبحنان زائد ٠ وحز فى نفوسهم أن يقف منكسرا ، مستسلما للألم ، وقد ارتخى خرطومه وتدلى ٠

ذهب أحد الصغار اليه فى خفة وحذر ٠٠ لمحه الفيل فارخى أذنيه ، وأطبق جفنيه ٠ وهال الصغار دمعة كبيرة تنزل من عين الفيل المسكين فتحرق الأرض !

نسى الصغار حذرهم ، وطغى عليهم الاشفاق والعطف وارتموا عليه يتحسسونه ، ويربتون عليه ، ويفكون الحبل ، واندفع الماء كالرشاش الهائل ٠ لم يعبأوا بالماء الذى أصابهم ٠

وارتاح الفيل ، ولوح بخرطومه ٠

وراح يطلق صيحات الفرحة ٠

وتعجب الفيل أن يكون الخلاص من أله ، آتيا ممن حاول ايذاءهم ٠٠ وسار اليهم ٠٠ وضحك لهم ٠٠ وفرح بهم ٠ ومد لهم خرطومه ، وصعد الصغار ٠

وطاف بهم الفيل وسط الغابة ٠٠ فرحا ومزهوا ٠٠ فهو من اليوم يستطيع أن يلعب معهم ، ويمرح ، لأنه أصبح صديقا لهم ٠

❁

المدار

مسرحية في ثلاثة فصول



الفصل الأول



يمثل المنظر واجهة دار . الجدار بعرض المسرح به نافذة محطمة . الباب قديم . بالجدار فتحات غائرة . أمامه نتوء شجرة صفصاف عجوز . على أحـد فروعها اليابسـة منجل ، وغربال ، وفأس ، ومنديل محلاوى به أرغفة من الخبز ، تحت الشجرة مقطف مرمى فى اهمال . فى الجانب الأيمن ممر يؤدى الى الغيطان ، وفى اليسار سكة تؤدى الى البلد .

جهة الممر الأيمن ، أرض خضراء منثورة على مساحتها شجيرات من الكافور والليمون ، والسـنط . أشـباح رجـال ، واقفون ، منحنون ، رءوسهم معصوبة ، ومنكسة . لا يظهر من بنايات البلد شيء . بجانب الجدار مصطبة بعرضه . مهشمة الطلاء .

يأتى من الممر الأيمن . أبو الخير . يلبس جلبابا أزرق حاسر الرأس ، شاعث الشعر ، يخرج علبة الصفيح السوداء . يلف سيجارة . يلمس المنجل . يتأوه فى وضوح . يرمى بصره الى الداخل ... يطأطىء رأسه ويجلس .

(تخرج مرجانة من الداخل) .

مرجانة : جيت !!

(تدلف يدها فى الفتحات بالجدار تبحث عن ملح) .

كنت حاطة الملح هنا

(تبحث في فجوة أخرى ، تخرج « قلة » مكسورة ، تدلق منها بعضا من الملح)

(وهى داخله ، تنظر اليه)

ســـاكت ليـــه ؟؟

(تمرق قطة تجاه الممر الأيمن يبدو على (أبو الخير) ، قلق ظاهر يشعل سيجارة أخرى ، يده ترتعش تخرج مرجانة ثانية تضغط على أنفها بذيل الجلباب) ·

مرجانة : ع الكانون وآخباره ، ياما قلت لك هات طوبتين حمر · علشان يتعدل · وانت ·· (تتفحصه)

مش ســـائل ·

(تقف بجانب تنوء الصفصافة)

خـــلاص !

(تضرب بكفيها ، تقبل أصابعها) ·

طبخت قرع ، تحب تأكل وهو سخن ·

ابو الخير : (موجات الدخان تتتابع من فمه) ·
مليش نفس · نفسى مسدودة ·

مرجانة : وامتى حتتفتح ، دا انت مافطرتش ·

أبو الخير : (يظل صامتا ، ويضع رأسه بين يديه) ·

مرجانة : (ترفع رأسه وتبقيها بين يديها) ·
بص لى · حاغرف لك صحن واحد · وجرب ·
(يرمى رأسه ، فتفر من يديها) طب جرب !

أبو الخير : (ينظر اليها فى صمت)

مرجانة : ان مكلتنيش وراه ، يبق لك الحق (تبتسم) هيه ٠
أوم دا القرع البلدى اللى بتحبه ٠
(يظل أبو الخير صامتا)

مرجانة : أجيب لك هنا ! حاجيب لك هنا ٠
(تتحرك الى الداخل)

أبو الخير : ناولينى !!

مرجانة : (تقف بلا حراك منتظرة)

أبو الخير : ازازة السبرتو ع الفرن هاتيها ٠

مرجانة : (تضرب صدرها بيدها)
مش قلنا يا أبو الخير ، حنبطله ٠
(تتحرك ، وسط المسرح ، تلف حول النتوء)

أبو الخير : يا مرجانة هاتى السبرتو بلا لف ٠

مرجانة : نسيت يبق ايه السبرتو ! واللامش فاكر ٠
(تتناول المنديل المحلاوى ٠ تضعه فى حجرها ٠ تجلس على أرضية المسرح ٠ تسند رأسها بيدها) ٠
حرام ، والنبى حرام ، ده بخت ايه ده ، مش كفاية اللى احنا فيه ٠

أبو الخير : ايه يعنى لما أشرب ٠

مرجانة : ايه ! مفيهاش حاجة ، هو الهم يقعد لمين !

أبو الخير : (صامت ينفث الدخان) ·

مرجانة : أكلمك تقعد ساكت · وتدخن ، وأنا أولع ، ايه اللى جرى · يادى الداهية ، واللا نسيت ، لك حق ·

أبو الخير : خايفة م الدواهى !

مرجانة : أخدها فى حضنى !

أبو الخير : ما هى فى الحضن ، طول العمر ، واحنا فيها لشوشتنا مغروزين ·

مرجانة : هيهمك ، مادام بتشتغل معاه · حد سايعك ·

أبو الخير : (باستخفاف وقرف)

تقصدى العمدة !!

(يقف فجـــأة ، يضع يده على ذقنها يتفرسها ، تخاف يتركها ويجلس على النتـــوء ، يضع القـــلة فى حجره ويصـــــمت) ·

مرجانة : مالـــك !

(تقترب منه)

متخوفنيش كده · مالك · انت عارف ، أنا خايفة عليك ·

أبو الخير : (صامتا لايزال) ·

مرجانة : ما ترد ، وتريحنى · ريح مرجانة ياخويه ·

أبو الخير : كلامى مافهش صنف الراحة ·
(ينهض قائما فى قلق ظاهر)

مرجانة : فيه ايه ! حصل حاجة · كده واللاكده ·

ابو الخير : العمدة يا مرجانة ·

مرجانة : (باستهتار واضح وسخرية) ·
ماله · عمل حاجة تانى ·

ابو الخير : (يذهب غاضبا الى الممر · يستدير · يواجهها) نفسى مررت · زهقنا من الديل · أنا كنت ديل · والحكاية لما تيجى فى القوت ، يبق الديل عمى فى العين ·
(يجلس القرفصاء ، غاضبا ، رأسه بين راحتيه) ·
(تتفرس فى وجهه مرجانة) ·

مرجانة : متخبيش عليه · قلبى كاشفك · فيه ايه ؟
(صمت)
حاسة جواك حاجة منرفزاك ·
(منفعـــلا)

ابو الخير : مشـــعللانى ·
(يقف بجـــانب الصفصافة ، يتحسس الفأس يدخل الى الداخـل) ·

ابو الخير : (يخرج · وفى يده بلطة يرشقها فى تنوء الصفصافة العجـــوز) ·

ابو الخير : عاوز يبلعنا ، زى التعبان ·

مرجانة : (لا مباليـــة)
مين !! العمدة !! مانت عارف انه بيبلع · بس يبلع فينا ايـه ·

أبو الخير : (يلف حول نفسه)

مرجانة : (يبدو عليها القلق ، تتجه اليه ، تلف حول الصفصافة وتلمس الفاس كما فعل ·· وتتطلع الى السماء) ·
خير يارب ·· دا بقى له زمان ماغضبش كده ·

أبو الخير : عاوز يشـــترينا · يشرب اللى نزمنا زى البحر ، فى الأرض ·

مرجانة : (قلقة)
يبق عاوز حاجة · يالدلعدى (بغضب) عاوز ايه تانى ·

أبو الخير : (ضعيفا كما لو كان يحدث نفسه)
ياخدها ، بعد ما نضفت !! البراح نضف حلى فى عينه ، يامرجانة ·

مرجانة : (عصبية ، تقفز هنا ، هناك)
أوع تفرط فى البراح · أوع يا أبو الخير ·
(تدلف يدها فى فتحة بالجدار · تخرج جلبابا مهلهلا · تطوح به أمامه)
(عيشيتنا سوده زى قرون الخروب · والبراح نقطة بيضة زى الشهد · دى المية والهوا) ·
(تخبط صدرها وتواجهه فى حدة)
البراح دى احنا دى حته مننا

أبو الخير : هم الصغيرين كده ، دايما مهمومين · وغلبانين ·
(بانفعـــال)
ناولينى السبرتو ·

مرجانة : مش وقت السبرتو ٠

أبو الخير : متوعظنيش ٠

مرجانة : يهرى كبدك ٠ وانت عارف ٠

أبو الخير : يطوح بيديه ٠

كبدى مهرى من زمان ٠

مرجانة : زى الفرع ، تسد عين الشمس ٠ عاوزاك ٠

أبو الخير : عين الشمس حامية يامرجانة ٠

مرجانة : ماتحماش عليك ٠

أبو الخير : هاتى السبرتو ٠

مرجانة : عبد الغفار ٠ مات م السبرتو ٠ انت ناسى !

أبو الخير : (يصمت) ٠

مرجانة : مراته كلتهـــا الديابه ٠ مراته اتحرقت ٠ عاوز تحرقنى يا أبو الخير ٠

أبو الخير : هاتى السبرتو ٠ يامرجانة ٠

مرجانة : (تدخل وتأتى بزجاجة السبرتو ٠ يتناول منها الزجاجة يصبها فى فمه) ٠

أبو الخير : عاوزانى أســـد عين الشمس ٠ ده احنا دايرين فى طاحـــونة ٠

(يكور قبضته ويســـددها فى الفراغ) دول حجرين كبار بيطحنوا اللى بينهم ٠

مرجانة : (صامتة) ٠

أبو الخير : مرجانة ٠

مرجانة : قلب مرجانة ٠

أبو الخير : الفجر طالع ، حواليه شبورة ، (يتطلع الى السماء بخوف) والنجمة الى ياما سهرنا عليها ، خايف تنطفى ٠

مرجانة : (تأخذه فى حضنها)
حتنور على طول ٠
(تنفصل عنه)
حتبعت النور ٠ ونسهر معاها من تانى ٠

أبو الخير : تفتـــكرى !!

مرجانة : دا من جوه (تشير الى قلبها وبسمة خفيفة تعلو وجهها)
وعمره ما يخيب ٠
(يحيطها بذراعيه)
وقتها نقدر ، نعيش ٠ نحقق الأمل (يبتسم) وتهزى بطنك تجيبى حاجة ٠ اتشوقنا للخلفة يا بت ٠

مرجانة : (تنفصل عنه ، وشرود يسيطر عليها) ٠

أبو الخير : ونطلع الشجرة ٠ وندلدل رجلينا ٠ والكتاكيت من تحت تصوصو وتنادينا ٠٠ (بفرح) دا تبق فرحة فرحة كبيرة ٠

مرجانة : (تقضم أظافرها فى صمت) ٠

أبو الخير : (يتحدث فى لهفة ٠٠ وفرح الرغبة يسيطر عليه)
ويعيشوا فى البراح ٠٠ قدامهم برسيم أخضر ٠٠ وحواليهم الكافور ومية حلوة ٠ تجرى ، تروى البراح ، وتجيب الخير ٠٠ (ينظر الى مرجانة) داحنا بنحلم يامرجانة ٠

مرجانة : بس يبطل حجر الطاحونة ٠

أبو الخير : حيبطل ٠ لازم يبطل ٠

مرجانة : (تمضى اليه تحضنه ٠ تتمتم فى أمل) ياريت ، ياريت يا أبو الخير (تأخذ منه زجاجة السبرتو) ٠
(ينظر اليها ٠٠ يهز رأسه وتطوح بها بعيدا يسمع من الممر الأيسر ، أصوات ضوضاء ٠ فتات كلام ٠ يدخل ثلاثة رجال ٠ يبدو عليهم الحدة) ٠
(تتجه اليهم مرجانة ٠ ترحب بهم وتدخل الى الداخل) ٠

أبو الخير : أهلا ، وسهلا ، انتو فين ٠

عليقة : دا يوم واحد يا راجل ٠

أبو الخير : خدتك مننا الدكانة !!
(يرفع صوته)
شاى ومعسل ٠ يامرجانة ٠ (يصمت) ٠

عليقة : سخن أوى يا ست ٠

يسرى : (يتفرس فى ملامح أبو الخير التى ترزح تحت حزن وهم كبيرين وكأن وجود الرجال أخرجه من حالة النشوة السابقة) مالـك ٠

أبو الخير : ما انت عارف ٠

عليقة : (يدير رأسه بين الاثنين) ٠

حازم : كلمك تانى عن البراح ٠

أبو الخير : البراح عاوزنا كلنا ٠ وأنا حاسس انى غرقان ٠

عليقة : اخزى الشيطان (يضغط بيده عليه) والنبى تخزيه ٠

يسرى : البراح ضرورى ٠ علشان نبق كبار شوية يا عليقة ٠

عليقة : اخزى الشيطان · كبار آل · يا جدع !

أبو الخير : (يتحرك فى قلق) ·
الظاهر الدنيا مخلوقة لغيرنا ·· للطير والبهايم ، وللنسمة الرقيقة ، والريح اللى بتهب ، وللناس التانية ·· وا ··

يسرى : (يقاطعه فى غضب) انما احنا لأ ·

عليقة : (يتلفت هنا وهناك) ما هى حلوة أهه ·

حازم : (يرفع يده فى وجـه عليقة) الضـــابط فى البلد طول النهـــار ·

عليقة : ما هو ليل نهار فى البلد ·· الا اذا كان جاى يتفسح فى الأبعـــدية ··

حازم : الأبعدية !!

يسرى : واللى عاوز يزودها قيراطين ، فجايبه يساعده ·

أبو الخير : (بحدة) · **الأبعدية ناقصة البراح !! ناقصة قيراطين** يا عالم · **دلونى على حته يلاقى الواحد فيها نفسه · دى** هنا فاشوش ·

عليقة : ماحنا فاشوش · من زمان · أوى ·

حازم : (يتجه اليهم جميعا) هددنى النهاردة ·

يسرى : هددك ·

أبو الخير : هددك · ليه !

عليقة : زغزغك · يعنى !

أبو الخير : ازاى · هددك ازاى !
(تطفأ الأنوار · تسلط فى وسط المسرح · ينسحب حازم

الى دائرة الضوء · يحاول أن يطلب المركز يدير آلة التليفون العتيقة) · آلوه آلوه يا مركز · يا مركز رد · رد عليه ، أنا حازم عامل التليفون · يا شاويش عبده ، هيه ، اسمع ، اسمع بس ، عاوزين تصريح دفن · والله · لأصحيح · مات الصبح ، ياشيخ حرام عليك · ده كان غلبان · مفيش تصريح ! ازاى ! ده كلام · آلوه · كرامة الميت دفنه · **يا شاويش عبده ·· يا ·· يا ·· قفلت السكة الله يقفلها** في وشك ·

(يدخل الى دائرة الضوء · شيخ الخفر ·· ساعد العمدة اليمين · وعبد الستار الخفير) ·

شيخ الغفر : المركز رد واللا لاء ·

حازم : مادنيش ، عقاد نافع ·

الغفير : (باستخفاف) لازم صوتك كان واطى · ماوصلش ·

حازم : كنت معايه !!

الغفير : (باستفزاز) ما هو أصل صوتك واطى ·

حازم : (ما واطى الا اللى قفل السكة) ·

شيخ الغفر : يا خبر · بتسب المركز · يا خبر ·

الغفير : (مرددا) يا خبر · يا خبر ·

شيخ الغفر : ما عادش نافع · يا عبد الستار ·

حازم : (بدهشة) فى ايه ·

الغفير : فى كل حاجة ·

حازم : زى ايه ·

الغفير : زى أى حاجة .

حازم : والنبى تسيبنى ، أنا عامل تليفون على أدى . ومش أدكم .

شيخ الغفر : هوا اللى مشغلك .

حازم : مش أبعدية .

شيخ الغفر : العمدة بيقول كده .

الغفير : حد ينكر الفضل . لازم الدنيا مغيمة النهاردة . (يضع يده على عينيه ويتطلع الى السماء) .

شيخ الغفر : سلك التليفون مكهرب .

الغفير : والعصافير ميته ع السلك . مش ملاحظ ياسى حازم .

حازم : (يجاريهم فى حديثهم) العصفورة خرسة . والبنى آدم عاقل .

شيخ الغفر : ما يرميش نفسه . بايديه .

الغفير : حكمة . والله حكمة .

شيخ الغفر : اللى يرفع راسه قدامى (يحدق فيه حازم فيسارع بقوله) ما هو أصل العمدة بيقول كده . تنقطع ، (يشير الى الرقبة) وفيه ناس بيحاولوا ، يبق تنقطع راسهم .

الغفير : (مرددا) يبق تنقطع راسهم .

شيخ الغفر : (فى تمهل) زى أبو الخير كده .

حازم : ماله . ماعملش حاجة غلط .

الغفير : كمان . القيامة قامت ، والله القيامة قامت .

حـــــازم : وانت عارف انى ماقدرش أبعد عنه .

الغفـــير : البراح للعمدة . يا حازم .. اعرف كدة .

حـــــازم : البراح لى صـــلح البراح . حضرة العمدة نفسه ، مايرضهاش ..

(صوت التليفون يصرخ . يرفع حازم السماعة) .

آلوه .. آلوه .. أيـوه .. احنا البـلد . أهـلا . ازيك يا شاويش عبده . أنا معاك . علشان خاطركم . **الله يخليك .** ده واجب . الله يبارك فيك . تصريح الدفن ! **طب يا سيدى .** كتر خيرك . ما هو غلبان . مات محسور . كتر خيرك . مع السلامة .

شيخ الغفر : مين اللى مات محسور .

حـــازم : عبد الفضيل !! **فضل يعزق . ويعزق فى الأبعدية .** نزل من طوله مات .

شيخ الغفر : الظاهر حيتحرم عليك دخول قوضة التليفون .

الغفـــير : زى المحارم . آى والله .

شيخ الغفر : (وهو ينصرف) .

أنا البلد . والبلد أنا (ينظر الى حازم) العمدة بيقول كده . (ينظر الى الخفير فيؤدى التحية ، وينصرفان **يحاول حازم** الكلام فلا يستطيع تنطفىء الأضواء ، **فى الدائرة ثم تتوزع** على خشبة المسرح ويعود المنظر كما كان . شخصان **يمران** عبر الطريق المؤدى الى البـلد يمران بمرجانة **أبو الخير** . البرى . عليقة حازم) .

الشخص الأول : هو عاوز كده . نسيب البلد ونهج .

الشخص الثانى : وايمانات المصطفى ما عاد فى النفس صبر حنسكت لامتى ٠

الشخص الأول : ليه ما قلتيش م الأول ٠

الشخص الثانى : (بانفعال) ظرف بندقية ، ونخلص ٠

الشخص الأول : طول السنة نشقى فى الأبعدية ٠ اللى مالهاش حد ولا بر ويحجز ع المحصول ٠

الشخص الثانى : بقى ايه للجمعية ، تحجز عليه !!

الشخص الأول : نلاحقها منين والا منين ٠

يســـــرى : (ينهض ليحادثها) ٠

فيه ايه يا عبد المقصود ٠ فيه ايه يا سيد أحمد ٠

الشخص الثانى : الحكاية طالت ومررت ٠ فاكر وارثها ابن الكلب ٠ أبعدية أبوه ٠

يســـــرى : كل حاجة لها نهاية ٠ فيه ايه '

الشخص الأول : حجزوا ع المحصول ٠ منين نأكل ؟

(يلوحان بأيديهما ويسرعان تجاه البلد) ٠

ابو الخـير : وراهم يا برى شوف معاهم ايه اللى حيحصل ٠

عليقـــة : (يحادث برى) يا عم أقعد ٠ ما هو كل يوم وليلة ، حجز ٠ أقعد بلا هم ٠

يســـرى : ضرورى تكون معاهم ٠ واللى ايه يا ٠٠ يا عليقـة !

(ينسحب وراء الشخصين) ٠

عليقة : تقلش حيجوا من جنة رضوان ·
(تظهر مرجانة · بيدها اليسرى الجوزة · وباليمنى صنية الشاى · فتاة صغيرة على رأسها مقطف ، تتجه الى البنايات) ·

الفتاة : عم أبو الخير ، ابق طل ع الأرض · العيال بيرمحوا فيها ·

عليقة : سيبيهم يرمحوا روحى ارمحى معاهم ·

مرجانة : (تحادثها) اتفضلى يا سعدية ·

الفتاة : تسلمى يا خالتى ·

مرجانة : سلمى على أمك وقولى لها وحشانى ملوخيتكم ·

الفتاة : حاضر يا خالتى ·

عليقة : (وهو يحس بالصمت ثقيلا) ·
يا جماعة · هوا عمل مدار · وملففنا حواليه · حاطط ع العين الغمى · وده من زمان · ايه لازمته دى الوقت · ثم يعنى (يتجه الى أبو الخير) كنتم مع بعض · أبو الخير كان بتاعه ·

أبو الخير : (ينهض ، يبدو عليه الانفعال ·· يدور حول الصفصافة يضع كوب الشاى على النتوء ويتجه اليهم ··)
أنا كنت منتظر · حاسس انى زى الريشة مفيش أمان لأنى ضايع · عرفته لأنى مشيت معاه · كنت منتظر اللحظة اللى احنا فيها · ان البراح يتم · نبق مستورين ، فيه حاجة تسندنا · كنت فاكر ان الثعابين ماتت فى الجحور · وأنا باصلح البراح · لكن لسه عماله تزغرد · الثعابين لسه عماله تزغرد وترمح ·

علیقـــة : **(يواجـــه أبـو الخير باستخفاف) خذها نصيحة منى**
مراتى لما تزعل تحط رجليها فى الميه الساقعة ٠٠ **تهدا ،**
وتبقى باردة (بصوت ممطوط) ٠
(تظهر طفلة تتقدم على استحياء) ٠

الطفـــــلة : ايه ٠ ايه ٠

عليقـــــــة : ايه يا بت ٠

الطفـــــلفة : أمى باعتانى ٠

مرجـــــانة : ازاى أمك يا نزيهة ٠

الطفـــــلة : كويسة ٠

عليقـــــــة : أمك من حبها بتدور على ٠

الطفـــــلة : آى بتدور عليك ٠

عليقـــــــة : طب يالله ٠ أنا جاى ٠

الطفـــــلة : متغبش يابه ٠

عليقـــــــة : خلفة تخلى الواحد ٠ زى المداس ٠

حـــــازم : كتاكيت عاوزة تاكل ٠

عليقـــــــة : (يضحك فى هم) ياريت ع الأكل بس ٠

مرجـــــانة : (بانفعال) ما تصحوا يا ناس ٠
(تكشف عن كعبهـا) ٠

الشقوق مالية رجليه ٠ مش قادرة اشترى شبشب ٠ جدور
الغلة ٠ والقزار هرت جلدى ٠ اشمعنى ٠ هو احنا مش من
هنا واللا ايه ٠ غريبة بنت غريبة ، بنت غريب ٠٠٠

عليقـــــة : حكمته ٠

مرجـــــانة : لأ مش هيه الخلفة اللى مخليانه زى المداس ، ده احنا كلاب حمر وكلاب سود ٠ كلاب فى السـيجة بياكلوا بعض ٠ عشان تفضل عين النار مشعللة ٠ الدرة يتقطع ٠ البهايم تنسم ٠ الناس تموت ٠ والناس تضرب فى بعض ٠ وهو اللى عمله ٠ يطلع زى الشعرة م العجين ٠

عليقـــــة : فى اللحظـات اللى زى دى يا مرجـانة أم دقـدق تواسينى ٠ يا بو العيال ٠ أصبر لما العصب يشتد !!

ابو الخـير : حبيجى اليوم اللى تعرفه الناس على حقيقته ٠ ويتعرى قدامهم ٠

حـــــازم : الناس عارفاه ٠ بس خايفة منه ٠

مرجـــــانة : ما هو زى العنكبوت ٠ فارش على كل حتة وحتة ٠

عليقـــــة : (يخفف من التوتر) ٠
ألا ، محدش عارف الواد الشيخ محمد فين ٠

حـــــازم : (فى انبهار) ما هو قالها فى وشه ٠ كلكم حرامية واحنا المسروقين ٠

مرجـــــانة : لك يوم يا ظالم ٠

حـــــازم : (يحادث عليقة) محدش عارف هوا فين ٠ لكن بيقولوا « هج » بيشحت ع الببان بيلف كل يوم على كل باب ٠ يعيط دمعتين ٠ وياخد قشفة رغيف ٠ ولما يشبع ٠ يصرخ أنتم حرامية ٠ واحنـا المسروقين ، يهـج تانى ٠٠ ويشحت ٠ يلف ع الببان ٠٠

ابو الخـير : صحيح الدنيا وحش بيطحن الناس ٠ ولقمة العيش بتسجن ٠ والشـــيخ محمد عمال يلف ٠ (ينظر اليهم فى

استخفاف مقصود) واحنا مش أده ! مش قادرين نعمل حاجة
تخلينا نعيش فى الدنيا دى بشرف ونزاهة ٠٠

مرجـــــانة : نزاهة !! وهيا فين ؟

أبو الخـير : موجودة (يتجه الى ناحية الأرض ويشير) فى الأرض ، تحت الجلد الخشن ٠ فى شقوق رجليك ، أوع تدورى عليها جوا العربيات ، أو فى الجلد الأبيض المنشى ، الموردن زى التفاح اللى مشفنهوش ٠

مرجـــــانة : ومش حنشوفه ٠

أبو الخـير : (يصلب عوده ، يتفرس فى ملامحهم ، يتحدث بثقة) أنا الليلة ححول القنابة ٠ وسط البراح ٠ تاخد من الحوض على طول ٠

عليقـــــة : ما تحاسب شوية ٠

مرجـــــانة : الشيخ محمد آهو عايش ٠ مامتش ٠

أبو الخـير : قوم يا حازم ٠ شوف طنبور عبد الجليل ٠ والحق برى شـوف عمل ايه ٠ غاب ليه ٠ وانت يا عليقة شـوف مراتك عايزاك ليه ٠ حنحولها يعنى حنحولها ٠ والشيخ محمد أهه عايش ٠ مامتش ٠

(ينسحبون ، ويبقى أبو الخير ٠ ومرجانة) ٠

أبو الخـير : (يلف حول نتوء الشجرة) ٠
البراح كان خرابة ٠ ريحتها ماليه نافوخى ، الريحة اللى كانت بتهب منها ، ولا عطر مصر ٠ اللى بتحطه الست عشان تحلا فى عين الرجل ٠ ملتها بالطين والسباخ ، وخلطتها بالعرق اللى نززى البحر (ينظر الى مرجانة ٠٠ وهى تبتسم) وغربلتها مرجانة بمنديلها ٠ ومشت الشيخة ايدها عليها ، ويومها

صدرى اعرض ، سمانة دراعى كبرت · جمدت زى الحديد (بانفعال شديد · وهو يدور حول النتوء يحرك ذراعيه فى عصبية) لفيت مع اللى لف · وارتبطت · وخدمت · واندست عشان تيجى اللحظة ونبقى سدود فى عين الشمس ، لكن يا خسارة ·
(يتجول فى أركان المسرح) ·

الناس عاوزة تقف ضدى ليه ده · أنا اللى قطعت السلسلة وشلت الغمى · حيطالبوا بالحق · حق ايه ·· « يحادث نفسه » حقهم فى البراح ·· آى ·· ما هى كانت خرابة مالهاش صاحب ·· لكن ·· فين ·· الحق (بصوت مرتفع) فين الحق · ماعدش له مقاس ، الحق بيتفصل حسب المقاس ، كل واحد له قيراط ، سهم · نص سهم · يعنى كلنا داخلين فى البراح ، البراح بتاعنا · بتاع صاحب القيراط والسهم والنص سهم · (بانفعال) يقفوا ضدى ليه يا عالم · كانوا فين من عشرميت سنة · دى براح من قبل الطوفان (مش كده يا مرجانة) · كانوا فين الزمان ده كله · (بقوة) البراح للى داب فى البراح · ليه ، مرجانة ، برى ، حازم ، حتى عليقة حتى كل واحد بص بصة · انما تقول لمين ! زمن !!
(يدخل ويخرج وفى يده شبكة · ويمسك الفأس يضع المقطف على كتفه) ·

مرجانة : على فين ! حتحول القناية ·

أبو الخير : ادعى لنا يا مرجانة ·

مرجانة : من جوا قلبى داعيا لك · أجيلك امتى ·

أبو الخير : استريحى انت ·

مرجـــــانة : ومنين تيجى الراحة · **وانت فى البراح لوحدك ·**
أبو الخـــير : (يربت على كتفها ويمضى) ·

مرجـــــانة : خد بالك من نفســك شويتين ، **احنــا عاوزينك** يا أبو الخير ·
(يغيب عنها وتتجه الى السماء فى تبتل) ·
يارب صب الايمان فى قلبه · علشان يبق صلب · ما يخفش ، دا الخوف غول بياكل الناس ·
(تغيب داخل الدار يحل صمت · أصوات تتعالى من جنبات الممرين) ·

(همهمات من جانب الممر الأيمن · سيدة من أصحاب الطريق مغلولة اليد · تدخل وهى تلف المسرح كالمدار · فى ذهول ، بدأت تتحدث) ·

الشـــــيخة : سكرانة ، عطشــانة يا كبير · مفتونة بكل الحب ، بكل النور ، بالشعاع الأزرق اللى حوالين الشمس · (**تتجه جهة الغيطان**) **بريحة الأرض اللى** لسه راقدة تحت الغلاف ، (**تصرخ وهى تدور**) **لفيت السند والهند** ، عديت البحر ، وعديت النيل · شربت الحلو وكلت المر · دهنت جسمى **بلبن الجن ، حبلت بالتســـعة والشـــهر والسنين** (تناجى **السماء**) · **مفيش غيرك ، مادد للحيارى ايديك** ·
(فى أحد الأركان · تجلس · سبحة طويلة تدلت حتى الحجر تنزعهـا من الرقبة · يبـدو عليهـا السكون والشرود) ·
(تصرخ) يا كبير ، يا كبير ، يا كبير يا كبير ·
(عشقتك قبل ما أجى · وقلبى حتة مش منى ، وعيون الحرر **تغطينى · وتحمينى من الجن الأحمر** · (تنهض) رفعت ايدى **شلوها · حطيتها ع الأرض هرسوها** · (تصرخ) وانا قاعدة منتظرة · رجوع البسمة · القلب منتظراه ·· يصب الحب

في القلب • يدفينا بعد ما تلجنا •
(تبكى ، وتقع فى غيبوبة) •
(تخرج مرجانة) •

مرجـــــانة : (ستى الشيخة) •
(تهزها برفق) •
مالك • مالك يا ست •
(تدلك جســدها) •
(تنهض الشيخة فزعة • تلف المسرح) •

الشـــيخة : كاوين القلب بالنار • مخوفينهم بحبـة القلب •
اديت قلبى لى ما يستهله • قطع صدرى • وحرق القلب •
جبارين ••• جبار أنت فى سماك •

مرجـــــانة : مين دولة يا ست •

الشـــيخة : وفى الكتاب نزل الجزاء •

مرجـــــانة : (بحزن) • وامتى ينزل الجزاء •

الشـــيخة : (تحدق فى مرجانة) أما يرجع حبل السرة من تانى •

(بقعة ضـوء دائرية • تمشى الشـيخة على حدود الدائرة لا تحيد عنها) •
كنت باحلم بعش أبيض • وولد عليه الهيبة والشان ، يسد عين الشمس • يمسك بايده القمر • وبالثانية يرمى النور • وحط ايده فى عين النار • يا عينى •

المجمـــوعة : يا عينى (ويمكن أن يكون التسجيل الصـــوتى بديلا عنها) •

الشـــيخة : سيهدم السبيجة • وسواها بالأرض • خدوه قبـل ما ييجى • يا عينى •

المجمـــوعة : يا عينى ٠

الشـــيخة : رفرفت بجناحى ٠ قصــوا منى الريش ٠ وكسروا
دراعاتى ، وعلى صنم كبير حطوه ٠ يا عينى ٠

المجمـــوعة : يا عينى ٠

الشـــيخة : دبحوه ٠ والدم سال فى المية   المية طين أحمر ٠
حملها النيل ٠ وشربتها الأرض ٠ والأرض من يومهـا ٠٠
سـودة م الدم ويوم ما راح ، يوم ما نشرب كل يوم طين ٠
يا عينى ٠

المجمـــوعة : يا عينى ٠
(يدخل أبو الخير منكوش الشعر) ٠

الشـــيخة : غربان والدم سايل فى المية ٠

مرجـــانة : طب اهدى بس ٠ ربنا يهديك ٠

أبو الخــير : (يتقدم نحوها) ٠
ازيك ياست الستات ٠ بأه تغيبى عنا كده ٠

مرجـــانة : كنا منتظرينك ٠ بنحبك والنبى ٠

أبو الخــير : (يتجه الى الشيخة ضاحكا) كنت بتحرسينى وأنا
باعزق وشيل مرجانة التراب ٠ وتحطى دبلك فى سـنانك
وتقولى توت ٠ توت ٠ توت ٠ توت ٠

الشـــيخة : (بهدوء زاعق) قادوس الساقية ناشف ٠

أبو الخــير : كله خـير ٠

مرجـــانة : كله بركة ٠

أبو الخــير : تعالى ٠ أنا عارف انك غريبة فى بلدك وناسك ٠
شاى سخن يا مرجانة ٠
(تجلس الشيخة على المصطبة ٠ وتختفى مرجانة) ٠

أبو الخــير : وصلت م السند امتى يا ست ٠

الشـــيخة : (صمت) ٠

أبو الخــير : كنت فين ؟

الشـــيخة : فى الجبل ٠

أبو الخــير : وكنت فين ؟

الشـــيخة : أ فى المغارة ٠

أبو الخير : وكنت فـين ؟

الشـيخة : (تنهض)

فى الزمن سواحة ٠ هربت منه ، ليه ٠ منه ٠ليه ٠

(تظهر مرجانة ٠ تلهف الشيخة كوب الشـاى ٠ **وتمضى الى الغيطان وصوتها يتردد)** ٠

وراء السحالى مشيت ،
دخلت الجحر وشقيت ،
وفى الســند ،
لقيته ع التختروان بيتمخطر ٠
(يخيم على المسرح صمت وسكون)

أبو الخير : مليـــانة هـم ٠

مرجــانة : يا خوية بلا هم ٠ تقولشى بينى وبينها تار ٠

أبو الخير : الشيخة حبلى يا مرجانة ٠

مرجــانة : ودى حبلى منين ٠

أبو الخير : حبلى من الكل ٠ حبلى فى التسعة ٠ وفى الشهر ٠ حبلى من عشرميت سنة ٠

(يتمدد على المصطبة · مرجانة تبدو ضيقة الصدر · أصوات صراصير · ضفادع · ضوء خافت أشخاص كالأشباح تمضى وتجىء · يسمع صـــوت ناى من بعيد · تقسيمات حزن · ومزمار بلدى يتصاعد نغمه) ·

الشمس حرقت جباه النـاس · واسود نن العيون ، من من طول البكاء · دا اســـود ورمش عينى على الوديان دى اتمد · لامتى أحكى يا طارى حكاية الانســـان فى الأرض مفروز ·

وقلبه م الهموم حزنان ·

(تأوهـات حزينـة)

غزالة حلوة

توتة ولبـلاب

تحت الحجر

والساقية دايره قدر

مخروطـة العـين

والدم ساح هـدر

ابو الخـير : (ينهض منفعلا)

كفاية يا رماح لف ونواح ·

(يسند رأسه بنتوء الشجرة)

لســـه صاحى · بتلف ع البيـــان · تحكى عـن حبيبتك زبيـدة · خطفوها منك ، كانت غزالة · حلوة · توتـة ولبـــلاب ·

(ينفعـل فى غضب)

ســامع موالك · داخل جوه · بس أكلمك ازاى · امتى تقعد معايا فى البراح · قتلوك قبـل الأوان · موتوا الحب قبل ما ينور · قالوا الحب يجيب الأمل · ويرش النور ·

قالوا الحب نجمة تعلى راس الانسان للعالى · قالوا وياما
قالوا ·· ولما قالوا ·· قتلوه قبل الأوان ·
(يظهر قادما من البنايات الى الغيطان رجل يلبس هلاهيل·
شعره منكوش · برأسه مساحة منحولة · ذراعه أكوع ·
يتعسس على المسرح) ·

الرجـــل : (ينظر يمينا وشــمالا)
هنا نعمل حتى الحتة دى
(يعرج وهو يمشى على المسرح)
الحتة دى ، هنــا نعمل ·
(ينحنى يبحث عن شىء سقط منه)
حـــق

أبو الخير : مش حتستريح باه ·

الرجـــل : استريح انت · ان كنت تقدر تستريح · استريح·

أبو الخير : مصيرنا نستريــح ·

الرجـل : امتى · امتى · نستريح ·
(يضحك فى جنون)

أبو الخير : لما نبطل لف ·

الرجـــل : طب أنا بلف من غلبى ·
(يلف الرجـل ··· على هيئـة مدار يحادث نفســه ··
يؤنبها)
كان زمان دى الوقت · زى ما أكون عايش دى اللحظـــة ،
الدرة مفرغة ، مرعرعة · مليا الدنيا والغيطان خضـــار ·
والشواشى عاملة زى شعور أم مسعود ، وحياة المصطفى
الرسول ، المتشفع يـوم القيامة عاملة عاملة زى شــعور أم
مسعود ·
(يبكى – يحتضنه أبو الخير)

أبو الخير : زبيدة • وأم مسعود ••• و •••

الرجـــل : انت نسيت أم مسعود
(تنزلق الريالة يمسحها بذيل جلبابه • فيبدو عاريا)
دا السنابل كانت عاملة زى شعور أم مســعود • كانت
بتفرش لى شعرها اللى زى الليل • ونام يا دهل • وانام •
تدعك لى ظهرى • تزغزغنى ، أضحك ، أفضل أضحك لحد
الفجر • وأم مسعود تبص لى بنص عينها • عينها صافيــة
زى الحولى • مات الحولى اللى ربنـــاه (بحزن) ، كانت
بتحب كوز الدرة المشوى •

أبو الخير : كفاية يا دهل • كفاية التعب اللى احنا فيه •

الرجـــل : مقدرش ما أنا عايش عشان أقول كده •
(يلــف)
جوا الدرة • مدفوس كوز درة مشوى • سخن • سخن
أوى •
(تنزلق الريالة)
اســتطعمته • كانت بتحبــه • طالبتنى تانى • فضــلت
أجيب • وأجيب وأنا ضعيف وغلبان •
(يلف ••• بسرعة)
مريض وحياة المصطفى الرسول (يعرج فى مشيته) تاهت
منى • وراحت له • الدرة المشوى الســخن حلو •• طعمه
حلو •
(يتفرس فى وجه أبو الخير) ما انت عارفه ؟

أبو الخير : راحت له ؟؟

الرجـــل : وماتت من يومها
ماتت من يومها

وفى بير السلم اندفنت ·

غطتها بورق الدرة ·

دفنت جنبها كوز الدرة المشوى ·

(يخرج وهو يلف مع المدار)

والطاحونة دارت ·· ودارت ·

والحجر ع القلب داس ·

والدم فزم المنخار ·

والعيون بصت · بكت · بكيت · وقعت من طولى · وحياة المصطفى الرسول كانت السنابل زى شعور أم مسعود ·

ما أنا فقير وغلبـان ·

ضعيف وعيان ·

كانت السنابل ·· (يبكى فى هستيرية) ·

(تخرج مرجانة ، قلقة وحزينة) ·

هنا نعمل حـق الحتة دى · وحيـاة المصطفى الرسول · كانت السنابل زى شعور (يبكى) وهو ينظر الى مرجانة : زى شعور أم مسعود (ويمضى) ·

مرجـانة : كبدى عليـك · ألف رحمة عليك يا أم مسعود · الرجل اتجن ياولاد · جنوه ·

(يعلو صوت رماح من الخلف)

غزالة حـــلوة ·

توتة ولبـــلاب ·

ابو الخير : تركة كبيرة · من سنين والناس عايشة فى الهم
وحتفضل لو حبل السرة مارجعش ·
(بانفعال) ·

امتى نشيل ، الغمى · علشان يرجع حبل السرة من تانى
ما هو لابد نقطع المشوار · ونبطل لف · نبطل لف ،
عشان رماح · وزبيدة والشيخة والدهل · وأم مسعود ··
ومرجانة ومرجانة !!!
(تمضى اليه مرجانة · فاردة ذراعيها مبتسمة) ·

(يسدل الستار)

●

الفصل الثاني



(نفس المنظر الصمت يلف المكان • ضوضـــاء من الممر المؤدى الى البنايات ، تتعالى أصـوات أطفـال • وفتيات • رجله رجال ونساء يتقدمهم رجل يحمل ساترا من القماش • ورجـل كالأراجوز ، يضحك النـاس بكلامه وهندامه يدخل الى المسرح والناس وراءه يلقى كلامه المنغـــم • وأصـــابع الأطفال تقرص الفتيات • وأكفهن تصفق له) •

(المنظر اذن •• يعتبر مسرحا داخـل المسرح ••• وتمثل الدمى ••• تمثيلا حيا ••• واذا كان الأراجوز ذا وضع خاص فى الريف ••• فان تنفيذه على خشبة المسرح يقتضى ••• أداء خاصا ••• وهو ما يمكن أن يكون مسرحا من داخل المسرح) •

الرجل الأراجوز : جلا • جلا ــ احنـا هنـا • أرزقتيه • قرد حتيه • كل قرش يكسب ميه • يالله هيـا • يالله هيـا أنا منكم ، وانتو فيـا نحكى مرة ، وانتو مره والشـجيع يضرب يلاقى

(يستقر فى زاوية من المسرح • يأخذ الساتر من الرجـل يقيمه على أضلاع ثلاثة • ضوضاء تتصاعد ••• ويبدأ فى تشـغيل العرائس والدمى • النـاس يتحلقون • يهتمون يعيشون لحظة لا تتكرر ألا كل عام) •

فـــتى : حتقول ايه يا عم الأراجوز •

حامل الساتر : كل حاجة حلوة • تزقزقوا • وتفرفشوا •

فتـــاة : أراجوز • يا عجوز • مناخيرك قد الكوز •

رجـــل : عاوزين لعبة الست ·

امرأة : لا عجين الست ·

شـــيخ : احكى عن الرجل اللى تجوز تلاتة ·

محرك الأراجوز : (داخل الساتر) جتكم هم ·
ما يتلم · بس ياواد · بس ياعم ·

الأطفـال : (تصيح) هيـه ··· هيـه ··· هيـه ··· احـكى
يا عم · احكى لنا بتاعة السنة اللى فاتت · الواد المتغندر·
أبو لاسه نايلون ·

حامل الساتر : (يطلب منهـم أن يصمتوا حتى تبـدأ الفرجـة ·
تظهر الدمى يتعالى صـياح الأطفال · عجوز له لحية طويلة
بيضاء يتقدم من ركن ويحكى)

العجوز : حاحكيلكم كدة حكاية ·
طالعة من غابة
فيها كدة موعظـة
والدنيـا منسابة

الأطفـال : هيـه · هيـه

رجـــل : لازم القرد والمخاوى

العجوز : أصل البحور من نقطة تتجمع
وأصل الجبال من حصوة تتجمع

المشاهدون : يا عينى ! يا عينى !

العجوز : لكن شعوب بالظلم ما تتجمع ·

الرجـــل : يا سلام · يا سلام · ايه دا كله ·

رجل آخر : دا الزناتى خليفة ياولاد ·

امرأة : لا · دا الزيبــق ·

العجوز : قالها حكيم عمره ما كان كداب ·
ينسج كلامه · يطلع م الخيوط جلبـــاب · يفرش ، يمدد ،
يلم الشمل والأحباب · أصل الشعوب بالقهر ما تتجمع
(يسقط العجوز خلف الساتر · ويصيح المشاهدون)

دميـــة : دى حكايتنا احنا يا جدعان
عايشنها من زمان وزمان
نلف وندور على البيــان

نشجع الصاحى ونفرفش الغفلان ·
(تسقط الدمية ويظهر العجوز)

العجوز : واحد فى الزمان كان فيه ·
البر ياخده ، والبحار ترميه ·
عشة فراخ ربى ، وجت تراضيه ·
بنت الجيران تضحك ، وبتناغيه ·

فتـــاة : (تتلفت وراءها)
بطل قرص انت وهوه ·

فتى : بنت الجيران تضحك وبتناغيه ·

رجـــل : بطل يا بت ·

امرأة : بطل يا واد ·

العجوز : يقوم ربك يحط السر فى الأخرس ·
يتشقلب من الغم ، ومن السجن والمحبس ·

رجـــل : (ينظر الى امرأة) زى ما احنا محبوسين ·

العجوز : تزوغ البنت فى العين ·

ورمش العين ما ينطق ·
والخد أحمر شفتشي مالقيت ·

فـــتى : يا عيني · يا عيني · (ينظر خلفه)
والخد أحمر شفتشي ما لقيت ·

فتـــاة : بص قدامك أحسن لك ·

العجوز : استموت الديك كدة · مرة
البرد قارس ، والدفا ممنوع
قلم صوابع كالحريم مخفية
حتى اذا ما استحكم الميـة
فرش جناحـه وهاها
أنا هنا · وأنتم كدة فراخي ·

المشاهدون : هيه · يا سلام · يا سلام ·

رجـــل : ما هم كدة فراخ ·

محرك الاراجوز : جتكم هم · ما يتلم بسي يا واد بس يا عـم ·
(يسقط الأراجوز العجوز)

دمية على هيئة فرخة : (تظهر الدمية وهي تصيح) كاك

دمية اخرى : (كاك)

دمية ثالثة: (كاك)

الـدمى : (كاك) (كاك) (كاك)

الديـك : (منكمشا) الدنيا ساقعة والنور مفيش العظم نشف
ومعدش ريش ·
(يدق خشبة كما الباب)
ياللي هنـا ·

دميـــة : كاك · كاك · انت مين ·

الديـك : ديك ع الطريق غلبان ·

بده ليلة فى القفص بأمان ·

دميـــة : ماحد من بره يتعرض كده لحريم ·
احنا هنا محافظين ·

دمية اخرى : النن ما يطلع من الرمشايه ·
واحنا كده حلوين

الديـك : عينى ما عاد فيها الضيا من كتر ما بكيت ·

حتى عيون المها عمرى ما حبيت

طيب وغلبان · لو تزغدوا طبيت

السـمعى : كاك · كيك · كاك · كاك · كيك · كاك ·
(يظهر العجوز)

العجوز : من كام سنة والقلب متمدد والسهم خنجر مصدى ·
والفم منجل مندى ·

واحنا بين لتنين

نطلع ، نعافر · بالقدم والحافر

رجـــل : (ينظر بجانبه · يحادث رجلا آخر) ·
ده كلام جديد ·

رجـــل : دا مفهمش ريحة أبى زيد ·

رجل آخر : زى ما يكون بيحكى عنـا ·

رجـــل : ما هو منـا ·

(يبدو الديك منكمشا ، يرتعش من البرد) ·

دميـــة : (وهى تنظر اليه) ٠
كبدى على اللى يتنفض م البرد ٠

دمية أخرى : قلبى على اللى يتحرم م الحب ٠

دمية ثالثة : كله ثواب ٠ ورزق الغيب عند الله ٠

دمية رابعة : حسنة ، وكله عند الله ما يذهب ٠
(دمية بعيدة فى ركن ، تصرخ)

الدميـــة : قبل ما تفتحوا شوفوا ٠

الـدمى : شـفنا

الدميـــة : ورا الديك الازما ديوك
نعقل ونحكم ، ويطلع يسوح
الدنيا واسعة ، واحنا كلنا أحباب
يدخل ما بينا ، يجعلنا بعد يوم اغراب
تاكل فى بعض ، وهو يدلدل الرجلين ٠

الـدمى : كاك ٠٠ كاك ٠ باين عليه طيب
(يبكى الديك ٠ وتســـمع الفـراخ له بالمبيت ٠ تسقط الدمى ، ويظهر العجوز) ٠

العجوز : حتى اذا ما الفجر بظ وفاح
ع السور قعد ، ودلدل الرجلين
فرش جناحـه وهأهأ
أنا هنا ، وانتم كده فراخى

طفـــل : (غاضب)
وما ديك كده قدر ينقر تيجان الديك ؟

العجوز : كان فيه كتير ٠

لكن ديوك أصحابه
وقفوا على أبوابه
بالنصل والسكين والخنجر
وطوبة ناشفة من المحجر
ســدوا كده لبواب
(بأسى)
وكل ليلة وليلة ينضب الأحباب
هم كده عبط ، واللا هما خياب

المشاهدون : هم خياب · هم خياب

محرك الأراجوز : جتكم هم ، ما يتلم · بس يا واد بس يا عم ·

العجوز : حتى اذا ما ارتكن للهو وحلاوته ·
سكب ع الخلق بوله وقالوا ميت ورد ·
ولما استمخ الديك يا سادة ·
ضرب بايده القفا ، وكالعادة ·
طاطت رءوس منصابه ، ومنصابه ·
حتى اذا ما الفتى الميمون قد حان ·
سهدم عليه الطوابق · نفخ في لبواق ·
والى كان ما ياما كان · ما يحلى الكلام الا بذكر المصطفى خير الأنام ·
(يســقط العجوز)

المشاهدون : عليه الصــلاة والســلام ·

دميـــة : اللي اتكتب يصعب علينا ازالته !! (في حزن وأسى)·

دميــة أخرى : زى القــدر ·

دميــة ثالثة : صخرة ناشفة مدببة ، طالعة تهد نازلة تهد ·

دميــــة : ياالله نجمع فراخ كلتها منصابة ٠

دميــة اخرى : فرخة ، فرخة ، تنقر ٠ تفرد جناح ما انفرد ٠

دميــــة : ياالله نقول فى الوش ما عدناشى ٠
نتحمل اللى مضى ، واحنا كمان ستات ٠
فى البيت ديوكنا عايشة ندابات ٠

دميــــة : والديك مفرعن يكاكى ، ينط فى البنايات ٠

دميــــه : امتى كده يا فراخ ٠
نقوم ، ننط ، نفرد كده جناح
ونهب مـرة كـده
مــرة ولا المرات ٠

دميــــة : ونقطع العرف من أول نهار ٠
ونعيش كده أحـــرار ٠
(تنهار الدمى على الديك)
(يظهـــر العجوز)

العجـــوز : وبكده نعيش اطهـار ٠
(يسقط ويلم الرجل الساتر ٠٠ ويضج المشاهدون) ٠

رجــــــل : (يتجه الى آخـــر) ٠
واد يا عبد الفضيل ٠ تقولش الكلام مسبوك علينا ٠

الرجـــــــل : بس مش فراخ يا حسين ٠

رجـــــــل : لا ٠ فراخ ٠ خليك صريح يا عبد الفضيل ٠

الرجـــــــل : احنا ديوك ٠ ديوك حيجلها يوم تصيح فى الفجر ٠

امــــراة : بنت يا هانم ٠ مبلاش مكاكية يا بت ٠

الفتـــاة : وانت غيرانه ليـه .

الفتى : (يتمخطر يعاكس الفتاة) .
والخد أحمـــر شفتشي ما لقيت .

الفتـــاة : متبس يا واد يابن أبويه عبد الرءوف .

الفتـــى : بدى ليلة في القفص بأمان .
(تتأودد في مشيتها يصيح)
يا متـــولى !

الرجـــل : وايمانات النبى . الواحـد خايف يروح للحرمة فى الدار . مكسوف تقلشى .

الرجل الآخر : وامتى حندن فى الفجر (يضحك) فى البدارى .
امتى .. امتى ياولاد .
(ينسحب المشاهدون فى ضجيج الى البنايات ويحل صمت .
وأصوات الليل الحشرية تتعالى مخيفة يظهر أبو الخير من الممر المؤدى الى الغيطان عاصـــبا رأســـه يتملى جوانب المسرح) .

ابو الخير : غابت يعنى ! الدار زى القبر .
(يتنهد ثم يحادث نفسه بصوت مسموع وكأنما الحديث نوع من الاعتراف والعشق)
من غيرك الدار ما تساويش . انت الدار يابت
وانت الغيط كمان (يتلفت حوله ، يفاجأ ، بآثار غبار ..
وبقايا مخلفات على أرض المكان) .. انما ايه العفرة دى .
زيطه . محدش عارف ايه . حيكون ايـه . هليلة عيـــال لازمـــا .
(يفرد ذراعيه بمرح ويتناجى فى عشق) تقولشى زى العروسة

المجلية • شعرها الأسود • نن عينيها الأخضر ريقها اللى زى العسل • وريحتها اللى تنعنش • واللا بقيتى ، تتسمى يا حلوة • آه منك آه •

(تدخل مرجانة • مسرعة سمعت المقطع الصوتى الأخير •• فوقفت • المقطف على رأسها • تحاول أن تزحزحه) •

أبو الخير : غبت ليـــه •

مرجـــــانة : كده كده ، مين دى الحلوة •

مرجـــــانة : (تضرب كفا بكف) •

بقى كده • بتحب جديد • مش تقول لى •

أبـو الخير : (فى مرح) دا البراح يابت • بقى حلو زى العروسة • زيك يا مرجانة •

مرجـــانة : (تبتسم • تضع المقطف على المصطبة) •

أبـو الخير : الدار من غيرك قبر • غبت ليه •

مرجـــــانة : اسكت ما درتش الأراجـــوز عامل لمة فى البلد •

شـايل عرايسـه تقولش ولاده • والناس وراه • فى كل حتـه يحط فيهـــا لمة •

أبـو الخير : تبق العفرة دى منهـــم • والله وحشنا الأراجوز •

السنة الجية لازم يفرش فى البراح • ويعمل اللمة ، دا احنا عاوزينهـا يا مرجانة •

مرجـــانة : العيال عمالة تصرخ ، والرجـــالة كمـــان • تعرف بيقولوا ايه •

أبو الخير : قولى •• شوقتينا •

مرجـــانة : بيقولوا كلام حلو أوى .. تعرف ايه .. بالله نقول فى الوش ما عدناش . نتحمل الى مضى ، واحنا كمان ستات . فى البيت ديوكنا عايشة ندابات .

أبـــو الخير : (يضـــحك) .
الله يجازيه . بقى وصلت للدرجة دى .

مرجـــانة : (بخـــوف) .
انما قول لى . زى ما يكون الوله بتـــاع الأراجـــوز يشبه الوله الشيخ محمـــد !

أبـــو الخير : يا شيخة حرام عليك . خليـه ياكل لقمة عيش . لاحسن لو حد سمع كده . ينطرد . ثم ان الشيخ محمـــد مش معقول ترجع تانى . بعد اللى شافه .

مرجـــانة : ليه لأ ؟ حاسة كده .

أبـو الخير : المهم اشتريتى كيلة القمح !

مرجـــانة : يعنى !

أبـو الخير : ايه يعنى دى .

مرجـــانة : انت مالك . جت كده . مش لك تاكل .

أبـو الخير : (بغضب) لأ ، أعرف حاكل ازاى .

مرجـــانة : طب اسكت باه . أنت النهاردة مش على بعضك ؟

أبـــو الخير : هيه . وبعدين ؟

مرجـــانة : الحاجة ستهم ادتهالى . زكا يعنى .

أبـو الخير : وقبلتيها ليه يا مرجانة .

مرجـــانة : (تلوح بيدها فى تبرم) ناكل منين يا ضـــنايا .. مفيش فلوس .

أبـــو الخير : يقوم نقبل الزكا يا مرجانة .

مرجـــانة : مش عيب . والي ايه .

أبـــو الخير : طيب .. مفيش حاجة جوة تتاكل .

مرجـــانة : فيـــه ، البصـــل . والمش . ورغفين ماددين . على ما اطحن بكره .

أبـــو الخير : (بأسى) بقى الشغل ده كله ، يستاهل البصـــل يـــاولاد .

مرجـــانة : حاعمل لك مشلتت بكره . وصحن عسل أســـود . يقويك شوية . معلهشى حنعمل ايه .

أبـــو الخير : نحمـــده .

(يدخل الى المسرح سطوحى . يبدو عليه التردد والوجل) .

أبـــو الخير : (ينظر اليـه فى دهشـــــة) سطوحى .. والله عشرة سنين . اتفضل . اتفضل .

ســــطوحى : (يبدو عليه التردد) .

مرجـــانة : (منفعلة ويبـدو عليها التوتر فى حركات يديها .. وتقلصـــات وجهها) ..

ياك جى عاوز وصفه بلدى للبغل . (تشير الى أبو الخير) والا عاوزه عشان يحمى المهر الصغير . والا يســكن بطن الست الكبيرة كلتها . عاوزاني ادعكها لها .. والا يمكن الست الصغيرة عاوزاني أخبيها فى جلبيتي ، عشان النبى حارسه ، ما هم سنات ما تقول عايز ايه . يا سطوحى ..

سطوحي : حاسبى شوية يا ست · دى العشرة ملجمة الواحد ·

مرجانة : العشرة ملجمة الواحد · يا عينى على اللى فات ·

سطوحي : (يتوجه الى أبو الخير فى انكسار)
العمدة · مصمم على البراح

أبو الخير : الماضى راح يا سطوحى ·· واللى انت شايف غير كده

سطوحي : لسه مش قادر يصدق ·

مرجانة : احنا ، متولدناش وحشين ·

أبو الخير : البراح موجود · والشيخ محمد لسه بيلف ·

مرجانة : احنا انسلخنا من العيشة الذل دى · خلاص ··

سطوحي : (يتوجه بالحديث الى مرجانة)
أبو الخير · عايز يطلع النخلة · ويعدها جريدة جريدة · يا مرجانة ·

أبو الخير : خوصة ، خوصة · ليه لأ ·

مرجانة : تكونشى عاوزنا نلف وندور زى الجاموسة المقرنة ، من تانى ، وهوا يحلب ، ويحلب ، واحنا نلف ونلف ، على عنينا الغمى ، تكونشى عاوز كده ·

سطوحي : عارض ثمن الاتعاب · وعارض كمان كردان · كردان دهب خالص · مانزلش مصر · ولا ورد على بر ·
(ويخرج الكردان · يخطف البريق عين مرجانة ، تتناوله منه وتضعه فى رقبتها · ترتعش) ·

مرجـــانة : يا اختى ! أنا برتعش كده ليه ٠

أبـو الخير : (قلقا) من أول قطفة برســـيم ، حاشتريلك كردان يـا مرجـــانة ٠

مرجـــانة : (شاردة) أنا لايقه فيه !!

أبـو الخير : مش فى الكردان ، ده يا مرجانة ٠ ياحبة القلب ٠

مرجـــانة : (فى مناجاة خاصة) عمرك يا مرجـــانة ، ما لبستى حلق قشرة هوا أنا اتولدت فين ٠

أبـو الخير : فى البراح ٠ انولدنا فى البراح يا مرجانة ٠ مالك ٠ يا حبـة القلب ٠

مرجـــانة : (تنظر الى أبو الخير ، تستدير الى جهة البراح ٠٠ ٠٠ وتحيط ذراعيها بنتوء الشـــجرة ٠٠ تصرخ بقوة ٠٠ حين ترى أبو الخير يبتسم لها) ٠٠ كردانك يا ســـطوحى ما يلزمنيش ٠

ســـطوحى : ده ذهب خالص ٠ مانزلشى مصر ٠

مرجـــانة : ولا ورد على بر ٠ بس ما ينفعش مرجانة ٠

أبـو الخير : (ينهض واثقا من نفسه وفرح يغمره) ٠

شغلنا ما يتقلش بمال ٠ ولا بكردان يا سطوحى ٠ يا سطوحى
افهم بآه ٠ دى حاجة جديدة ٠ دا آخر شقاية ٠ آخر العنقود ٠

كل طوبة فى البراح بتنادى ٠ أبو الخير اسقينى ميه ٠ مرجانة
رشينى برسيم ٠ القلب فرحان ٠٠ فرحان يا سطوحى ٠

(يحاول أن يمسك يد سطوحى ٠ ينفر سطوحى منه بشكل واضـــح) ٠

سـطوحي : طول عمرك شقيان · فى أرضه · زى ما انت شقيان فى البـراح ·

أبـو الخير : الأجـير عمره ما يحط قلبـه · ويدويه · فاهمنى يا سـطوحي ·

سـطوحي : (بحـدة)

بس الأرض مش أرضـك · نفسى أرسى على بر يا خلق ·
دى بتاع الناس · بيقولوا كده · هو بيقول كده · كل واحد
له قيراط واللا سهم · ما هو الحوض طوالى وانت عارف ·

مرجـانة : هوا بيقول كده ·

سـطوحي : (لاهثا) والناس ·

مرجـانة : آه من الناس ·

سـطوحي : دى العملية خلاص · اتفق مع الناس · مع عبد العاطى

والشيخ أحمد · وعبد الرحمن · وسـيدهم · حيشترى
الأرض منهم · حتى شيخ الجامع بيقول كده ·

أبـو الخير : حيبعهم صورى مش كده · دى عادته من زمان ·

مرجـانة : موتوا حميدة · أم أحمد · ضحكوا عليها · كتبوها

عقد صورى · سجلوا الأرض ، لهفوها منهـا يا عينى ·

ويوم ما رفع الواد الشيخ محمد راسه · انزاح من البلد ·
يا هوه · انت الظاهر بتنسى ·

أبـو الخير : حتى ولو انزحت زى الواد الشيخ · اللى بيلف فى
كل كفر · حافضل زى النبت الأخضر اللى طلع بين الحسك
والشـوك ·

سطوحى : الفلوس كتيرة · والناس غلابة · فقرا · بيموتوا من الجوع · الفلوس يا مرجانة هيا اللى بتمشى البلد دى الوقت ، الفلوس والناس غلابة (يبتسم) والكردان دهب أصفر · ملعلط · مانزلش مصر · ولا ورد على بر ·

مرجانة : كردان دهب أصفر ملعلط · هيه والله زمان ·

أبو الخير : (منفعلا) والناس يا سطوحى · أنا يهمنى الناس · أنا منهم · من تحت أصغر واحد فيهم طلعت · الناس مالهم · مالهم الناس يا سطوحى قول لى ·

سطوحى : وافقوا طبعا ·

مرجانة : انت تايه عن الناس يا ابو الخير ·

ابو الخير : (يلف المسرح فى غضب ، ينقل بصره بين سطوحى ومرجانة جهة البراح) ··

عين النار لسه مشعللة · الكلاب الحمر ، والسود ، بياكلوا فى بعض ، منين أجيب ناس يفهموا الكلام · السيجة حامية (يصرخ) يا اهل البلد انتم فين · عمال أروح وآجى · أقول لكم كلام · تسكتوا · وتقولوا حلو · ولما أدير ضهرى تقولوا مر · سيجة حامية مشعللة ·
(يستدير الى سطوحى)

كانوا فين يا سطوحى · انت معايا من زمان · ليه ما مسكوش الفلق والفاس · واشتغلوا فيها بدل التراحيل والتملية · أنا وانت والناس دى كلتها فى البلد العفشة دى اتولدنا والبراح خرابة · ساكناها الوطاويط ، وعاشقين الليل (بأسى) لما أصلحها يقفوا قدامى · ما تقول يا سطوحى انت معايا من زمان ·

ســـطوحي : مش حيضرهم في حاجة أبدا انك تزرع البراح ٠ انما هو اللي حينضر ٠ الناس في ايده زى كلاب السيجة ٠ انت قلتها دى الوقت ٠ (يتمهل وبطء) ما عرفتش عمل ايه في الأراجوز !

مرجـــانة : (بلهفـــة) الأراجـــوز ٠ ماله ٠ مش باقول لك يا أبو الخير ٠ حاسة انه هوا ٠

ســـطوحي : حبس الأراجوز في السلحليك ٠ لما شـــاف الناس بتتكلم ٠ والعيال بتغنى ٠ ومفيش كده ديك ٠ قدر ينقـــر تيجان الديك والناس بتهلل ٠ له هنا ، وله هناك ٠ حتى النسوان زغردوا ٠ فرحوا لما شافوا الفراخ ٠ غلبت الديك ٠ غلبت الديك ٠ (يبتسم في افتعال) ٠

مرجـــانة : والأراجوز عمل فيه ايه ٠

ســـطوحي : لما شافه ، بص فيه كويس ٠ اغمى عليه ٠ فر من قدامه الأراجوز والناس بتجرى وراه ٠

مرجـــانة : عاوزه تمســـكه ٠

ســـطوحي : مش عارف ٠ انما الناس فرحانة بيه ٠

أبـو الخير : ان شاء الله حينصب في البراح ٠ ونلم الناس قدام الخص ونفرح ٠ ما هو برضه مننا يا سطوحي ٠

مرجـــانة : آه الخص حنبنيه من خوص ٠ وبوص وزعازيع قصب ٠ كلتها يومين ونعيش فيه (في شرود) ويجيلك يا مرجـــانة العيال الصغيرين ، احكى لهم حواديت ٠ احكى لهم الحدوته الكبيرة ، الكبيرة أوى ٠

ســـطوحي : (يلزم الصمت)

أبـو الخير : من يوم ما مسكت الفاس ، ودراعى كبرت ، وصدرى اعرض يا سطوحى ، شميت هوا جديد • رقصت على ضربات الناس غنيت ويا الحصاوى • استحميت بالعرق • (بتوهج) ما هو الخير انك تعشق النور • عرفت ازاى الأجير ميدويش قلبه • (يواجه سطوحى) أنا حازرع الأرض برسيم مليت البراح ميه (بفرح ونشوة) حتزهزه الأرض ، تتمايل زى أم الشعور (يتوقف وينظر الى سطوحى) تجيش يا سطوحى تزرعها معايه • دى احنا من زمان مع بعض ، فى الحلوة والمرة • سيبه وتعال • تجيش تســاعدنى يا سطوحى • هيه تجيش •

ســطوحى : مش قادر أقول كلمة • لسة مربوط حوالين الغرز مش قادر أقف • مش قادر • أعذرنى يا خوية مش قادر •
(يغادر المسرح مهرولا فى افتعال واضح)

أبـو الخير : هيه • يا زمان • حتى الأصــحاب ، توت ولبــلاب يا رمــاح •
(يخرج من المسرح فى اتجاه سطوحى)

مرجــانة : أبو الخير ، رايح فين • قول لى قول •• تقف منفعلة • حركاتها تتسم بالعصبية ، يدخــل برى من الممر المؤدى الى الغيطــان •

مرجــانة : (تجرى نحوم) برى •• بـرى • الحق • أبـو الخير طلع ورا سطوحى أنا خايفه •

بــرى : سطوحى كان موجود •

مرجــانة : خايفة أحسن يطخوه •

بــرى : أبو الخير مينطخش •

مرجـــانة : ماموت أبو اليزيد الراجـــل الكبرة · يقوم يعملها معاه · بعيد الشر · (تطوح بيدها وتنفعل) بعيد الشر ·

بـــــرى : أبو اليزيد كان من اللى بيتحسروا وبس · ودول موتهم زى وجودهم · لا يزودوها ، ولا يقللوها يا مرجانة ·

(يلاحظ أن مرجانة اتخذت مدارا تدور فيــه كما التائهة · وفى المقابل يبدو برى كذلك) ·

مرجـــانة : خايفة على أبو الخير ·

بـــــرى : أبو الخير اتزرع فى الأرض من تانى · عشـــان يكبر ويجيب الخير ·

مرجـــانة : صحيح · بأه حنزرع الأرض من تانى ·
بـــــرى : كل حاجة حتستوى · حتى انت يا مرجانة ·

مرجـــانة : أنا (تضحك) ما أنا استويت خلاص ·

بـــــرى : واللى فى القلب حيفضل عجر أخضر ما استواش ·

مرجـــانة : عجر أخضر · ده لغز واللا ايه ·

بـــــرى : (بحذر وخوف) خايف أكون غريب · خايف لما انبش الماضى تقولى كلمة تخلع النافوخ ·

(يتخذ له مدارا ويلف)

واحنا صغيرين بنينا العشش ، الشعر الأسود اللى زى الليل ضلل علينا ·· والقمر ، حير الجدعان ، وحيرنى · والقلب زى الحولى · يترقص ويتغندر ·

مرجـــانة : كان زمان · راحت اللحظة القمرايه ·

بـــــرى : فى قلبى نبته مزهزهه ·

مرجـــانة : (تلف بسرعة)

واحنا صغيرين · ورا الحولى جرينا كتير · بصينا فى العين قرينا المستخبى والقمر يحلم معانا · ونهرب من شقا مليان تراب · كل ليلة وكل يوم · شقا مليان تراب · كنا نهرب · كنا نلعب كانت الدنيا فرحة كبيرة ، رغم ان الدنيا ·· قاسية ·· كل ليلة وكل يوم شـــقا مليان تراب ·· كنا نغطس فى موج سعدان ·· يفرش لنا موجة ·· ويقرب الشطين ·· كنا ·· كنا ··

بـــرى : كنـا نضحك لما نسـمع حسن المغنواتى ، زى رماح دى الوقت · يلف ويبكى على اللى خنق حبه ·

مرجـــانة : سكة طويله قطعناها يا مرجانة ·

بـــــرى : والساقية تبكى ، تئن ، نقوم تبكى على الأرغول ·

مرجـــانة : والقادوس يصب الميه ، يغسلنـا · والدنيا فرحانه والأرض جيبانه ووخدانه ، الأرض ، شبر الأرض (تبكى وهى تدور) حكايه تملا القلب هم ·

بـــرى : (يقترب) وفى ليلة عتمة كئيبة الشكل سجانة ·

مرجـــانة : اندق نصل الأسى فى قلب مرجانة ·

(تلف بسرعة ، وتضغط على المقاطع)

قلبى انفتح للأرض وشـــقوقها · وراجـل طويل بالفاس بيعزقهـــا ·

بـــرى : (يحاول أن يوقفها) ·

مرجـــانة : وراجل طويل بالفاس ينضفها ·

بــــرى : داعمر ما يتنسى ·

مرجـــانة : واللى جاى عمر ما يتنسى ·

بـــرى : مرجـانة ·

مرجـــانة : وراجل طويل يسد عين الشمس وبالفاس يغازلها ·
(تسمع ضوضاء ، تتوقف · تجـــرى مرجـانة · تصرخ ·
ويظهر أبو الخير مسنودا على حازم · وكوكبة من الأشخاص
حواليه والدماء تنزف منه) ·

مرجـــانة : أبو الخير حبيبى ·
(تتقدم نحوه · تنزع منديلها · وتمسح جبينه) ·
عاوزين يقتلوك يـا حبيبى · (تبكى) ينضربوا مايحطـوا
منطق · أعيش ازاى ومين يحمينى · لسة كانوا دى الوقت
بيغرونى · حتى الأصحاب توت ولبلاب · حبيبى · تسد عين
الشمس عايزاك ، معافى ومفرع (تبكى) ·

حـــازم : حاولوا يقتلوه ·

شـــخص : الرصاصة طاشت ·

شخص آخر : صادت غيره · بقرة عبد الدايم ·

مرجـــانة : منـــه لله ·

شخص آخر : عياله صغيرين ·

شخص آخر من الخلف : عاوزين لبن ·

شخص آخـر : أجير مسنود عليها ·

مرجـــانة : (تنظر الى أبـــو الخير) زى مـا انا مسنوده عليك
يا حبيبى ·

شـــخص : الأيام دى الرصاص بيرخ زى المطر ·

بـــــــرى : النـــاس نايمة ٠

شخص آخر : فى العسل نوم ٠

شـــــخص : (بسخرية) عسل !!

بـــــــرى : ما نكتب النـــاس ٠

حـــــــازم : على ايه ؟

بـــــــرى : يبقوا معانا ٠ عريظة للكبار ٠

حـــــــازم : تفتـــكر !!

(ينسحب برى)

احد الأشخاص : عشنا فى البلد من زمان ماشـــفناش لأبو الخير أرض ٠

مرجـــــانة : كانت ملك مين ٠

شـــــخص : كانت مشاع ٠ أرض مشاع ٠

مرجـــانة : ولما ييجى واحـــــد يصلحها ، يخليهـــا تزرع ٠ تبق برضـــك مشاع ٠

الشـــخص : ما هو كل الناس لهم فيها سهم ٠

مرجـــانة : ما هو كل الناس داخلين فى الأرض ٠

حـــــــازم : البراح بتاعنا يا ناس ٠ البراح علامة علينا يا جدعان ٠

شخص من الخلف : مش باين ، ما احنـــــا بنصلح فى البعيد من زمـــــان ٠

حـــــــازم : (منفعلا) مش قادرين تقولوا للغولة عينك حمرة ٠

الأشـــخاص : الغلابة متقولش ٠

شـــخص : الغلابة فقرا ، والجوع كافر ٠

حـــازم : غمانا في عينه ٠

أبـو الخير : (في ألم) جوانه ٠ جوانه الغمي ٠

شـــخص : بيقولوا فيه قانون ٠

شخص آخر : ما تبلغ النقطة ٠

مرجـــانة : كان فين القانون لما بقرتك انسمت ٠

الشخص : (يخرج من المجموع منفردا) ٠

رحت النقطة خدت لى كرباجين ٠ (**منفعلا**) شفتم يا خلق
يا هوه ٠ واحد بقرته تنسم ٠ عشان ما اشتغلش فى الابعدية
ضهر يـوم ٠ ويـــروح يشتكى يقوم هوا اللى ينضرب ٠
وينسجن ليلة ونص يوم ٠ بلاش ازعاج ٠ بلاش يا حضرة ٠
بلاش ٠ بقرتى تنسم وانضرب ٠ واللى ســـمها ياكل معاك
فطير مشلتت وعسل نحل ٠ بلاش ازعاج ٠ بلاش يا حضرة ٠

احد الأشخاص : دول ما بيحكموش ٠

شـــخص : يعنى اللى هنا بيحكم ٠ ما احنا دايما مظلومين ٠

شخص من الخلف : الظاهر ربنا خلقنا بعد ما اكتفى ٠

شـــخص : ملطشة لى بيجى واللى يروح ٠

مرجـــانة : عنا يارب ٠ السكة لسة طويلة ٠ قولوا لى ، ماحدش يقدر يقول للأعرج ٠ يا أعرج ٠

شـــخص : والمصطفى النبى ما أخاف ٠ مادام أعرج ٠

مرجـــانة : طب ما هو أعرج ٠

شـــخص : أعرج ٠ ده عليه رجلين ولا المهر ٠

مرجـــانة : (منفعلة) ٠

أنا حرمة ٠ مليش فى اللى يعمله الرجالة ٠ خايفين فقرا ٠ أجرا ٠ قعرا ٠ مغروزين لشوشتنا ٠ حليكم لغاية ما تعرفوا هو أعرج واللا لأ ٠

(الحيرة تتملك الأشـــخاص ، ينهض أبو الخير فى ضعف ظاهر يلمس كتف أحد الأشخاص) ٠

أنت يا مصطفى تقدر ترمى اللى فى قلبك ٠ (يهم مصطفى بالكلام) أنا عارف ٠ متلجم ٠ واصل المتلجم متكم ٠ والمتكمم أعمى ٠ هو (توزع الأشخاص فى زوايا المسرح) هو مشارك على بقرتك ٠ كل زنقة قدامك ٠ يديلك الفلوس ٠

شـــخص : تعرف منين ؟

شخص آخر : من دراك ٠

شـــخص : من قمحك ٠

شخص آخر : من شـقاك ٠

مرجـــانة : (فى الوسط) من شقاك ٠

حـــازم : ياخد كل حاجة ٠ ويقدم حاجة ٠

أبـو الخير : عشان يقول انه راجل ٠ ينفع وقت الزنقة ٠

مرجـــانة : لا بقـرة طايـل ٠

حـــازم : ولا القيراطين ٠

الأشـــخاص : هينسفوا ٠

مرجـــانة : زى ما احنا مسفوفين ٠

الأشـــخاص : زى ما احنا مسفوفين ٠

أبـو الخير : (يستدير ليواجه الشخص الآخر فى الدائرة المحدودة بزوايا الأبعاد) ليه بيسوق المحصول ٠ مكوش على الكل ٠

الأشـــخاص : مسألتش نفسك ليه ؟

مرجـــانة : ليـــه ؟

أبـو الخير : عشانك والا ايه ؟

حـــازم : والبهايم اللى مشارك عليها ؟

شخص من الأركان : كل راس قصد بنى آدم ٠

الأشـــخاص : دا البنى آدم أرخص شوية ٠

أبـو الخير : ممسكوين من قوتنا ٠ يا ناس ده احنـــا ممسوكين من قوتنـــا ٠

الأشـــخاص : ماليك زمان ٠ مماليك اليوم ٠ من كل الأركان ٠ م السند م الهند ، من بحـــر الصين ٠ من بلاد الغال ٠ من آل عشان ٠ من صلبنه ٠ مماليك زمان ٠ مماليك اليوم ٠

شـــخص مفرد : واحنا بنلف حوالين عمود واحد ٠

شـــخص : مدار واحد يفرز واحد ٠ وغمى واحد ٠

شخص مفرد : الغمى محطوط ع العين ٠ والرجل حافر كبير يضرب يطق شرار ٠

أبـو الخير : ولما وقعت عيـان ٠

مرجـــانة : ولما مات ابنك محمود ٠

حــــازم : ولما وقعت مراتك من طولها ٠

مرجــــانة : عينى يا محمــود ٠ وردة ماتت من غير أوان ٠ طحاله ورم ٠ طق مات ٠ يا عينى يا محمــــود ٠ اتجنت أمك ٠ عايشة فى الطرب ، حفيت ، بتلف ع الناس مين يرجع لها محمود ٠ بالليل والنهار بتدور ٠ بتدور وتدور زى نحلة بتلف على شق تحط فيه ٠

الأشــــخاص ـ يا عينى يا محمود ٠ وردة ماتت من غير أوان ٠ واحنا بندور زى أمك ما بتدور ٠

شخص مفرد : حرم الولاد الخضرة من نعمة بلدهم ٠

شــــخص : ده حتى قالها الأراجوز ٠

ابــو الخير : (يستدير فى تعب واضــــح ليواجه فتحى) الناس بتعرف من مرة واتنين ٠ وانت لسه حاطط على عنيك الغمى ٠

الأشــــخاص : دخلت ليه السجن ٠

حــــازم : لســه داير

الأشــــخاص : ولسه داير !!

فتحــى : (يخرج من الدائرة)

مربوط بحبل ٠ فى غرز عمال يدور ٠ والكل بيقف ، هيه ٠ دخل ٠ خرج ٠ والسجن هوا ٠٠ هوا بره ، وهوا جوه ٠ قالوا قتلت الشيخ ٠ ده راجل طيب ٠ بيعمل بالكتــاب ، هو اللى قتله ٠ كنت معاه ٠ ضربه فى مخه ٠ مخه بظ ٠ اتهيأ لى انه استوى واحد بيتكلم ، فتحى ، يا فتحى محسوب عليك الخطأ ٠ عمر الخطأ ما يضيع ٠ « صمت » حطونى فى السجن ، قلت مش قاتل ٠ هزوا رؤســهم ٠ صوابعك

ع البندقية . دى صوابعه . دى صوابعه يا ناس . يا ناس
افهمونى . سدوا ودانهم . بكيت . عميت بكيت وعميت .
وطلعت م السجن مالقتش قوت ، لفيت مع المدار .
(ينسحب الى مكانه ويدور أبو الخير ويخرج من الدائرة
زينهم) .

الأشخاص : زينهم حيتكلم . يا ترى حتقول ايه زينهم .

شخص : ما اللى حصل انكتب . والى انكتب ما ضاع .

زينهم : (كمن يخاطب شخصا وهميا)
واد يا زينهم (تبيع أرضك وانا موجود) بصيت لنفسى
جوا نفسى . يمكن أصدق . البنت حلوة .

الأشخاص : بلدنا فيها كل بنت حلوة .

زينهم : دول سلف يا زينهم ، اعتبرهم رهن ع الأرض .

الأشخاص : خطوه ورا خطوه .

مرجانة : والفخ يمسك .

الأشخاص : والمنصاد غلبان .

زينهم : قلبى طب . قيراطين . برسيم واللا ، قطن ، والبنت
اللى جوا القلب تعيش منين . رهنية . قلبى طب . دفس
ايده . المدنة الخضرة حلوة ، واليد ممدودة . والبنت حلوة
دى شكليات يا زينهم . مانت حتفضل تزرع . وازرع .
وازرع ، وازرع .

الأشخاص : وبعدين .

زينهم : أربع سنين . بقت الخمسين ميه . ادفع يا زينهم .
منين أجيب لك يا حضرة . ادفع يا زينهم .

الأشـــخاص : ما تدفع يا زينهم !!

زينهـــم : البنت حلوة · مقصوصها أسود زى الليـل · وشامة ع الخد · ادفع يا زينهم · وشاب المقصوص وابيض · قلبى طب ، راح القيراط ورا القيراط · وام شامة ع الخد طفشت ، راحت تنط فى نور ملعلط زى الكلوب · بكيت ، عميت · وعشان ترجع البنت الحلوة ، لفيت مع المدار ·

مرجـــانة : (صارخة) نبق مين ؟ احنـــا نبق مين ؟ ما تقولوا يا جدعان !!!

(تنقفل الدائرة · ويظلم المسرح · ويحل صمت ثقيل · وتتحرك الأشخاص كما الأشباح · يرفعون الأيدى ، وينكسون الرءوس وينظرون أحيانا الى سقف المسرح · تخلو الخشبة ثم تنغمر بضوء وموسيقى خفيفة · ويدخل المسرح مجموعة من الأطفال يتقدمهم طفل صغير يحدو لهم) ·

الطفـــل : حادى · بادى · كرنب زبادى ·
نجمة تنزل ع السعداوى ·
عمدة دارنا · واكل خيرنا ·
رابط ديلنا · فى الغرزادى ·
يالله نهاجمه · فى الشغلادى ·

الأطفـــال : هيه · هيه · بالله نهاجمه فى الشغلادى ·

طفـــل : بيقولوا العيار فلت ·

طفل آخر : معدناش حنسمع حواديته زى كل ليلة ·

طفـــل : ولا حتى حـدوتة الجن الأحمـر اللى طلع فى الخـرابة وخوف العفاريت ·

طفـــل آخر : ولا الشيخه اللى بتلف حواليه ·

طفــــل : وهيا بتقول توت . توت . توت . توت .

طفــــل : ده أنا شفتها بتحضنه .

طفــــل : وأنا سمعتها بتقول له . يابنى الكبير ريحنى بأه .

طفــــل : ده كله منه . بيقولوا كده .

طفل آخر : ولاده بيلعبوا معانه ليه .

طفــــل : وهما مالهم .

طفــــل : والعمل يا عيال .

طفــــل : ده أبويه زعلنى مرة . وكنت زرعت شبرين سريس فى الحوادية . ومارجعتيش الا لما كلوا منه .

طفــــل : فين صدرك الدافى يا خالتى مرجانة .

طفل آخر : يالله نزعل من أبهاتنه . ونزرع سريس .

طفــــل : ونفضل نعيط . لغاية ما أمهاتنه تعيط .

طفــــل : وييجوا معانه لحد هنا .

الأطفــال : هيه .. صح .. صح . يالله نعيط .
(تهـــرع مرجانة)

الأطفــال : ازاى عم أبو الخير .

طفــــل : عاوزين نسلم عليه .

مرجــانة : تعال يا حبيبى . تعالوا كلكم . ده حيفرح أوى .
(يدخلون الدار . يدخل عليقة الى خشبة المسرح ويجرى وهو يلفها . وأمرأته تجـــرى وراءه . ديله فى فمـه ودكة السروال تروح وتجىء) .

عليقـــة : رايحـه فين يا وليه ٠

المـــرأة : انت اللى رايح فين ٠

عليقـــة : نطل ع الرجل اللى انطخ ٠

المـــرأة : قدامى ع الدار ٠ مش ناقصين ٠

عليقـــة : يا وليه اختشى ٠ الراجل مضروب ٠

المـــرأة : واحنا مالنا ٠ ملوش ولاد يخاف عليها ٠

عليقـــة : (يقف ويضغط على دكة سرواله)
هنا يا وليه مش حقيب ٠

المـــرأة : احنا مش اد العملية دى ٠

عليقـــة : (يلتفت الى أســـفل)
تخونك المرجـــلة ٠

المـــرأة : (تتقدم نحوه بعنف) ٠

عليقـــة : (يتراجع ويبدأ فى الدوران) ٠
روحى حطى رجليك فى مية ساقعة ٠

المـــرأة : أخسر دينى ٠ لأعلقك فى السقف الليلة ٠

عليقـــة : خليك عاقلة ٠ الناس زارته حتى العيال ٠

المـــرأة : وانت بقيت للعيال ايه ٠

عليقـــة : (يقف ويواجهها) ٠

المـــرأة : واقف لى كده ليه ٠ احنا أده ٠

عليقـــة : واحنا مالنا وماله ٠ انما احنا هنه بنأدى واجب ـ

المـــرأة : كده · طب آهو جاى الليلة حيفرتكك · (تصحن بكف يدها اليمنى بطن يدها اليسرى) ·

عليقـــة : هوا بيجى من غير ما اعرف · هوا بيسهر ·

المـــرأة : سهر فى عينك · جاى عشان يسلفك القرشنات ·

عليقـــة : مش عايـــز ·

المـــرأة : وتاكل منين يا حسرة ·

عليقـــة : ما هـو ··· يـا ···

المـــرأة : ماماهوش ···

(وهو يلف ، ومرأته وراءه تخرج مرجانة ومعها الأطفال · يصيح الأطفال) ·

عليقـــة : بأه أنا يا مره استاهل كل ده ·

مرجـــانة : مش قـادر تقف قدام مراتـــك · أمال حتقف قدامه ازاى ·

عليقـــة : قضا · بيدلدل الراجلين ·

المـــرأة : بيدلدل ايـه ·

عليقـــة : مش انت · دا القضا · القضا يا اختى ·
(يخرج من المسرح والأطفال يضحكون) ·
يتقدم مجموعة الأطفـال
ردوا ورايه يا عيـــال

طفـــل : حنقول ايـه ·

الطفـــل : الفجـــر طالع ·

الأطفـــال : الفجـر طالع .

الطفـــل : والنســـمة جيه .

الأطفـــال : والنسمة جيه .

الطفـــل : والأرض دايمـــا .

الأطفـــال : والأرض دايمـا .

الطفـــل : تجرى فيها الية .

الأطفـــال : تجرى فيها الية . هيه . هيه .

(يتحركون الى البلد . ونسمع رجع الصدى) والأرض دايما تجرى فيها الية . هيه . هيه .

مرجـــانة : (تقف فرحة) .

بيحبوك يا أبو الخير . زى أبوهم . زى اخوهم اللى لســه مجبتوش وبتحلم بيه .

(تدلف الى الداخل) .

ويدخل سطوحى . عيناه تحملقان فى الدار . معه زجاجة كوكاكولا مليئة بالسبرتو . دقات طبول من جوانب المسرح . يضغط على أذنيه . يصدر آهات حادة يشرب السبرتو سريعا .

ســـطوحى : (مش أنا السبب . مرســـال . مجرد مرســـال . ده احنا أصحاب . عرفنى حاجات كثيرة . دا انت حياتى) .

(يتصور شبحا يتحرك فيتقدم نحوه) .

أبو الخير جدارنا العريض .

(يختفى الشبح) .

غلطان . مادام بتقول غلطان . أبقى غلطان .

(يسمع صوت رماح فى الغيطان) .

غزالة حلوة ٠
توت ولبلاب ٠
تحت الحجر ٠
والساقية دايره زى القدر ٠
مخروطة العين ٠
والدم ساح هدر ٠

رماح بتسمعنى صوتك فى الوقت ده ٠ ليه ، ليه ٠

كنت ساكت ! أشوف لسانى مقطوع م اللغلوغ ٠ ده أنا وأبو الخير أصحاب ٠ عشنا فى الترحيلة سوا فى التميلة سوا ٠ عنده سوا ٠ قطعنا السكة مع بعض ٠ لكن عمتنى المدنة الخضرة ٠ ما هو البنى آدم الغلبان ٠ مايستحملش يشوف المدن الخضرة ويسكت ٠ خد يا سطوحى ٠ هات يا حضرة ٠ روح يا سطوحى ٠ حاضر يا حضرة ٠ وحضرة كتم نفسى ٠ وخلانى حتة قماش مرهرطة ٠

(يتخيل دما على خشبة المسرح) ٠

دم ٠ دم ٠ منين ٠ ده أنا مقتلتش حد ٠ (يتسمع هاجسا) ٠ ٠ ما قفش معاه زى ما يكون قتلته ٠ أنا ماخنتش ٠ (يتقدم عليه) حاحط ايدى فيك ٠ ألطخ بيك جدران البلد ٠ يصحوا ، يبصوا ، يبحلقوا ٠ (يسمع صوت آهة ويرى شيئا كالسلسلة) حديد مشنكل رجلينا ٠ كفاية بأه كفاية (دقات طبل قوية فى كل الأركان يدور) ٠ لسه حندور (ينظر الى رجليه) ٠

رجليه لسه عايزة تدور ٠ لأ ٠ (يجاهد فى التوقف) ٠ لأ كفاية ٠

(يضغط بقدمه على خشبة المسرح) لأ ٠ مش حدور ٠ مش حدور ٠ (بصوت عال) مش حدور ٠ كفاية بأه ٠ كفاية بأء ٠ (يتجه الى الدار ٠٠ باب الدار يفتح ويدلف اليها ٠٠ ومرجانة باب الدار يفتح ويدلف اليها ٠٠ ومرجانة تبتسم فيظهر شبح الشيخة وهى تنتقل الى الممر المؤدى الى الى البلد) ٠

(ويسدل الستار)

●

الفصل الثالث

(تنقسم خشبة المسرح الى قسمين • البنايات فى الزاوية العليا وهو المنظر الأول • والزاوية المواجهة تمثل أرضا • هى البراح • جسر من الشمال تليه سكة تتصل بالبنايات • تختفى خلف اللوحة السابقة ثم تظهر أمام البنايات • كما فى المنظر الأول • يواجهنا كوخ من البوص والحطب • به بعض البناور • عمود من الكافور أمام الكوخ ، يرى مزمار بلدى • ولبدة معلقة على جذر بوص وأدوات الفلاحة من فأس ومنجل مبعثرة أمام الباب • وراء الكوخ سكة • يظهر أبو الخير وبيده فأس صغيرة •

الرجال يمرون سراعا • يتوقفون • يلتقون فى صمت • ثم ضحكات تتعالى • تقابلها ضحكات صاعدة من الزاوية العليا • حيث مرجانة تحادث بعض النسوة • الأضواء موزعة على خشبة المسرح ككل • بحيث يرى المشاهدون الزاويتين • يمسك أبو الخير الفأس ويعمل فى صمت • ثم ينتقل الى داخل الكوخ • ويخرج منه الى السكة خلفه • فى حين نرى ضجة فى البنايات) •

مرجانة : (الى النسوة)
النهارده عيد ياولاد •

امرأة : مين معاه هناك يا مرجانة •

مرجانة : (بفرح وكبرياء) •
لوحده ، لوحده ياختى •

امرأة أخرى : والبـاقى ٠

مرجـــانة : حيروحوا له ٠٠ كل واحد حيحصله ٠ أمال ايه ٠ ياولاد ٠

فتـــــاة : لو ، الدلعدى يبق زيه ٠

امـــــرأة : الدلعدى مين يا بت ٠

مرجـــانة : ايه ٠ حبيب القلب يا خضرة ٠
(يضــحكن) ٠

الفتـــــاة : (تنتحى جانبا ٠ وتحادث نفسها بصوت عال) ٠
نفسى نخلص من زمان ٠ انما أعمل ايه ٠ يلف ويدور ٠ استنى يا ستيته ٠ الترحيلة وخداه منى ، واستنيت ، هرب من البلد ٠ أنا بأجمع المهر يا بت يا ستيته ٠ آه يانا ٠ مهر ايه اللى مخليك بعيد كده ٠ قلبى من كتر ما دق ما عدش فيه دقة يا عليوة ٠ يا نن العين ٠ ياالله بأ، ٠

مرجـــانة : ربنا يريحك يا ستيته ٠

امـــــرأة : ما هو لما يدخل القلب ينغمشه ٠

امـــــرأة : بيلحس العفل ٠ أنا تايهة عنه ٠
(يظهر عليوة فجأة) ٠

ســــتيته : جى ليه يا عليوة ٠ هنا ٠

عليـــــوة : أنت هنا ليه يا بت ٠

ســــتيته : علشــان افــرح ٠

مرجـــانة : النهارده عيد يا واد يا عليوة ٠

عليـــــوة : (ينتحى مكان ويهمس بقوة) ٠
لنفرح لنحزن ٠

امـــــرأة : ربنا ما يجبش حزن يا عليوة ٠

امرأة اخرى : ما تقولش كده ٠ احنا فى ايه واللا فى ايه ٠

مرجـــــانة : يالله بأه عشان نفرح بكم ٠

عليـــــوة : نفسى ٠ دى لحظة مستنيها من زمان ٠
لنفرح ٠ لنحزن ٠

ســـــتيته : حنفرح يـا عليوة ٠ ايه الملافظ دى ٠ بـدل ما تقول
حنتجوز امتى يا ستيته ونفرح امتى يا ستيته ٠
ايه نحزن دى اللى على لسانك ٠
معطلكش ٠
(تضحك النسوة ٠ تسحبهن مرجانة الى الداخل) ٠

عليـــــوة : يا ستيته انت فى القلب ٠ ده أنا لسه جى يدوبك
م الترحيلة ٠ جى قلبى أخضر مزهزه ٠ فضلت الترحيلة على
الأبعدية ٠ تعبت هناك يا ستيته ٠

ســـــتيته : سلامتك ٠

عليـــــوة : عشانك يا ستيته ٠

ســـــتيته : ما أنا بلف برضك اشتغل ٠

عليـــــوة : يا ستيته ، لازم نفرح ٠

ســـــتيته : كدهه ٠

عليـــــوة : كدهه ٠ ادخل بأه مع مرجانة على ما حصله ٠
(يجذبها وهى تحاول الدخول) ٠

بت يا ستيته · أمك عملت الفطير المشلتت يا بت ·
أصلى وحشنى فطيرك السخن ·

ستيته : كدهه · طب عن اذنك ·

عليوة : (يبقى يدها فى يده)
يا بت استنى · قولى لى عملتى ايه فى الجهاز ·

ستيته : جهاز · ازكت تسكت · اتعلمت المألسة دى فين ·

عليوة : مش كل اثنين بيدخلوا يبق لهم عزال · يا بت
يا عبيطة ·

ستيته : قول عزال · الجهاز ده لبتوع البندر · عينى عليك
يا ستيته · يبقى الحصيرة والصندوق · والمخدة والغربال
والطاسة ، بتسميهم جهاز · يا نارى ·

عليوة : واحنا عاوزينه ليه يا بت · ما احنا كده كويسين ·
قلبين بيرفرفوا ع العالى · قدامهم الدنيا مش سايعاهم · انت
فكرك ايه هيا كل الدنيا ايه غير قلبين يا بت بيرفرفوا ع
العالى · آه يا نارى ·

ستيته : بس يـاك ·

عليوة : والمصطفى النبى لنفرح · ايه اللى حيقف قدامنا
يعنى ·

(تخرج امرأة من الداخل ، بيدها مقشة ، تكنس بها ·
جدران الدار · والمصطبة) ·

المرأة : عقبال ما نشف لكم كده · الليلة فرحة ياولاد ·

ستيته : تعيشى يا أم عبده ·

المـــــرأة : (وهى تصعد على حافة المصطبة) ·
شد حيلك كده يا واد يا عليوة ·

عليــــــوة : أنا هربت م البلد خالص ورحت الترحيلة · علشان ملفش · عشان محدش يدورنى ·

المـــــرأة : يا سكرة ، نعيش ومتلفش ·

مرجـــانة : (تخرج · تضـــع الزير أمام الدار جانب نتــوء الشجرة · تغسل فناجين القهوة والشــاى · تتقدم ستيته وتأخذهم منها) ·

ســـــتيته : عنك يا خالتى ·

مرجـــانة : (على انفراد) ·
سيبى وشوفى عليوة ·
الواد من مدة مجاش متغرب عشانك يا ستيته ·

ســـــتيته : (تضحك فى خجل) ·
ما احنا اتكلمنا كتير ·

عليــــــوة : أنا سامع ·

مرجـــانة : ودانك سفافير · ربنا يطمنك ونفرح بيك يا واد يا هراب ·

عليــــــوة : ما أنا جيت أهوه · بقى لى رجل فى الحكاية · ده أنا من زمان ليه رجل كبيرة · بس كنت بعيد ·

مرجـــانة : تسلم رجلك يا عترة ·

ســـــتيته : ما تروح بأه تحصله هناك ·

المـــــرأة : (وهى تكنس) .
مشبعشى لسه يا نضرى .
(تضحك النسوة ، وينسحب عليوة . فى اتجاه البراح عن طريق الممر الخلفى فى الزاوية المواجهة . يظهر أبو الخير فى أرض البراح . قنـــاة محفورة . البلولة تغطى الأرض . الأرض مقسمة الى أحواض صغيرة . أبو الخير يعقد رأسه بمنديل ويحزم وسطه بحزام قطنى . يمسك الفاس ويبدأ فى تســـوية الأرض وعزقهـا . يمـر دهب فى طريقه الى البنايات) .

دهـــــب : صباح الفل ع العترة .

أبو الخـير : صباح الخير يا دهب . ازيك .

دهــب : مبروك يا راجـــل والله دى حاجة جديدة . البراح لما نضف ، نضف اللى حواليه .

أبو الخـير : مش كده أحسن يا دهب .

دهـــــب : الناس مليانة فرح من جوه .

أبو الخـير : (يهرع أليه) .
صحيح .. بتقول جد .. قول الجد يا دهب .

دهـــــب : وايمانات المصطفى دا الحاج رجب اللى سلم للعمدة فى شبرين . فرحان ما بعده . وحالف يديلك بدالهم قيراطين .

أبو الخـير : وهوه . وهوه . يا دهب .

دهـــــب : مغموم ، مغموم لشوشته . انما اسكت . الناس فرحانة . مزقططة . تقولش عيد .
ده حتى النســوان بتوعنـا عندكم فى البيت . مع مرجانة بيزقلطولها الدار .

أبو الخير : قلبى يا مرجانة ٠

دهب : الناس مش مصدقة ، حاجة زى دى تحصل ٠ انما اتصور ٠ الشيخ أحمد مؤذن الجامع ٠٠ حالف انه يجيب حافظ الأسعد بأرغوله ومهران بطبلته ، الليلة فى الدار عندكم ٠ ويقيموها نصبة ٠

أبو الخير : آه يا دهب ٠ الناس معدنها عمره ما يصدى يا دهب ٠ أد كده الناس مليانة فرح ٠ قول لى يا دهب ٠ فين فتحى وزينهم وعبد الفضيل ، فين سطوحى قول لى فين ٠

دهب : متنطورين فى البلد ٠ لمه هيصة ٠ ربطية أولاد حلال ٠ انما قول لى ٠ انت لسه مبدرتش البرسيم ليه ٠

أبو الخير : حاغمرها بالمية تانى يا دهب ٠

دهب : طب اشهل لأحسن النوبة قربت نخلص ، متبطيش يا أبو الخير ٠ البرسيم وضع يد ٠ ده غلس يا الله تمم فرحنا يابوى ٠ (ينصرف فى اتجاه البنايات) ٠

أبو الخير : حيتم ٠ لازما يتم ٠
(يتجول فى البراح بفرح طاغ) ٠
دى الوقت يا مدندشة ٠ ارتويت بمية النيل ٠ بالطمى الأسود وبركة الشيخة ٠ حابدر البرسيم يملاك خضار ٠ ونغنغة ٠ امتى بأه الواحد يحس انه حاجه ٠ حاجه تفرض على الناس الاحترام ٠ امتى تتلم الناس فى واحد ٠ امتى أقعد أستريح ويا مرجانة قدام الخص ٠ وعيال صغيرين ٠ قدامنا نحكى ايم الحدوتة ٠ ما هو البراح حدوتة يا خلق ٠ (يسرع) والشمس تملا الأرض بالنور ٠ يختلط بالبراح زى ما اختلط عرقى ٠ عرقى يا عرقى !! وعصافير الجنة ترفرف حوالينا ٠ واحنا

نهب · ندب · نرفرف معاهه · وعيدان الكافور تتمايل ·
تدلع (بفرح) ·· والله بقيتى تتسمى يا حلوة ·
(يظهر عليوة قادما من البنايات يلتقى بدهب يحتضنان ·
يتحركان وسط المسرح · قرب الزاوية العليا) ·

دهـــــب : حمد الله على سلامتك · يا هراب ·

عليـــــوة : ازيك يا دهب · وحشتنى · وحشتونا يا عيال ·

دهـــــب : وناوى تقعد ياله ·

عليـــــوة : معاكو يا دهب · ابق معاكو يا دهب ·

دهـــــب : دى تبق احلوت ·

عليـــــوة : انت جى منين ·

دهـــــب : م الغيط ·

عليـــــوة : محودتش · ماله · عامل ايه · ازيه · قول لى ·

دهـــــب : حيلك ·· حيلك ·
غمر البراح مية · فاضل البرسيم · كلتها ساعات طويلة
ويزهزه البراح · انما ايه · قنبلة ياله · قنبلة ماحصلتش ·
(يخبط على فخذه بقوة) ·
ده أنا متهيألى ياله يا عليوة ، انكم سمعتم الخبر ده هناك ·
أصله خبر زى الطبل ·

عليـــــوة : بتقول فيهه ·

دهـــــب : صحيح !

عليـــــوة : والله جانا الخبر ·

دهـــب : صيت البراح ضرب فى البـلاد دى كلتهـا حتى فى التراحيل ٠

عليـــوة : أراجوز يا دهب ٠ أراجوز انما واد نضيف ٠ يقول الكلمة تطلع من النافوخ حكى لنا ٠ وشخص قدامنا كدهه ٠ عينى ٠ عينك ٠ عن ديك ، وشوية فراخ ٠٠٠ و ٠٠٠

دهـــب : (مقاطعـا) ٠
يا خبر ٠ ده هوا الأراجوز ٠ اللى كان هنا من كام ليلة ٠ انما اسكت ٠ واد بصحيح ٠

عليـــوة : أنا قلبى تغمش لما شفته ٠ زى ما يكون الشيخ محمد يا دهب ٠ فاكره يا دهب ٠ الشيخ محمد اللى وقف فى وشه وقال له بأعلى صوته انتوا الحرامية واحنا المسروقين ٠

دهـــب : آى ٠ آى صحيح ٠ مرجانة قالت كده برضك ٠

عليـــوة : قالت ايه يا دهب ٠

دهـــب : أنا لما شفت الأراجوز ٠ حسيت انه الواد الشيخ محمد ٠ كلاله زى كلامه ٠ نبرته ٠
صوته هوا هوا ٠ بس مغير فى نفسه ، وفى وشـه ٠٠٠ يا ولداه ٠

عليـــوة : لما شفته أنا يا دهب ٠ خدته بالحضن ، عيط ، عيط دمع سخن ملهلب ٠٠ الناس اتلمت ٠ عيطت ٠ الناس بتحبه يا دهب ٠ وهوا سواح مالهوش قرار خدنى يا دهب ٠ وهمس فى ودنى كلام سخن أوى ٠ انت هنا والبلد مقلوبة يا عليوة ٠ حضنته ، بسته ، قلت تعالى معايه ٠ سكت وقال لى ٠٠ححصلك ومشفتوش يا دهب بعد كده ٠

دهب : ده سبقك يا عليوة · فات ع البلد · قال كلامه الجديد · هز الناس ···· زحزحهم شوية · ولما سأل عنه · فص ملح وداب · ده عامل عمايله · هيه ·· والله سلامات يا عليوة ·

عليوة : وانت رايح فين ·

دهب : محصل الدار · وجى ·

عليوة : منتظرك يا دهب ··· يا صاحبى الشقى ·

دهب : جى لك · يا هراب · جى لك فى البراح ·

(يختفى دهب فى الطريق المؤدى الى العمار · يظهر عليوة وهو ماض الى البراح · يظهر أبو الخير قادما من وراء الخص فى يده اليمنى المنجل يطوح به فى الهواء يتأمل عليوة الأرض · يظهر دهب وهو يمر على البنايات · يشم رائحة الفطير · ليقف ويلهف نفسا عميقا · تظهر مرجانة وهى تسكب بعض الماء تلمحه) ·

مرجانة : دهب ازى الراجل ·

دهب : راجل يا مرجانة · انما ايه الريحة الحلوة دى ·

مرجانة : فطيرتين · مكلش سمن من رمان · حد هناك يا دهب ·

دهب : قابلنى عليوة رايح هناك ·

مرجانة : محدش معاه · برى واللا حازم · واللا ···

دهب : لأ · لوحده · بيزغرد لوحده ·

مرجانة : (بحزن) كدهه ·

دهـــــب : الناس فرحانة وكلتها رايحة هناك · الناس حتعمل فرح موصول ·
(تخـرج سـتيته) ·

ســـــتيته : عليوة وصل يا دهب ·

دهـــــب : ايوه · خايفة عليه كده ليه ·

ســـــتيته : راجلى يا خوية ·

مرجـــــانة : تانى عنيك زايغة ·
(يضحك دهب · تملأ مرجانة القلة) ·

ســـــتيته : (بصـوت عال) ·
يا أم عبده اشهلى · الواد عليوة مكلش ·

صوت من الداخل : ماتيجى يا اختى تقعدى قدام الفرن ·

ســـــتيته : طب يا اختى · ادينى حاجى · أحمو الفرن ·

دهـــــب : واللاعليوة ·

مرجـــــانة : اختشى يا واد يا دهب ·
(وهى تضحك · تقع القلة من يدها تنكسر ، يصيبها الهلع ، وتقف صامتة ترتعش) ·

دهـــــب : جرى ايه · قلة تنكسر تعمل فيك كده ·

مرجـــــانة : مش قلة يا دهب ·

دهـــــب : أمال ايه ·

(فى الجانب الآخر ، يخرج أبو الخير من الخص مسرعا ، ويسمع صوت طلق نارى ، يبدو أبو الخير هائجا ، يتحرك هنا وهناك) ·

أبو الخـير : مفيش فايدة ، لسه مش عارفين ان أبو الخير ٠٠ هو أرض البراح وحتفضـل معرشـة ٠ ومزهزة ٠٠ مت ، واللا عشت ٠ (بحزن) لكن ليه يعملوا كده ٠٠ هوا احنا بنعمل حاجة غلط ٠٠ ده احنا بنصلح خرابة ٠٠ علشـان نعيش فيهـا ٠٠ زى خلق الله ما بيعيشـوا ٠٠ يقف قدامى ليه ٠٠ يكره ٠٠ لنا الخير ليه ٠٠
(بحدة) هوا فاكر ان البندقية كل شيء ٠٠ عمر ما كانت البندقية طريقة للخوف ٠٠ الالى بيخافوا ٠٠ من كل حاجة حلوة ٠٠ بس هوا انتهى ٠٠ ماعدش ليه وجود ٠٠ طب ليه الناس خايفة ٠٠ ليه ٠٠ ليه يا أبو الخير ٠٠
(فى الجانب العلوى) ٠

مرجـــانة : أنا حاسة ان فيه حاجة ٠

عليـــــوة : (وقد اقترب من البراح) ٠
عيار بندقية ٠ أبو الخير ٠
(يسرع) ٠

أبو الخـير : مهما يكن أنا أبو الخير ٠ حافضـــل أبو الخير وحتفضل أرض البراح ٠

مرجـــانة : قلبى وقع ٠ قلبى طب ٠ فيه حاجـة ٠ لازما فيه حاجة ٠ قلبى لما يرتعش يبق فيه حاجة (تتوجه الى دهب) ٠ حد هناك ٠

دهـــــب : لازما عليوة وصل ٠

مرجـــانة : قلبى طب ٠ قلبى وقع ٠
(تتركه وتجرى الى البراح) ٠

أبو الخـير : مهما يكن ٠ أنا أبو الخير ٠ النار مش حتموتنى ٠٠ أبو الخير ماهواش البراح بس ٠